

أوركياني العصور الوسطى

تأليف

(H. W. C. Davis) هــ. وـ. سـ. دافيس

ترجمة

دكتور محمد عبد الحليم

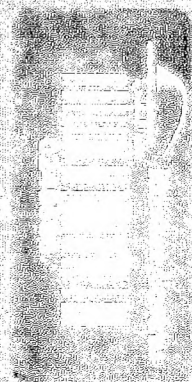
مركز الدراسات والبحوث
في اللغة العربية

الطبعة الأولى

الطبعة

الطبعة

١٩٦٨



أورباني في العصور الوسطى

تأليف

هــ ٠ وـ ٠ ديفز (H. W. C. Davis)

ترجمة

الدكتور عبد الحميد حمدي محمود
الاستاذ المساعد لتاريخ المصود الوسطى
بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

الناشر   الاسكندرية

١٩٥٨

طبعات الكتاب في لغته الأصلية (الانجليزية)

الطبعة الأولى ١٩١١

وأعيد طبعها في السنوات :

١٩١٥ ، ١٩١٩ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٤

١٩٢٥ ، ١٩٢٦ (مرتان) ، ١٩٢٧

١٩٢٨ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤١

١٩٤٤ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٤

محتويات الكتاب

٥	مقدمة الترجمة العربية
٩	مقدمة المؤلف
١٣	الفصل الأول : سقوط الإمبراطورية الرومانية
٢٧	الفصل الثاني : الممالك الجرمانية
		الفصل الثالث : الإمبراطورية والملوك الجسدية
٥٨	من ٨٠٠ - ١٠٠٠ ميلادية
٨٨	الفصل الرابع : الإقطاع
١١٠	الفصل الخامس : البابوية قبل جريجورى السابع
١٣٢	الفصل السادس : الكنيسة الهلديبرانية
١٥٣	الفصل السابع : الدولة فى العصور الوسطى
١٧٨	الفصل الثامن : الاستعمار الأوربى - الحروب الصليبية
٢٠٩	الفصل التاسع : المدن الحرة
٢٥١	قائمة بأسماء البابوات فى العصور الوسطى
٢٥٩	مراجع متعلقة بتاريخ العصور الوسطى
٢٦٧	فهرس عسام

الخرائط

٥٦	ممالك البرابرة وامبراطورية الفرنجة
١٥٦	فرنسا
١٥٨	الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت حكم فردريك بربروسا
١٩٢	الحروب الصليبية
٢٢٢	جبال الألب وشمال إيطاليا

مقدمة الترجمة العربية

هذا الكتاب هو ترجمة لكتاب "Medieval Europe" الذى ظهر فى مجموعة " The Home University Library " ومن المسلم به أن تلك المجموعة يشرف على نشرها نخبة مختارة من ذوى المكانة العلمية أمثال Gilbert Murray وغيره من علماء الانجليز . والقصد من هذه المجموعة هو إمداد طلاب العلم أينما كانوا بثمرة طيبة للعلم السليم فى جميع ضروب المعرفة التى يتطلبها عالمنا اليوم . وقد حرص المشرفون على نشر تلك المجموعة على أنتقاء مؤلفين خبراء يمتازون بالمهارة فى عرض مادتهم عرضا علميا واضحا .

ومؤلف هذا الكتاب — الذى نضع ترجمته اليوم بين يدى القارئ — هو هنرى وليم كارلس ديفز (١٨٧٤ — ١٩٢٨) ، وكان مؤرخا من الطراز الأول ، وهب حياته للعلم ، فشب طالبا ممتازا طوال حياته المدرسية والجامعية ، وفاز بالجوائز العلمية الواحدة تلو الأخرى ، إلى أن أختير للتدريس بإحدى كليات جامعة أكسفورد فى سنة ١٨٩٥ . ومنذ ذلك الحين توفر ديفز على دراسة التاريخ وتدريسه وخاصة تاريخ العصور الوسطى ، ف قضى ما يقرب من العشرين عاما محاضرا بجامعة أكسفورد ، أشهر خلالها كباحث ومدرس من الطراز الأول . ومن أشهر آثاره التاريخية كتاب «حياة شارلمان» الذى ظهر فى مجموعة

” Heroes of the Nations “ سنة ١٩٠٠ ، وذلك إلى جانب عدد كبير من الأبحاث العلمية نشرت في المجلة التاريخية الانجليزية ” The English Historical Review “ ، فضلا عن مقالات في النقد والتحليل في سائر المجلات التاريخية الأخرى. غير أن مواهب ديفز كورخ عظيم قد تكشفت للجميع عندما نشر كتاب « إنجلترا تحت حكم النورمان والإنجليز » (England under The Normans and Angevins) وقد أضحى هذا الكتاب المرجع الرئيسى لتلك الفترة من تاريخ إنجلترا حتى وصل عدد طبعاته إلى الثلاث عشرة في سنة ١٩٤٩ . وفي سنة ١٩١١ ألف ديفز كتابه «أوروبا في العصور الوسطى» وقد جاء الكتاب شاهدا على تمكن صاحبه من مادته وغزارة علمه بموضوعه مع توخى الإيجاز وتحري التركيب ، إذ كان عليه أن يكتب تاريخ أوروبا في حقبة تمتد إلى ما يزيد على العشرة قرون ، تبدأ من سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب إلى مطلع عصر النهضة ؛ وذلك كله في نطاق صفحات معدودات لا تتجاوز المائتي صفحة من القطع الصغير .

وعقب الحرب العالمية الأولى ، اختير ديفز عضوا في الوفد البريطانى لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ ، وبعد انتهاء مهمته رجع إلى منصبه في جامعة أكسفورد ، ثم عين أستاذا لكرسى التاريخ الحديث في جامعة مانشستر سنة ١٩٢١ ، ثم أستاذا بجامعة أكسفورد في سنة ١٩٢٥ ، وفي نفس الوقت أنتخب

عضوا في الأكاديمية البريطانية . وقد انتهت حياة هذا العالم والمؤرخ على حين بغتة إذ توفى نتيجة لإصابته بالتهاب رئوي بينما كان منتدبا للامتحان بجامعة أدنبره باسكتلنده سنة ١٩٢٨ .

هذا هو موجز مقتضب لسيرة صاحب هذا الكتاب الذى اقترح على ترجمته أستاذنا الدكتور ج. و. كوپلاند (G. W. Coopland) عندما كان أستاذا زائرا بكلية آداب الاسكتلندية في شتاء ١٩٥٥/٥٤ . وقد شجمنى على أداء تلك المهمة العسيرة أمران : أولهما - قيمة الكتاب من الناحية العلمية وبعد صاحبه عن التحيز وترفعه عن الهوى - وتلك صفة لا بد أن تتوفر للمؤرخ الحق ؛ وشاهدنا على ذلك أن الكتاب حتى وقتنا هذا لا تخلو من ذكره قائمة للمراجع في تاريخ العصور الوسطى وخاصة في الجامعات الانجليزية ؛ ثم أن الكتاب رغم ظهور المؤلفات العديدة والأبحاث الحديثة قد أعيد طبعه ست عشرة مرة حتى سنة ١٩٥٤ ؛ أما الأمر الثانى فهو دخوله المكتبة العربية من كتب أو ترجمات في تاريخ أوروبا الغربية في العصور الوسطى باستثناء كتاب فيشر الذى قام بترجمته أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة والزميلان الدكتوران الباز العرينى وإبراهيم العلوى ، ومن حق القارئ العربى - وخاصة في نهضتنا المباركة هذه - أن يتيح له المشتغلون بالعلم وفرة المراجع في الموضوع الواحد حتى يتمكن من الإحاطة بوجهات النظر المختلفة التى تساعد على إنماء شخصيته واستقامة تفكيره وخلق أفكار وآراء جديدة .

وقد اقتضى منى نقل هذا الكتاب إلى العربية جهودا شاقة

نظرا لشدة تركيز المادة وإيجاز العبارة ؛ وكنت بين هذا التركيز
وذاك الإيجاز مقيدا إلى عجلة المؤلف - على حد تعبير أستاذنا
الدكتور زيادة - فلم أسمح لنفسي بالابتعاد عن النص
إلا في حالات الضرورة القصوى . أما أسماء الأعلام المفعم
بها الكتاب فقد ترجمتها حسب نطقها في لغاتها الأصلية ؛
ولكى لا يلتبس على القارئ قراءة الاسم ، وضعت مقابل
الترجمة الاسم بالحروف اللاتينية . وقد ذيلت الترجمة ببعض
الهوامش توضيحا لبعض ما قد يخفى على القارئ العربى ؛ ثم
أتى أضفت إلى ثبت المراجع فى نهاية الكتاب بعض المؤلفات
الغربية التى ظهرت حديثا وتعالج فصلا أو أكثر من فصول
الكتاب التسعة ، علاوة على الكتب والترجمات والمقالات
العربية التى يستفيد القارئ من الرجوع إليها فائدة محققة .
وفى - آخر الأمر - لمدين بالشكر العميق للاستاذ كوپلاند
لمده إياى بنبله عن تاريخ حياة المؤلف . كما أتى مدين للكثيرين
من الزملاء والأصدقاء للمعونة القيمة التى قدموها إلى بشكل
أو بآخر ، وأخص من هؤلاء بالذكر صديقى الدكتور محمد
عبد المعز نصر الذى قضيت معه الساعات الطوال فى مناقشة
الكثير من غوامض الكتاب ، وشقيقى محسن الجوهري الذى
قرأ الترجمة العربية وقوم الكثير من عباراتها .

عبد الحميد محمد محمود

الاسكندرية - يناير سنة ١٩٥٨

مقدمة المؤلف

إن أى. تقسيم للتاريخ إلى عصور أو فترات هو تقسيم غير طبيعى ، وكلما زاد التقسيم دقة ، كلما بعد عن أن يكون طبيعيا ، فكل حدث تاريخى هو نتيجة لعدد لا يحصى من الأسباب ، وهو بالتالى نقطة بداية لعدد لا يحصى من الآثار المترتبة عليه . فاللغة والفكر ونوع الحكم والسلوك والعادات — كل هذا يطرأ عليه تغير تدريجى غير محسوس ، حتى لنستطيع القول بأن كل عصر هو مرحلة أنتقال للعصر الذى يسبقه ، ولا يمكننا فهمه فهما تاما إلا إذا نظرنا إليه على أنه وليد الماضى ووالد المستقبل . وبالمثل نجد أنه فى الحالات التى تتلاشى فيها الفروق بين نوعى الملكتين الحيوانية والنباتية تبدو لنا فكرة «النوع» شيئا من اختراع الدهن ، ومع ذلك يظل عالم الأحياء على استعداد للدفاع عن فكرة النوع . وكذلك يعتقد المؤرخ أن التمايز بين مرحلتين حضاريتين حقيقة تبرر اطلاق أسماء مختلفة تميز المرحلة عن الأخرى . ويحدث بين الحين والحين فى تطور المجتمع الواحد أو المجموعة من المجتمعات ، أن تأتى فترة اتران تستقر فيها التظم بحيث تلائم حاجات الناس الذين يعيشون فى ظلها ، ويرضى الناس كل الرضى عما تخرجه عقولهم من أفكار ، ويشعر الساسة والفنانون والشعراء أنهم يؤدون رسالتهم خير الأداء قولاً وعملاً ، معبرين عن الآمال المشتركة لسائر

المجتمع ؛ عندئذ يبدو المرء سيد مصيره ، ويكون الطابع السائد هو التفاؤل المبحول والتسامي والرضا والأمل . وهنا يشيع ما يشعرنا بأننا وجها لوجه أمام حالة نضج في العقيدة وفي النظام الاجتماعي .

إن هذه « الفترات » نادرة حقا غير أننا إنما ندرس التاريخ من أجل تفهمها ؛ وكافة حظوظ الانسانية وأقدارها الأخرى لا تعدو أن تكون مقدمة أو خاتمة . ونحن نعني بقولنا « فترة » أو « حقبة تاريخية » عددا من السنين ، يكون فيها هذا الاتزان والاتساق في أوجه النشاط ، وهذا التوافق بين الواقع والمثالية ، قدم في دور التكوين ثم النضج ثم الزوال .

ويمثل تاريخ العصور الوسطى معنى الحقبة التاريخية أصدق تمثيل فهي العصور التي تصل بين العالم القديم والعالم الحديث ؛ ولا شك أنها لم تكن مجرد فترة انتقال من عالم إلى آخر ، ولو أن عبقرية مورخ مثل جيبون (Gibbon) قد وصفت لنا تلك الفترة بأنها كليله طويلة من الجهل والتخبط ، أنقل الناس من وعثائها شعاع باق من حضارة قديمة .

بدأت تلك العصور بانفصال لا إرادى عن القوة التي كانت تمثل في القرن الخامس الميلادى حكمة اليونان وعظمة روما ؛ ثم انتهت برجعة مشوقة إلى الفن والأدب القديم وكأنها رجعت إلى أرض الوطن ؛ ولكن الفترة لم تكن مجرد اغتراب ، فعلماء عصر النهضة هدموا بقدر ما أرادوا أن يؤسسوا ، فأزالوا حضارة لإعداد المكان لحضارة أخرى وكان لا مناص من إعادة النظر في القواعد القديمة للفكر والسلوك . .

وفى تاريخ كافة انصاف الحقائق ، يحين الوقت الذى تقف فيه أنصاف الحقائق هذه حوائل منيعة فى سبيل البحث عن الحقيقة الكاملة . ولكن ينبغى ألا يمنعنا هذا من الاعتراف بقيمة نصف الحقيقة كدليل مرشد لاولئك الذين كانوا أول من أكتشفها ، كما يجب ألا نقع فى الخطأ الذى شاع بين كافة المصلحين ، بافتراضنا أنهم قد أدركوا كل الحقيقة عندما يوكلون أهمية النصف المغفل ، فأرازاموس (Erasmus) كان الحق فى جانبه ؛ ولكن الحق أيضا كان فى جانب توما الاكوينى (Thomas Aquinas) . وكان لوثر (Luther) على طريقته الجافة نبيا ، غير أن القديس برنارد أيضا كان صاحب رسالة للانسانية .

على أن الحضارة الوسيطة كانت حضارة ناقصة من وجوه ، وكانت مقصورة على حلقة ضيقة من أصحاب العقول الممتازة ، إلا أنها إذا قيست بما خلفته من ذكريات ومآثر حميدة للعالم الحديث ، كانت خليفة بمستوى حضارات العصور الذهبية السابقة لها واللاحقة بها ؛ فقد أينعت وسط بيئة فجأة شاعت فيها نزوات ضارية ومطامع مادية ، بيئة ساورتها حمم بركانية لطبيعة بشرية بدائية ، والأحداث التى سجلها التاريخ الوسيط غالبا ما كانت تنذر بالصراع العنيف المرير ، وضروب الاضطهاد الدينى ، والجرائم والغزوات التى بررها إفكا وكذبا التظاهر بمقصد أدبى . والحقيقة هى أنه ما من حضارة إلا ولها جانب مفصل من اليسير التعريض به ونقله .

على أية حال ، ينبغي ألا نحكم على عصر من العصور بما يقع فيه من الجرائم والمخازي ؛ فنحن لا نفكر في الاثنينين على أنهم الشعب الذي انقلب على بركليس ، والذي حاول استعباد صقلية ، والذي حكم بالموت على سقراط ، بل على العكس نقدر الاثنينين بأمجادهم ومفاخرهم وبطولتهم وأعمالهم الباقية . ومن ثم يتعين علينا أن نقيس الدول الوسيطة بنفس المقياس ، ونحكم عليها بفلسفتها وقانونها وأشعارها وفنّها الهندسي ، وبما قلعتّه لنا من أمثلة ونماذج لحنكتها السياسية ومعتقداتها المقدسة . وسنجد في تلك الميادين أننا لسنا بصدد ضروب من البطولة التي تظهر فجأة لتضيء عصرا همجيا بين الحين والحين . إن مآثر العصور الوسطى كانت في سموها ثمرة طيبة من ثمار النظر العميق ، ثمرة للمثابرة وتركيز الجهود ، ثمرة إنكار النفس في خلعمة الانسانية والخالق ؛ وبعبارة أخرى نبتت ثمار هذه المآثر ونضجت في تربة وجو مجتمع متمدين .

الفصل الأول

سقوط الامبراطورية الرومانية

يبدأ التاريخ الوسيط بالانهيار الذى حل بالامبراطورية الغربية وبخضوع العالم اللاتينى لغزاته الجرمان ، وكانت أحدث الولايات التى تأثرت بتلك الكارثة هى بريطانيا التى كانت حتى ذلك الحين تخضع للنفوذ الرومانى لفترة تربو على الثلاثة قرون . وبالنسبة لاييطاليا واسبانيا وغاله كان تغير الحكام فيها لا يعنى سوى تقلص النظم التى تقبلها الناس فى بادئ الأمر على غير رغبة منهم ، ثم أصبحت بمرور الزمن مقبولة باعتبار أنها جزء من النظام الطبيعى . وكانت هناك مساحات واسعة من أوربا خارج نطاق الولايات التى سجلا عنها الرومان ، إذ لم يحدث أنهم دخلوا إيرلنده وأسكتلندناوه أو روسيا ، كما أنهم كانوا قد فشلوا فى أخضاع أسكتلنده والجزء الأكبر من ألمانيا الحديثة . غير أن الولايات التى أصطبغت بالصبغة الرومانية ظلت القوة الفعالة فى التاريخ الأوروبى لفترة طويلة ، فعلى أطلال الامبراطورية الرومانية ظلت هذه الولايات نبراس الحضارة فى العصور الوسطى . أما عن مدى اقتباس الثيوتون (١) المنتصرين من حضارة أهل الولايات المهزمين

(١) اشتقت الكلمة «ثيوتون» (Teuton) من الكلمة الألمانية القديمة «دويسلك»

(Duftisk) ومعناها «الوطى» أو «القومى» المترجم

فسألة لا تزال موضع الجدل ، لان درجة التأثير الرومانى وطبيعته على الحكام الجدد اختلفت فى كل مقاطعة عن الأخرى ، فضلا عن اختلافها فى الأجزاء المتعددة للمقاطعة الواحدة . فالإقتباس لإذن حقيقة ثابتة ولكنها تجلب الحيرة فى جانب من جوانبها ؛ هذا الجانب هو : هل الأمر - والحالة هذه - أمر بقاء الأصلح ؟ إن ضروبا من التصدع المؤلم قد ظهرت واضحة فى نظام اجتماعى انهار تحت ضغط الكوارث التى نزلت به ، ومن الطبيعى أن نتحدث عن هذا الانهيار النهائى وكأنه قضاء السماء أو حكم الحوادث ؛ ولكن يتحتم علينا أن نقيم الدليل على أن الحرب امتحان دقيق لقياس القدرة . ولما كان من الحق أن يقتتل الحصان ليعرف القاضى البرئ من المذنب كذلك لا ينبغي أن تقرر أحكام التاريخ على اللول بإجراء مثل هذا .

إن الأسباب المباشرة الواضحة التى أودت بالإمبراطورية الغربية هى أسباب عسكرية وإدارية ، ترجع إلى نقائص وعيوب فى نظام الجيش وفى نظام الموظفين الإداريين . ولكن هل كانت هذه العيوب والنقائص هى أعراض شرور استشرت عامة بين مختلف مراتب وطبقات المجتمع ؟ إن علينا أن نتمتع فى تحليل الحقائق قبل أن نجيب إجابة مرضية على هذا السؤال .

إن بداية ونهاية تلك الكارثة التى حلت بالإمبراطورية هى الاغارات الموقفة التى قام بها الجرمان على إيطاليا ، فقد

صدع القوط الغربيون (Visigoths) بزعماءه ألك (Alaric)
فما بين سنة ٤٠١ و ٤١٠ نفوذ الحكومة التي كانت تحكم
باسم الامبراطور الضعيف هونوريوس (Honorius) كما قوضوا
كفائتها . ودمر القوط الشرقيون (Ostrogoths) بقيادة ثيودريك
(Theodoric) آخر رمز لسلطان الامبراطورية في إيطاليا (٤٨٩
— ٤٩٣ م) . وكان من الجلى بعد هزيمة أدواكر (Odoacer) على
يد ثيودريك أن الولايات الغربية لن تعود إلى الاعتراف مرة أخرى
بامبراطور ينصب في رافنا (Ravenna) رغم أنه كان لا يزال
هناك احتمال قيام القسطنطينية باستعادة هذه الولايات وتنظيمها
مرة أخرى . ولكن هذه الفرصة قد ضاعت حينما عبر اللومبارديون
جبال الالب عام ٥٦٨ م وأنقضوا على وادى نهر الهو (Po) فن
البداية إلى النهاية كانت إيطاليا مفتاح الغرب ، والصدمات
المتتالية التي منى بها النفوذ الامبراطوري في إيطاليا ترجع
كلها لسبب واحد ، فالأقوام الجرمانية الثلاثة المغيرة جاءت
جميعها من الدانوب ، ولم تكن الضفة الرومانية لهذا النهر
العظيم منيعة التحصين ، كما كانت هناك سياسة خاطئة سمحت
للأقوام التيوتونيين بالاستقرار في ولايات الدانوب ولم يقلل
من خطر تلك الأقوام كونهم حلفاء للامبراطورية (Foederati) .
ولقد نجحت إغارات القوط الغربيين — التي كانت في الواقع
حاسمة — لأن استحكامات الامبراطورية الغربية كانت قاب
قوسين أو أدنى من الانهيار ، ولأن الجيوش الرومانية لم تكن
تواجه قوات تزيد عليها في العدد فقط ، بل كان يسرى

فيها الشلل بسبب أحقاد وتنافس السياسيين ، كما كانت منقسمة على نفسها من جراء عصيان القادة الذين كانوا يطمعون في اعتلاء عرش الامبراطورية . ولم يكن من الممكن اصلاح أضرار الكوارث الأولى لأن الجهاز الحكومى كله كان قد توقف عندما شلت اليد التى كانت توجهه فى رافنا ، ثم أن الولايات الأخرى التى كانت حتى ذلك الحين تعتمد على إيطاليا غدت كالأطراف التى بترت من أصلها . حقا لقد قام هنا أو هناك زعيم محلى رفع راية المقاومة ضد الجرمان ، ولكن جزءا كبيرا من أهل الولايات عقدوا صلحا بأحسن شروط استطاعوا الحصول عليها .

ومن الواضح أن الخطأ الأساسى الذى وقع فيه الرومان كان ذلك الاتساع الذى لا مبرر له فى الرقعة التى انبسط عليها سلطانهم . ولقد أدرك هذه الحقيقة أجسطس نفسه مؤسس الامبراطورية ، ولكن حتى فى أيامه كان قد فات وقت التراجع ، ولم يكن بوسع أجسطس سوى الاعتراض على أية فتوحات جديدة . وإذا ألقينا نظرة على حدود الامبراطورية نجد أنها كانت تشمل كافة سواحل البحر الأبيض المتوسط وجزءا كبيرا من الأراضي فى الجنوب والشرق والشمال ، وبذلك كانت الامبراطورية مثقلة بثلاثة حدود ذات امتداد عظيم ؛ أثنان منها وهما الحدود الأوربية والحدود الآسيوية كانتا مصدر قلق مستمر وتطلبتا إقامة استحكامات حربية منفصلة، ولكى لا تهمل الرقابة على هذه الحدود أو تلك كان من المعقول أن تخول السلطة لامبراطورين،

أحدهما في الشرق والآخر في الغرب . وكان دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) هو أول من أختط هذه الخطة ومنذ عهده أخذت مشروعات تقسيم الامبراطورية تلوح في الأفق ، وكان من الممكن أن يتم ذلك لو لم تثبت التجربة أن التقسيم سيؤدي بطبيعته إلى حروب أهلية بين الامبراطورين . وعقب وفاة الامبراطور ثيودوسيوس العظيم في سنة ٣٩٥ م أجريت تجربة هذا المشروع المحضوف بالمخاطر ، إذ سمح لولديه أركاديوس (Arcadius) وهونوريوس (Honorius) بأن يقتسما الامبراطورية ، ولكن خط التقسيم روعى فيه تلافى الاحتقاد العنصرية أكثر مما روعيت فيه الاعتبارات الحربية . وكان هذا الخط يمتد من وسط الدانوب قرب بلغراد حتى نقطة تقرب من دورازو (Durazzo) على الساحل الأدرياتي ومن هناك إلى خليج سلدا (Sidra) وتقع شرق هذا الخط منطقة تسود فيها الحضارة الاغريقية حيث الولايات التي تتطلع إلى الاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية باعتبارها عواصمها الطبيعية . أما غرب هذا الخط فكانت اللاتينية هي اللغة السائدة فيه ، وقد نحت الطبقات العليا من المجتمع منحى الأرستقراطية الإيطالية .

هذا التقسيم الذي قام على أساس القومية لم يصف إلا صبغة قانونية على انقسام كان موجودا منذ أمد بعيد ، ولكن هذا التقسيم كان كارثة على الدفاع عن حدود الدانوب الذي أصبح موزعا بين الحكومتين . وكانت حكومة القسم الشرقي

تعتبر شبه جزيرة البلقان الفقيرة ذات أهمية ثانوية ، وواجهت مشكلة الدفاع من وجهة النظر الأنانية المحضنة فتركت بلا حراسة الطرق المؤدية من الدانوب إلى إيطاليا . وقد أقدم ستليكو (Stilicho) القائد العظيم الذى كان يحكم الغرب باسم الامبراطور هونوريوس - على مواجهة هذا الخطر بالتدخل فى شئون شبه الجزيرة بل وفى الدسائس السياسية التى كانت تجري فى القسطنطينية . ولم ينجح ستليكو إلا فى كسب تحالف غير وثيق مع القوط الغربيين ، وفى جلب حقد الامبراطورية الشرقية الدائم عليه ، فترك منفردا ليواجه الغزاة الأوائل لإيطاليا وقد استمر النفور والتباعد بين البلاطين الامبراطوريين بعد سقوط ستليكو المبكر . وأنهارت الامبراطورية الغربية بعد خيانة جليفيها الوحيدة وتحت ضغط الهجمات التى وقعت فى وقت واحد على طول الحدود الأوربية .

لقد قبل أن الجيوش الرومانية فى القرن الخامس لم تكن تضارع فى القوة وحسن النظام مثيلاتها فى العصور السابقة . ومهما يكن من الأمر فقد استطاعت تلك الجيوش أن تبلى بلاء حسنا عندما تلاقت على قدم المساواة مع أشد الجيوش الإحرمانية مراسا فى الحرب . ولم تكن هزيمة الجيوش الرومانية - عندما كان عليها أن تواجه العدو فى الموقعة الأخيرة - ترجع إلى نقص فى المقدرة الحربية ولكنها ترجع إلى اقتتار تلك الجيوش إلى الأعداد الكافية وإلى العاطفة الوطنية .

كانت الجيوش فى ذلك الحين تضم بين صفوفها كثيرا

من الجرمان الذين زاد عددهم عن نصف القوة المحاربة ،
وكانوا يعتبرون زهرة العسكرية الرومانية . وقد أظهر الكثيرون
من هؤلاء المرتزة الازدراء علنا للرومان وكانت عواطفهم
مع الأعداء الذين كانوا يتناولون مرتباتهم لمحاربتهم . أضف
إلى هذا أن كل جيش - مهما كانت العناصر التي يتكون منها -
كان ينزع إلى أن يكون طبقة وراثية تجمع بينها روح اتحادية
قوية ، ولكنه لم يكن يحترم أى سلطة سوى سلطة قائده .
ولم يكن للجند أى مصالح مدنية ولكن كانت لهم مظالم
دائمة ضد الامبراطورية ، فكل أزمة سياسية توحى إليهم
بفكرة التمرد وعلى رأسهم القائد ، وذلك للحصول على
متأخراتهم من الأجور والمنح حيناً ، ولتولية مرشحهم على
العرش أحياناً . لقد كان هذا الفساد قديماً العهد يرجع إلى
القرن الأخير من الجمهورية عندما جعل ماريوس (Marius)
الخدمة العسكرية حرفة ليضمن كفاءة الجند الذين تحت امرته .
وقد توسع خلفاء دقلديانوس في ذلك النظام إذ كلما ازداد
العنصر الجرمانى في الجيوش ، كلما تضاعف العنصر الرومانى
حتى ظهرت أواخر عواقب ذلك النظام فى عامى ٤٠٦ و ٤٠٧ م
فقد أعقب الإغارات الجرمانية على إيطاليا وغالة قيام كل
من قائدى بريطانيا والرين بالمتأداة بنفسه امبراطورا على العرش
وبذلك أصبح العالم الرومانى فى الغرب منقسما على نفسه بسبب
الحروب الأهلية فى الوقت الذى كان الاتحاد فيه ذا أهمية
قصوى ؛ ومن ثم وقع الحدث الغريب إذ دخل القوط الغربيون -

الذين كانوا لا يزالون محملين بالغنائم والأسلاب من روما - بلاد غالة بدعوة من الامبراطورية ليحاربوا جيوش الامبراطورية ! لقد سبق أن أدرك الحكام مشكلة نقص تعداد الجيوش الرومانية ولكنهم لم يقدموا العلاج الناجع . قيل أن دقلديانوس قد زاد تعداد الجيوش إلى أربعة أضعافه ، وفي القرن الرابع أصبحت أكثر كثيرا مما كانت عليه أيام يوليوس قيصر وأجسطس . غير أن قنسططين أعاد تنظيم وسائل الدفاع عن الحدود ليقترض أكبر عدد ممكن من الرجال . وعلى عهد هونوريوس نجد أنه لم يكن في الاستطاعة الدفاع عن إحدى المناطق الحيوية إلا بسحب قوات من منطقة أخرى . أن صعوبة زيادة الاعداد كانت صعوبة مزعوجة ، فأولا : كان الجيش مكونا من المرتزقة ، وكانت الضرائب باهظة جدا للدرجة التعجيز حتى قل المتحصل منها ، وثانيا : كان من الصير التجنيد من بين أهل الولايات ، إذ أن المبدأ القديم الذى يفرض على الجميع الخدمة العسكرية قد ألغى أيام ثالنتين الأول (٣٦٤ - ٣٧٥ م) ورغم أن التجنيد الاجبارى كان لا يزال ساريا على بعض الطبقات فإن الحكومة رأت أنه من المناسب منع تجنيد أولئك الذين يساهمون بقسط وافر فى الضرائب . وكان كل مواطن مطالبا بحكم القانون بالاشتراك فى الدفاع عن الحصون والمعاقل المحلية ، غير أن استعمال الأسلحة أصبح شيئا غير مألوف ، وأصبحت فكرة الخدمة العسكرية كواجب وطنى فى خبر كان حتى أن ستليكو - أيام وجود الحرمان فى إيطاليا -

فضل اتخاذ اجراء اليائس بتجنيد العبيد على أن يلجأ إلى الطريقة الواضحة وهي المناداة بالتعبئة العامة .

وهكذا نجد أن المشكلة التي تواجهها كانت مرضا اجتماعيا أكثر مما كانت ضعفا إقتصاديا ؛ فالامبراطورية ولا شك كانت شكلا معقدا باهظا من أشكال الحكومات التي فرضت على مجتمع كان يقف عند مرحلة بدائية من مراحل التطور الاقتصادي . وقد أدت الوسائل البربرية في جمع الضرائب والطرق الفاسدة التي أتبعها الطبقة الحاكمة إلى زيادة العبء للدرجة أن خزائن البلديات في الولايات قد أفلست ، كما أدت الضرائب المفروضة على الطبقة الوسطى من الرأسماليين إلى القضاء عليهم قضاء مبرما .

لهذا السبب ولأسباب أخرى كان عدد سكان الولايات القديمة آخذا في التناقص أو باقيا على حاله دون زيادة . ومع ذلك كانت لا تزال هناك ثروة عظيمة في الامبراطورية وكان في استطاعة كبار ملاك الأراضي في الولايات أن يعدوا جيوشا كبيرة من بين أتباعهم كلما تراءى لهم ذلك . لقد كان الفساد الحقيقي إذن فسادا أخلاقيا وهو ضعف العاطفة الوطنية .

اننا لا نغني بذلك أن مستوى الاخلاق في الحياة الخاصة قد تدهور عما كان عليه في الماضي ، فذلك أمر بعيد الاحتمال إذا ما تذكرنا أن المسيحية إذ ذاك كانت العقيدة السائدة في الامبراطورية ؛ ذلك لأن المسيحية في أسوأ وأضعف درجاتها قد عنيت أشد العناية بالواجبات الاخلاقية أكثر من عناية

أى عقيدة أخرى من العقائد القديمة . والفرد من أهل الولايات كان كائنا خلقيا أكثر مما كان القوطى أو الوندالى . أن الأمر لا يعلو أن يكون مجرد خرافة أن يقال عن كل جنس منتصر أنه عفيف ، مقتصد ، عادل ، يحترم القانون ؛ أو أن يقال إن الهزيمة فى الصراع من أجل الوجود هى أعراض الرذائل التى هى نقيض فضائل المنتصر ، فالأغريق الذين أستسلموا لفيليب والاسكندر كانوا من نواح عدة يمتازون خلقيا على الفرس الذين انتصروا عليهم فى موقعى سلاميس وپلاتيا . ومن الجائز أن تنبئ الأخلاق الخاصة والأخلاق السياسية من جنس واحد ، وتثمر الأولى بينما تلوى الثانية . وقد يكون هذا طبيعيا ، فالطبيعة الانسانية نادرا ما تنمو النمو الواحد فى كافة الاتجاهات . والناس الذين يتركز اهتمامهم فى التنظيم الصحيح لعلاقاتهم بغيرانهم وأصدقائهم وعائلتهم قد يغفلون عن المجتمع الأكبر الذى يضم دائرتهم الخاصة . لقد كانت هناك أعداد خاصة تعلل بها الرومانى من أهل الولايات لكى يظل غير حافل بالدولة التى لها عليه حق الولاء ليس باسم القومية أو الدين بل باسم العقل والخير العام ؛ فالولاء بالنسبة له لا يمكن أن يكون إلا الاعتقاد الذهنى . ولكن ما لم يكن فى استطاعة الرومانى الدخول فى زمرة ذوى الامتيازات فى الجيش أو كبار الموظفين المدنيين ، فقد انعدمت لديه الفرصة للدراسة المسائل السياسية والادارية التى تتصل بها رفاهيته اتصالا وثيقا ولو عن طريق غير مباشر . ولم تعرض الآراء السياسية

للمواطن العادى إلا فى ثوب الأدب القشيب . والأدباء والكتاب الذين كانوا يفوزون بأكبر قدر من الاعجاب قد علموا هذا المواطن أن يتحسر على النظم الجمهورية التى طال عليها العهد وصارت نسيا منسيا . أما ضروب الحماسة التى اكتسبها من دراساته للقديم فلم تصححها تجاربه فى الحياة اليومية . فإذا كان الرومانى من أهل المدن فهو ممنوع قانونا من تغيير محل إقامته ، بل ومن التنقل فى أنحاء الامبراطورية خشية التهرب من جامع الضرائب ، وإذا كان من ملاك الأرض فى الأقاليم فهو يعيش فى مجتمع قائم اقتصاديا على أساس الاكتفاء الذاتى وبذلك فهو إقليمي إلى أبعد حد . وأنواع الشخصيات التى تطورت فى مثل هذه الظروف لم تكن تعوزها السمات المحبوبة والحديرة بالاعجاب ، فغالبا ما كان الرومانى الثرى من أهل الولايات عالما وخبيرا فى الفن والأدب وكاتبا ومحدثا لبقا ، وملاحظا بصيرا بعالمه الصغير وزوجا وأبا مثاليا رقيق الجانب لمن هم دونه وودودا لأصدقائه . وأحيانا كان يجد فى الدين أو الفلسفة ترياقا لتفاهة الحياة اليومية ، وكان يثور على المادية التى يتصف بها أقرانه وعلى جشع وظلم حكامه . ولكنه يئس من إقامة جسر على الهوة التى تفصل بين الامبراطورية كما يراها وبين الكومنولث المثالى — كما جاء فى كتاب القديس أجسطين «مدينة الله» أو «الجمهورية العالمية» — التى رأى فيها معلموه أنها محط الآمال البشرية . لقد مال بالأحرى إلى أن يبحث عن أقرب نخباً — كما فعل الرجل العادل فى إحدى

كتب أفلاطون - وأن يغطي رأسه وأن ينتظر في صبر انقشاع العاصفة الهوجاء عاصفة ضروب العنف والمظالم .

إن من العسير إدانة مثل هذا السلوك إذا ما تذكرنا التباين الهائل بين ضعف الفرد وقوة النظام الاجتماعى الذى يتغلغل فى مرايق المدنية نفسها . ولكن هذه الروح التى تنطوى على التسليم بما لا يعقل - كالاعتقاد بأن السبي مستحيل تقويمه بالاصلاح السديد - هذه الروح إنما يكمن فيها خطر على المجتمع أكبر من الخطر الذى يكمن فى عدم اكتراث الأنانى أو الطائش . وعندما ينادى الزعماء الطبيعيون للمجتمع بأنهم يائسون من المستقبل ، تنتشر القسورية (Fatalism) انتشار الوباء بين عامة الناس ويخفت السخط والتلذذ حتى ينعدم . ولا ينهى الشر عند هذا الحد ، فأصحاب المثل العليا يتحملون نصيبهم جزاء ازدهارهم للواقع ليس من ثرواتهم وحياتهم وحسب ، بل ومن تراثهم الفكرى . وكما تتدهور الحكومة ما لم ترجع فى مزاولتها لشئون الحكم رجوعاً مستمراً إلى مبادئ العدالة ، فإن المدينة الفاضلة (Utopia) - مهما كانت عظمتها - تتلاشى بالمثل من ذهن المؤمن بها ما لم يستمر فى مقارنة مثلها العليا بالحقائق ، وحينما لا يعود يجد فيها الجواب عن المشكلات التى تطرأ من التجارب العادية . فإذا اتسعت الهوة بين الحياة العملية والحياة النظرية ، غدا المفكر النظرى لا يعرض لنا إلا المبتذل المطروق من الآراء وأضحى الرجل العادى أشد اعتقاداً فى أن يقبل الحياة كما هى .

قد يساعدنا هذا التحليل على تفهم السبب في أن الامبراطورية الرومانية في الغرب - قبيل انهيارها - قد اكتسبت مظهر الدولة شبه المتبربرة . ففي تلك البقاع التي استقر فيها مؤخرا المستعمرون من التبتون قد تفسر الظاهرة كنتيجة للمحاولات العنيفة لتمدين أقوام صعبة المراس . غير أنه حتى في أعماق أقدم الولايات لم تكن الاحوال إلا أحسن قليلا ، فالقانون والعرف قد تأمرا على هدم الآراء والمبادئ التي نعتبرها رومانية في جوهرها ، وخضع المدني في ذلك الحين للسلطة العسكرية وتصدع سلطان الدولة بازدياد السلطات القضائية الشخصية ، وتحدت هذا السلطان البطانات شبه الاقطاعية التي كانت تلتف حول أصحاب النفوذ . ثم أن المساواة في الحقوق المدنية قد حل محلها نظام عقيم يهب الامتيازات لطبقة ويضع الأعباء على طبقة أخرى ، وقد توقف القانون عن أن يكون ذلك التطور المنتظم للمبادئ العامة ، وأصبح مجموعة من الأوامر المتضاربة غير المدروسة . لقد أستشرى الفساد من جراء اهمال أولئك الذين كانوا أول من يعينهم الأمر ، حتى أنه إذا كان لأوربا أن تتعلم مرة أخرى الدروس السامية التي عاشت روما لتلقنها للعالم لوجب أن تكون الخطوة الأولى هي لإزالة الحكومة المختلطة الأجناس التي كانت لا تزال تطالب بالولاء لنفسها باسم روما . لقد كان في حوزة أهل الولايات في القرن الخامس الكتابات التي دونت فيها تلك الدروس ، ولكنها لا تعدو أن تكون رموزا تشير إلى ماضى غير مفهوم . إن الأمر كان يحتاج

إلى تدريب طويل في مدارس فكرية جديدة في ظل نظم جديدة من الحكم ، قبل أن يستطيع العقل الأوربي الاتصال مرة أخرى بالروح الرومانية القديمة .

إن الخدمة الجليلة التي أداها الحرمان كانت عملية تدمير ، وهم بعملهم هذا قد مهدوا الطريق للرجوع إلى الماضي وكانت مجهوداتهم الأولى في إعادة البناء مجهودات قيمة كذلك ، طالما أن مشقة العمل ورداءة الناتج قد أحييت احترام الناس لمهارة روما الممتازة . وأخيرا نجح الحرمان في ذلك الفرع من السياسة الانشائية حيث فشلت روما فشلا ظاهرا ، فالممالك الجديدة التي أنشئت على أيديهم كانت أصغر وأضعف من الامبراطورية الغرية ، ولكنها خلقت فرصا جديدة لتطور الفردية ، وجعلت من الممكن أن يُضقى على الحقوق المدنية وظائف فعالة ومسئوليات أدبية . وكان من الواضح لأولئك الذين أقاموا تلك اللول وعاشوا في ظلها أنها كانت تعاني كثيرا من العيوب ؛ وقد استمر المثل الأعلى في تكوين امبراطورية تشمل العالم بأسره وتدعم السلام والأخوة بين بني الانسان ، استمر يراود مخيلة الناس في العصور الوسطى كاحتمال بعيد التحقيق . ولكن الذي حدث في هذه الحالة كما يحدث في كثير من الأحيان أن ما كان يعتبر ذكرى إنما كان في الحقيقة أملا ، وكانت أوروبا تتقدم نحو نوع من الوحدة أسمى من تلك التي أندثرت .

الفصل الثانى

الممالك الجرمانية

إن الدول الجرمانية التى قامت على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى الغرب قد أسست عشائر ومجموعات من العشائر جاءت من كافة أنحاء ألمانيا ، تحت ظروف من المكان والزمان مختلفة أشد الاختلاف. لقد توقعنا أن نجد — بل قد وجدنا فعلا — اختلافات لا حد لها من التفاصيل فى قوانين تلك الدول وفى مميزاتها الاجتماعية وطرق حكمها . ولكن من وجهة النظر الشاملة تنضوى تلك الدول تحت فئتين ، لا من حيث أوجه التشابه العنصرى بينها ، بل من حيث علاقاتها بالنظام الاجتماعى الذى غيرته تلك الدول .

والفئة الأولى من هذه الممالك قد تأسست من وراء ستار وضع تصورى أسبغ عليه صفة قانونية ؛ فالقوط الغربيون والقوط الشرقيون والبرجنديون ادعوا بأنهم خلفاء الامبراطورية وحظوا فى وقت من الاوقات بموافقة القسطنطينية على استقرارهم داخل حدود الامبراطورية ، وقد قبل أو اغتصب ملوكهم القاب الاداريين الامبراطوريين ، وظهرت على قطع نقودهم صور الامبراطور المترج على العرش إذ ذاك ، ثم أنهم أرخوا منشوراتهم بأسماء قناصل السنة وتباهوا بشئ الوسائل الأخرى بخضوعهم الاسمى باعتباره الأساس القانونى لسيادتهم الفعلية .

على أن هذا الوضع لم يمنهم من حكم ممتلكاتهم الجديدة على النمط التوتوني الحقيقي بواسطة مندوبين ملكيين يديرون أملاك الدولة ، وحكام عسكريين ، مثل الأدواق والكونتات .. الخ ، وكانوا يحكمون المناطق الادارية حكما مطلقا . ولم يكن يتردد أكثر أولئك الحكام هوادة ولينا في مصادرة الاملاك بالجملة من أجل تزويد جيوشهم بما تحتاج إليه ؛ وكانت القاعدة المعتادة هي الاستيلاء على الثلث أو الثلثين من ضيعة المالك الكبير لفائدة المهاجر التوتوني . أضف إلى هذا شواهد كثيرة تدل على أن أهل الولايات وجلوا الحياة في ظل النظام الجديد مقلقة غير مأمونة العواقب ؛ فالأغنياء كانوا عرضة لحقد النمام الكاذب والقاضي الجشع ، وكثيرا ما تعرض الزراع للاضطهاد وغالبا ما جردوا من البقية الباقية من حريتهم فتحولوا بذلك إلى العبودية التامة . ومع ذلك فن بعض الأوجه الأخرى كان الغزاة من مثل هذا الطراز متسامحين مرنين ، تركوا لأهل الولايات قانون روما المدني ، بل وقنوه للاحتياط ضد التعديلات الغير معتمدة ، فالقانون الروماني للبرجنديين (Lex Romana Burgundionum) والقانون القوطي المعروف بملخص الأاريك (١) (Breviarium Alarici) لا يزالان يقومان شاهدين على تلك السياسة . لقد أدرك أولئك

(١) هذا القانون هو مجمل القانون الروماني ، جمع أيام الأرك الثاني ملك القوط الغربيين (٤٨٤ - ٥٠٧) ليشتمل بمقتضاء القوط الغربيين .
الترجم

الغزاة ضرورة إجبار الحرمان وأهل الولايات على السواء على احترام الحقوق الأولية للملكية والفرد ، فيعزى إلى كل من ثيودريك (Theodoric) الزعيم القوطى الشرق وجوندوباد (Gundobad) الزعيم البرجندى ، قوانين جنائية جديدة مستمدة كلها أو بعضها من الشريعة الرومانية . ولم يكن مثل أولئك الحكام قانعين بمجرد الادعاء بالنظر نظرة المساواة إلى كلتا الطبقتين من رعاياهم ، فكثيرا ما عهدوا بمناصب رئيسية ذات مسئولية إلى طبقة ممتازة من أهل الولايات . وقد شامت الأقدار أن تعتنق الاجناس الرئيسية فى هذه المجموعة الأولى المسيحية على المذهب الأريوسى الذى نبذه رعاياهم ومقتوه أشد المقت . ومع ذلك فقد أظهر كبار ساستهم تسامحا حيال المذهب الكاثوليكي المنافس لمذهبهم ، بل وأسبغوا حمايتهم على الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا يعتقدون فى قرارة نفوسهم أن أولئك الحكام أسوأ من أحط الوثنيين ، ولكن هذا التسامح من جانب السياسيين لم يكن إلا مثالا من فطنتهم وبعد نظرهم .

لقد كان عدد الغزاة يقل كثيرا عن عدد سكان الولايات ، ومن الناحية الاقتصادية لم يكن من مصلحة الحكام الحرمان أن يسيثوا بلا مبرر معاملة أولئك الذين كانوا موضع استغلالهم . غير أن خيرة أولئك الحكام درسوا عن كسب نظام الامبراطورية ، أحيانا كضباط فى خدمة الامبراطورية ، وأحيانا كجيران للولايات المزدهرة فى السنين التى سبقت الكارثة الكبرى .

وغالبا ما خلقت فيهم معرفتهم بالنظم الرومانية بعض الاحترام
أو التحمس للدولة الرومانية ؛ فقد قال أتولف (Athaulf)
القوطى الغربى : « كانت رغبتى فى الصغر هو محو اسم روما
واخضاع كل ما يمت بصلة إلى الرومان تحت حكم القوط
ولكن علمتني التجربة ما لم أكن أعلم ، فالقوط برابرة ليس
لهم ضابط أو وازع يجعلهم يحترمون القوانين ، ولو أن الدولة
حرمت من القوانين لكانت جريمة . ولذلك اخترت لنفسى
شرف إرجاع اسم روما إلى سابق مكانته » . لقد كان المثل
الأعلى للمستقبل فى نظر مثل أولئك الرجال هو تكوين اتحاد
من الدول يدين بالولاء الاسمى لرئيس الامبراطورية الرسمى ،
على أن يرمى هذا الاتحاد ولاء فعليا لكل ما هو صالح فى القانون
والحضارة الرومانية .

وكانت المجموعة الثانية تضم الممالك التى أسسها الحرمان
فى الولايات البعيدة أو التى قامت فى وقت متأخر نسبيا عن
المجموعة الأولى ، فغزة لإنجلترا والفرنجة فى غالة الشمالية
والألماني والبافارون فى حوضى الراين الأعلى والدانوب ،
والومبارديون فى إيطاليا والوندال فى إفريقيا لم يبقوا تحت
تأثير الامبراطورية الرومانية . لقد كان من المحتمل أن يحدث
ذلك للوندال لولا تعصبهم للأريوسية ؛ ذلك لأن ولاية إفريقيا
التي استقروا فيها ، كانت ولاية من تلك الولايات التي جعلتها
حنكة الرومان السياسية تتمتع بأعظم قسط من الحضارة .
وكان من الجائز أن يخلو الفرنجة حذو القوط الغربيين والبرجنديين

لولا أن الحظ قد جعل مهد قوتهم في وادى اللوار أو الرون بدلا من غابات ومستنقعات الأراضي الواطئة. ولم يظهر اللومبارديون والسكسونيون أى غضاضة متأصلة نحو طريقة الحياة الرومانية وما قامت به روما من أعمال ، غير أنهم دخلوا ولايات كان الفقر قد أضناها وقل عدد سكانها نتيجة ابتلائها بالحروب . لقد تقدمت مثل تلك الأجناس تقدما سريعا مع قيام نظام اجتماعى وسياسى جديد ، لأن الماضى كان بالنسبة إليهم كتابا قد استغلقت صفحاته. فالقانون الرومانى أندثر فى إنجلترا نهائيا حتى لقد ترك هذا الأمر مجالا للشك فيما إذا كان السكسونيون قد اتفقوا يوما مع أهل الولاية، بينما وقف الفرنجة من القانون الرومانى موقف التسامح لاموقف التشجيع . أما اللومبارديون فقد جانبا القانون الرومانى، ولا يبدو أن الألمانى والبافارين قد عرفوا شيئا عنه. وسرى فيما بعدما لهذه الحقائق من الأهمية، فمستقبل أوربا فى ذلك الحين لم يكن مع القوط أو البرجنديين ولكن مع أجناس أشد جهلا أو أقل قابلية للتأثر، ساعدتهم حسن الحظ على النجاة من الأدران وذلك بتخلفهم عن تلقى دروس الحضارة الرومانية . فالفرنجة والسكسونيون كما وصفهم جريجورى الثورى (Gregory of Tours) وبيده (Bede)، كانوا بعينين عن الصورة التى تخيلهاهم تاكيتوس (Tacitus) وغيره من المثاليين ؛ ولكن كان القدر يعدهم فى مدرسة الاصقاع الشمالية الشاقة لحكم امباطورية مستقبلية.

كل ما يعنينا من تاريخ هذه الممالك يتلخص فيما يأتى :

(١) لم يكن تاريخ إنجلترا التوتونية من صميم التساريخ الأوروبى قبل عام ٨٠٠م ؛ أما فى القرن الخامس والسادس

فقد قامت جملة مستعمرات صغيرة على أرض بريطانيا الرومانية أسستها العشائر الثلاثة: الأنجلز (Angles) والسكسون (Saxons) والجات (Jutes) الذين هاجروا إلى هناك من الجوتلاند (Jutland) ومن المقاطعة الألمانية شلزفيج هولشتاين (Schleswig - Holstein) وكانت قد نشأت بعض الممالك المهمة من ذلك الخليط عندما استقبل الأنجلز المبشر الأول القديس أجسطين الذي أوفدته روما لتعليمهم المسيحية ؛ وهذه الممالك هي كنت (Kent) وسكس (Sussex) ووسكس (Wessex) في الجنوب ، ومرسيا (Mercia) وأنجليا الشرقية (East Anglia) في المنطقة الوسطى ؛ ونورثمبريا (Northumbria) بين نهري الهمبر (Humber) والفورث (Forth) . وقد كرس كل حاكم جهوده ليسود على المجموعة كلها ، وفاز بهذه السيادة كل من الثبرت (Aethelbert) ملك كنت - وهو أول ملك تحول إلى المسيحية - ثم أدوين (Edwin) ملك نورثمبريا وخليفته المباشران في القرن السابع ، وأوفا (Offa) ملك مرسيا (757 - 796) ، واجبرت (Egbert) ملك وسكس (802 - 839) ، الذي كانت قوته وشدة بأسه نذيرا بالانتصارات التي أحرزها ملوك آل الفرد (Alfred) فيما بعد .

(٢) جنوب غالة ، وكان مقسما في القرن الخامس بين القوط الغربيين والبرجنديين ؛ أما القوط فدخلوا في خدمة الامبراطورية سنة ٤١٠ م عقب وفاة أأريك الأول (Alaric 1)

الذى قادهم إلى إيطاليا ثم أخذ خليفته ، أتولف (Athaulf)
وواليا (Wallia) ، على عاتقهما تهدة غالة واسترداد
اسبانيا لحكام رافنا ، فكوفى الثانى على ذلك بمنحه جزءا من
الارض ليستقر فيها هو وأتباعه سنة ٤١٩ م بين نهري اللوار
والجارون . وفى موقعة تروا (Troyes) الشديدة الهول
ضد أثيلا زعيم الهون ٤٥١ م أدى الزعيمان خدمات جليلة
للكرومان . ولكن كليهما كان منهما قبل هذه الموقعة وبعدها
فى توسيع حدودهما بالقوة تارة وبالحيلة تارة أخرى . وفى
نهاية القرن الخامس امتد سلطانهما فى غالة من نهر اللوار إلى
جبال البرانس ، ومن المحيط الاطلنطى إلى وادى الرون
وعلى امتداد ساحل البحر الابيض حتى جبال الألب شرقا .
وفى اسبانيا — التى كانت قد وقعت فريسة سنة ٤٠٩ فى يد
الوندال (Vandals) والألانيين (Alans) والسويثيين (Suevi) —
وجد القوط ميدانا فسيحا لتحقيق أطماعهم ؛ فبين سنة ٤٦٦
وسنة ٤٨٤ ضم القوط إليهم كل جزء فى شبه الجزيرة فيما عدا الركن
الشمالى الغربى ، الذى ظل معقلا لغرمائهم المغلوين على أمرهم .
أما البرجنديون فقد استطاعوا بناء مملكة أصغر حجما ولكنها
أشد قوة ؛ وفى سنة ٤٤٣ نقلهم قائد روماني مظفر إلى ساقوى
من الأراضى التى تقع بين نهري النكر (Necker) والمين
(Main) ، فنزلوا إلى حوض نهر الرون بدعوة من أهل
الولاية لحماية تلك الارض الحصبة من المغيرين الثيوتونيين
وجامعى الضرائب الرومان . وما وافى سنة ٥٠٠ حتى كان

البرجنديون يحكمون المنطقة من نهر الدورانس (Durance) في الجنوب حتى منابع نهرى اللوب (Doubs) والساونون (Saone) في الشمال ، ومن جبال الألب والجورا (Jura) حتى منابع نهر اللوار .

(٣) إيطاليا وكانت أقل حظا من غالة ، ففي القرن الخامس خربت إيطاليا تخريبا شديدا حيث كانت روما ورافنا الحائرتين المغريتين اللتين يستطيع الغرب تقديمهما للغزاة الباحثين عن الاستقرار أو للمغيرين لمجرد النهب والسلب ؛ وستبقى أرض إيطاليا مدة قرنين من الزمان موضع نزاع بين الامبراطورية الشرقية والتبوتونيين . إن الأهمية الاستراتيجية لموقع شبه الجزيرة ، ثم السحر الجذاب الذي ينطوى عليه اسم روما ، بالإضافة إلى التقاليد الحديث العهد إذ ذاك في أن رافنا كانت المقر الطبيعي للإدارة الامبراطورية في الغرب — كل هذه الاسباب الثلاثة أقنعت رجال السياسة في القسطنطينية بضرورة استرداد إيطاليا حتى ولو اقتضى الامر الجلاء عن الولايات البعيدة في الغرب . ولمدة ستين عاما بعد عزل رومولوس أوجسطلولس (Romulus Augustulus) سنة ٤٧٦م حكم الجرمان إيطاليا ؛ ولمدة تزيد على المائتي سنة كان هنالك نزاع مستمر بين إيطاليا الامبراطورية أو البابوية وبين إيطاليا القوطية أو اللومباردية . ولو أن القوط الشرقيين أو اللومبارديين انتصروا انتصارا حاسما وفي تاريخ متقدم لكان ذلك هو الأفضل للإيطاليين .

دخل القوط الشرقيون إيطاليا من الشمال الشرقى فى سنة ٤٨٩ بقيادة ثيودريك - أول وآخر رجل سياسى أنتجه هذا العنصر . وكان يجيئهم من أواسط نهر الدانوب حيث كانوا قد استقروا بتصريح من الامبراطورية عقب وفاة أثيلا وتفكك جيشه ، وكانوا يبحثون إذ ذاك عن مستقر أصح نوعا لسكناهم فأحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم وحاجياتهم على عربات . ولكن وقف فى طريقهم أدواكر (Odoacer) ، صاحب مرتبة البطرقية الرومانية وقائد الجيش الايطالى وملك إيطاليا الفعلى . ولقد استطاع القوط الشرقيون بعد أربع سنوات من القتال العنيف التغلب على أدواكر الذى كان قد أقام نفسه ممثلا للامبراطورية ، وبعد ذلك النصر لم تبق أمامهم مقاومة علنية ينحشونها . أما بالنسبة للايطاليين فلم يكن هناك فرق يذكر بين أدواكر وثيودريك ، فتغير الحكام لم يكن يمس مصالحهم المادية ، إذ أن ثيودريك لم يستول إلا على ثلث الاراضى الزراعية ، وهى نفس النسبة التى كان أدواكر قد طالب بها من أجل أتباعه . ولم يكن الخضوع لثيودريك يتعارض مع الولاء الذى طالبت به الامبراطورية الشرقية حيث كان يناسب السياسة الامبراطورية فى ذلك الوقت قبول الملك القوطى الشرقى خليفة لأدواكر .

وقد حكم ثيودريك إيطاليا ثلاثة وثلاثين سنة (٤٩٣) - ٥٢٦) ، ولما كان حاكما متسامحا مستبرا ، لم يلخر وسعا فى أن يضمنى على حكمه صبغة شرعية ، وأن يحمى الايطاليين من الاضطهاد . ولقد شغل اثنان من الرومان البارزين وهما

ليريوس (Liberius) وكاسسيودورس (Cassiodorus) على التوالي وظيفة مستشار له ، وكان كل منهما موضع ثقته ، وكانا يقومان بشرح سياسته لمواطنيهم . ولم يتم ثيودرك بأى محاولة من جانبه لزوج القوط الشرقيين بالايطاليين ، فقد ظل جيش الغزاة يربط في البلاد ويخضع من أغلب الوجوه لقانونهم غير أن قانون الايطاليين كان يحترم أيضا ؛ فثيودرك طبق القانون الرومانى الجنائى على العنصرين بلا تفرقة ، ثم أنه منع بشدة متابعة الحروب الخاصة والحصومات ، ولكن للأسف لم يكن لأتباعه مثل ضميره الحى فقد احتفظت العسكرية القوطية بطابعها الممجي ، وكان الموظفون الملكيون والقضاة خربى الدمة ، وضايق الناس من ذوى اليسار المبتزون للأموال والذمائم المخادعون ؛ وكثيرا ما استعبد الفقراء ومن لا سند لهم بطريق القوة أو الخداع . ولم يكن فى وسع الايطاليين التغاضى عن المذهب الأريوسى الذى يعتنقه حكامهم الجدد ، حتى ولو أضنى أولئك الحكام على الكاثوليكيين حمايتهم وتسامحهم . وكان من الطبيعى أن يتحسر رجال الدين وبقايا الأرستقراطية الرومانية على زوال الامبراطورية ، وأن يعملوا على استرجاع سلطانها . وسواء أكان هذا حقا أو باطلا فقد أنهمم ثيودرك جميعا بالخيانة ؛ وفى السنوات الأخيرة من حياته قرر إتخاذ إجراءات شنيعة بربرية مع الذين أنهمم بتدبير المؤامرة ، وخاصة عضو السناتو بوثيوس (Boethius) الذى ضرب بالمراوات حتى الموت بعد أن قضى فترة قاسية فى

السجن . ولقد دافع بوثيوس عن اسمه الناصع ، ولطخ إلى الأبد اسم ثيودرك في رسالته الخالدة التي سماها «سلى الفلسفة» (Consolation of Philosophy) والتي ألفها في سجنه في الساعات التي قضها انتظارا للموت . وبوثنوس وإن كان مسيحيا إلا أنه درج ونشأ على النظريات الافلاطونية والرواقية ، وليزيل الشكوك التي لا بد وأن تنتاب الرجل القويم المبلى ، رجع وهو في أزمته هذه إلى أولئك الفلاسفة . ويعد الرجل فيلسوفاً بحق في تفاوله العظيم وفي تصميمه على مقابلة القضاء المحتوم ثابت الجنان ، وهو من خلال ذلك كله إنما يسترعى الانتباه بأمانته المطلقة ، وكتابه الذي لى الاحترام والتقدير في العصور الوسطى باعتباره الهاماً ، تظل سطوروه هكذا قبله الاهتمام والعطف ما بقى الأمناء من الرجال يسوءهم اضطهاد الانسان لأخيه الانسان مدفوعاً في ذلك بأهوائه ونزواته . غير أن أثر القوط الشرقيين قد محى من أرض إيطاليا ، ويكاد لا يذكر اسم ثيودرك إلا مقرونا ببعض الآثار المصنوعة من الفسيفساء وضريح كبير مهدم في مدينة رافنا . وهنا على الأقل كان الدهر هو الدهر عدلاً في النهاية ؛ فمن ذلك العصر الملى بأعمال العنف والمثل العليا التي لم يخلص الناس في اعتمادهم بها ، لم يخلد في الميراث الروحي للجنس البشرى سوى مناجاة أحد المعذنين الشجعان لروحه ولربه .

توفي ثيودرك سنة ٥٢٦ ، وأوصى بتأججه لحفيده من ابنته الوحيدة ، وبعد ثمانى سنوات كان الملك الصغير المثقل بالأعباء قبل الأوان قد وورى التراب ، كما اغتيلت الأم لتفسح الطريق

لرجل طموح من الأقارب ، وبينما كان لا يزال في شك من اعتلائه العرش أرسل الامبراطور چاستنيان جيوشه لايطاليا بقيادة بلزاريوس (Belisarius) أعظم قواد ذلك العصر ، والذي كان قد ذاع صيته كمنحر لإفريقيا من الوندال سنة ٥٣٦ . وكانت مؤامرات منافسيه في البلاط - وليست موارد القوط الشرقيين - هي التي حرمت بلزاريوس من الفوز بنصر حاسم ، فأطالت الصراع لسنوات عديدة بعد عزله ، ولكن في سنة ٥٥٣ خبت آخر جمرة من جمرات المقاومة وأطفأتها الدماء حيث أعيد تنظيم إيطاليا ، بعد دمارها وتشريد سكانها كولاية من الولايات الامبراطورية تقوم على شئونها حكومة منظمة من الموظفين المدنيين والعسكريين . وقد رحب رجال الدين الكاثوليك بهذا التغيير ، وخاصة أن چاستنيان قد منح الأساقفة سلطات واسعة في الادارة المحلية . أما ناحية مظاهر العظمة فقد كان هناك ما يكفي لتغطية الفساد وعدم الكفاية بطلاء خداع من الأبهة فلم تزد الامبراطورية التي أحياها چاستنيان تحضرا إلا بدرجة قليلة في الواقع عن ممالك المتبربرين السابقة واللاحقة . وقد أضفى الامبراطور على الايطاليين مجموعة القوانين الرومانية المشهورة (Corpus Juris) ، وهي خلاصة تلك الحكمة القانونية التي تمثل خير عنوان لروما التي يدين لها العالم بتلك المجموعة . وكان شيئا هاما بالنسبة للأجيال التالية أن تعلمت إيطاليا في ذلك التاريخ المبكر أن تنظر إلى مجموعة القوانين هذه نظرتها إلى الكمال في الحكمة القانونية .

وعن طريق المدارس الإيطالية التي نشأت فيما بعد كرافنا وبولونيا أثر القانون الروماني على قوانين كل الدول الأوروبية وأملى المبادئ العلمية التي تقوم عليها فلسفة القانون . غير أن القوانين الصالحة في القرن السادس لم تغن شيئا وذلك لانعدام الحكومة الصالحة .

وفي سنة ٥٢٨ م بعد خمسة عشر عاما من إحياء الإمبراطورية— انساب اللومبارديون على إيطاليا من أواسط الدانوب مترسمين خطى ثيودريك يحفزهم صيت نجاحه . وفي أعوام قليلة أضحى اللومبارديون سادة سهل شمال إيطاليا الذي ما زال يعرف بلومبارديا . وفي خلال ثلاثة أرباع قرن برهن اللومبارديون على أن سلطان بيزنطة لم يكن إلا سلطانا أجوف فامتد نفوذ ملوكهم—الذين اتخذوا بافيا عاصمة لهم— إلى ليجوريا (Liguria) وتسكانيا (Tuscany) من ناحية ، وإلى إميليا (Emilia) وفريولي (Friuli) من ناحية أخرى . وفي الجنوب خلف خط الحصون الذي يصل روما برافنا كان دوقا سبولتو (Spoleto) وبنفتو (Benevento) شبه المستقلين سيديين على الأرض التي تقع على جانبي جبال أبنين (Apennines) فيما عدا نابولي وطرف شبه الجزيرة (Bruttium) وفيما عدا تلك البقاع لم يبق على ولائه للإمبراطورية إلا شعب الصيادين الذي يقطن خلجان البندقية ، بالإضافة إلى أراض عرفت فيما بعد باللويالات البابوية . ولم يجلب البيزنطيون على إيطاليا من احتفاظهم بهذا المركز المززعج

سوى التفكك السياسى فقد بقيت اللوقيات اللومباردية فى الجنوب
منصاة عن اللواة الأم ، حتى أن بقايا تلك اللوقيات استخدمت
فيما بعد فى بناء مملكة جنوب إيطاليا التى اتسمت بعدائها المستحكم
مع الورثة السياسيين للملوك اللومباردين . ولقد أظهر اللومبارديون
قدرة على حكم شعب متهور ؛ فاستعملوا اللغة اللاتينية ونحولوا
من الأريوسية إلى الكاثوليكية ، وكيفوا أنفسهم لحياة المدن ،
ثم أنهم كانوا حفظة كراما للفن والصناعة الإيطاليين . ومع
أنهم أدخلوا نظاما تيوتونيا محضا للإدارة ، فقد ظل حكمهم
ساجا إذا قرن بالوسائل الدقيقة التى لجأت إليها السياسة البيزنطية .
فى إيطاليا الامبراطورية رأينا نظاما غريبا يقوم على استبدادية
عسكرية يخفف من حدتها ما أعتصبه كبار الملوك من امتيازات
واختصاصات قضائية ، وما ادعاه الأساقفة لأنفسهم من
حقوق دنيوية غير محددة . وفى إيطاليا اللومباردية لم تزد الأمور
على ذلك سوءا ، إذ كان اللومبارديون غرباء عن البلاد وكان
الاغريق كذلك ؛ ومع هذا عامل الاغريق الإيطاليين معاملة
من هم دونهم على حين تزواج اللومبارديون بحرية مع الإيطاليين
أتباعهم ، ولم يعترف المشرعان اللومبارديان روتاريس (Rotharis)
وليوتبراند (Liutprand) بأية امتيازات بغضبة لجنس
على آخر .

(٤) بقى علينا أن ندرس شال غالة : وهنا نجسد أن الملكية
الفرنجية قد تطورت ، ونحن إذا عالجنا موضوع الفرنجة أخيرا
فلأنهم هم الذين أعدهم القدر لجنى الثمار الطيبة للغزو والاستعمار

الجرماني . ففي نهاية القرن الثامن كانت إفريقيا وأسبانيا وبريطانيا هي الولايات الغربية الوحيدة في الامبراطورية التي فشل الفرنجة في الاستئثار بالنفوذ والسيادة فيها ، هذا فضلا عن أنهم حتى ذلك الحين كانوا قد توغلوا في أوروبا الوسطى أبعد مما أستطاع أى سيماسى روماني - منذ عهد تيريوس (Tiberius) وكان توسع الفرنجة عملية بطيئة تتخللها فترات من التوقف أو التراجع ، ولا يسعنا هنا إلا أن نعرض قصتهم في إيجاز .

عرف الرومان الفرنجة قديما بأنهم غزاة جوايون ، فتعقبهم بلا هوادة معظم الأباطرة العسكريين منذ عهد پروبوس (Probus) إلى عهد جوليان . وقد أضطر فريق إلى الاستقرار كمعيد مستعمرين للأراضي التي تقع على الضفة اليسرى لنهر الراين . واستولى الفريق الثاني - وهم الفرنجة البحريون (Salians) - على جزء كبير من باتافيا (Batavia) وهي منطقة المستنقعات عند مصبي نهري الشلت (Scheldt) والراين . أما الفريق الثالث - وهم الفرنجة النهريون (Ripuarians) - فقد احتلوا الأراضي الواقعة بين نهري الراين والموز (Meuse) على مقربة من مدينتي كولونيا وبون اللانيتين . وقد اعتبر الفريقان الثاني والثالث - البحريون والنهريون - حلفاء (Foederati) للامبراطورية على الأقل منذ عهد أيتيوس (Aetius) الذي حارب الفرنجة تحت قيادته - كما فعل القوط الغربيون - ضد الهون في موقعة تروا (Troyes) سنة ٤٥١ . وقد صد لغاراتهم على الغرب الحكام الرومان للمنطقة الواقعة

بين نهري السوم والوار ؛ وتصدعت قوتهم بتقسيم الفرنجة
البحريين تحت حكم عدة ملوك صغار. ولكن باعثلاء كلوفيس (Clovis)
عرش تورنيه (Tournai) في سنة ٤٨١ بدأت فترة من
التقدم والاتحاد بين الفرنجة . وفي سنة ٤٨٦ عزل كلوفيس
الحاكم الروماني سياجريوس (Syagrius) واغتصب
سلطته ، وفي سنة ٤٩٦ ضم كلوفيس الإمارة الثيوتونية الخالصة
التي كان الألماني (Alemanni) قد أسسوها حديثا في
المنطقة التي تعرف الآن بسوايا (Suabia) . وهذا النصر
كان المناسبة التي تحول بعدها كلوفيس إلى المسيحية ؛ فالأسطورة
تقول إن كلوفيس في أزمة الموقعة الفاصلة قد ابتهل إلى إله
زوجته الثقية بهذه الكلمات : «لقد دعوت آلهتي ولكنهم لم
يستجيبوا لي ، فأليك الجأ وبك سأومن إذا أحرزت النصر
على يديك» . ولقد بر كلوفيس بوعدة ، وقام بتعميده القديس
ريمي (St. Remi) أسقف مدينسة ريمز (Rheims)
وبذلك أصبح عضوا في الجالية الكاثوليكية ومعقد أمل كل
رجال الدين الغاليين الذين خضعوا حتى ذلك الحين خضوعا
قسريا للأريوسيين من حكام القوط الغربيين والبرجنديين . ولما
كان كلوفيس ملك تورنيه فرنجيا ماهرا وطموحا فقد أدرك
بسرعة مزية تحالفه مع الكنيسة المحلية . وفي سنة ٥٠٠ انقلب
كلوفيس على البرجنديين على أمل إخضاعهم لنفوذه ، ولكنه
فشل في تحقيق غرضه لأن ملك برجنديا قام بجيلة في حينها إذ
تحول إلى الكاثوليكية وبذلك اكتسب مرضاة السكان الغالورومانيين

(Gallo-Roman) . أما ألاريك الثانى ملك القوط الغربيين الذى كانت تعوزه الحنكة السياسية لاضطهاده الأساقفة الكاثوليك ، فقد أحرز الفرنجة عليه انتصارا سهلا مبينا . لقد قال كلوفيس بلجيشه : «يوئلى أن أرى أولئك الأريوسيين يحكمون فى غالة» . أما الاقطانيون فقد رحبوا به كناصر للدين ؛ وقد لجأ ألاريك بعد هذه الهزيمة إلى أملاكه فى أسبانيا حيث ترك ليحكم فى سلام ، وهكذا بضربة واحدة امتد سلطان الفرنجة من نهر اللوار إلى جبال البرانس عام ٥٠٧ . وقد انشغل كلوفيس فى أيامه الأخيرة بالقضاء على الأسرات الفرنجية المنافسة له وعلى الخطرين عليه من أبناء جلدته ، ثم توفى بعد حكم دام ثلاثين سنة فى عقبى التقوى والإيمان إذ يقول المؤرخ : «لقد بارك الله فى مملكته بالتوسع كل يوم ، لأنه سار بقلب تقى مستقيم وقام بأعماله ابتغاء مرضاة الله» . وقد دفن كلوفيس فى الجزء الرومانى الغالى من أملاكه - فى باريس التى كان قد أختارها لتكون عاصمة ملكه . وذلك لأن ولاية سياجريوس - التى عرفت فيما بعد بنوسترى (Neustria) أو فرانكيا الغربية - كانت المركز الطبيعى للدولة الفرنجية ، ولم يكن كلوفيس عديم الاكتراث للتقاليد والترف اللذين تنطوى عليهما الحضارة القديمة. وفى أقطانيا (Aquitaine) اتخذ كلوفيس صفة ممثل الامبراطورية ، فكان يركب جواده ويطوف فى شوارع مدينة تور (Tours) مرتديا عباءة القنصل القرمزية التى كان الامبراطور أناستاسيوس (Anastasius) قد أرسلها إليه . وكان من أعز أمانى

القسطنطينية أن يقضى كلوفيس على ثيودريك زعيم القوط الشرقيين كما فعل مع ألاريك . وكانت هذه هى أولى المناسبات العديدة التى نصبت فيها شبكة الدبلوماسية الامبراطورية حول ملك فرنجي ، فقد تأمرت الكنيسة والامبراطورية على إثارة أطماع الغزاة الميروفنجيين والكارولنجهين وتوسيع مشروعاتهم .

على أن الفرنجة كانوا أكثر استمساكا عن غيرهم من المتبربرين بعادة تقسيم المملكة - كما لو كانت مزرعة تخص الاسرة - بالتساوى بين أبناء الملك المتوفى . وعادة الوراثة هذه لو أنها اتبعت منطقيا لأدت إلى انحلال المملكة التام كما حدث فى ألمانيا فى القرن الرابع عشر . وكان من الطبيعى أن يعقب التقسيم بين الفرنجة تطاحن الإخوة ، ثم عادت للمملكة إلى الاتحاد مرة أخرى على يد من تبقى منهم . ولكن حتى وإن كان الامر كذلك فقد كانت الحرب الأهلية تستنفذ نشاط الدولة وطاقاتها . ولم يفعل خلفاء كلوفيس إلا القليل لتوسيع رقعة الدولة التى أورثهم إياها ، وهذا القليل حدث خلال الخمسين سنة التى أعقبت وفاته ، قم إخضاع البرجنديين والبافاريين والثورنجهين واشترت پروفانس من القوط الشرقيين نظير مساعدتهم حربيا ضد چاستينان ، واضطر السكسونيون إلى التعهد بدفع جزية . ومن سنة ٥٦١ إلى سنة ٦٨٨ اضمحل تدريجيا سلطان الفرنجة وعزيمتهم ، ولم يكن بوسع داجسوبرت الأول (Dagobert) الذى حكم من ٦٢٨ - ٦٣٨ م - وهو أشهر المورفنجيين بعد كلوفيس - لم يكن يوسع إلا أن يتعقب الثوار وأن يقوى

استحكامات الجبهة الشرقية ثم أنه أعفى السكسونيين من دفع الجزية، غير أنه لم يستطع أن يمنع مغامرا من مغامري جنسه وهو التاجر سامو (Samo) من أن ينظم سلافي بوهيميا وما جاورها وأن يجمعهم في إتحاد قوى عدواني . ففي عهده رفض الفرنجة الشرقيون (الاسترازيون) أن تحكمهم نويستريا ، وأصرروا على أن يتوج ابن داجوبرت ملكا عليهم . وبعد داجوبرت طالبت الممالك الثلاث، وهي نويستريا وأسترازيا وبرجانديا، بحق كل منها في إدارة منفصلة حتى ولو كانت تخضع لملك واحد . وفي كل من تلك الاقسام الثلاثة كان الحاكم الفعلي هو رئيس البلاط ، وهو نائب الملك الذي أبقى الملك تحت الوصاية الدائمة . وكان الميروثنجيون المتأخرون ضغناء وألوبة في أيدي رؤساء البلاط ولم يظهروا لشعبهم إلا في المناسبات الرسمية ، في حين أنهم تواروا في معظم الأحيان عن الانظار وعاشوا في عزلة كريمة في أملاكهم . وتاريخ الفرنجة من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٧١٩ يمثل تاريخ النزاع بين العائلات الكبرى في نويستريا وأسترازيا للفوز بمركز رئيس البلاط . وفي النهاية تمكن شارل مارتل رئيس بلاط ملك أسترازيا من إعادة الوحدة بين القسمين بالانتصار الذي أحرزه على نويستريا . وكان والد شارل قد حصل على مركز رئيس البلاط ولكنه ترك الامر لابن ليكتسح آخر المنافسين الباقين .

وشارل مارتل هو المؤسس الفعلي للبيت الكارولنجي ، ولو أن أسلافه قد لعبوا دورا هاما في الشؤون السياسية للفرنجة .

ولم يكن شارل هو الذى أوجد الاقطاع ، ولكنه كان أول من رأى امكان اعتماد السلطة الملكية على تعضيد الأفعال (Vassals) أو الأتباع الذين يتعهدون بموازة اللورد فى أى نزاع باذلين أرواحهم وما يملكون من متاع الدنيا . ولكى يمد شارل أتباعه بالاقطاعيات جرد الكنائس من كثير من ممتلكاتها الغنية . ولكنه كفر عن فعلته هذه فى ميدان پواتيه . فى سنة ٧١١ عندما استولى العرب على شمال إفريقيا من الامبراطورية البيزنطية ، دخلوا أسبانيا ودمروا رودريك (Roderic) آخر ملوك القوط الغربيين ، وبموته انهارت قضية شعبه . ومع أن القوط الغربيين كانوا قد دخلوا فى الكاثوليكية منذ زمن طويل وكانوا فى تحالف وثيق مع الأساقفة الاسبانيين ، إلا أنهم كانوا مكروهين من أهالى الولايات الذين أنزلهم القوط منزلة القن واضطهدوهم بوحشية . وفى خلال عشر سنوات أصبح عسكر الخليفة سادة على اسبانيا وأداروا وجوههم شطر جنوب غالة . ولم يكن فى استطاعة دوق أقطانيا الفرنجى أن يحصى دوقيته أو يعقد معاهدة طويلة الأمد . وأخيرا لم يكن أمامه إلا أن يلجأ إلى رئيس البلاط الذى كان يعتبره عدوا له حتى ذلك الحين . وقد استجاب شارل لندائه وعلى رأس جيش فرنجى كبير واجه العرب تحت أسوار پواتيه ، ولمدة سبعة أيام لم يشأ أى الجائنين أن يبدأ بالهجوم ، وفى اليوم الثامن هجم المسلمون ، وكان الجيش الفرنجى مكونا من مشاة تحميم الأدرع والفرس . وعلى صفوفهم المترابطة التى كانت تشبه الاسوار

الحديديّة ، هجم العرب بلا طائل ، فلما صد الهجوم وأنقرط
حبل النظام في جيش المسلمين تقدم الفرنجة وتغلّبوا على مقاومة
العرب ، وقد خر الأمير عبد الرحمن صريعا في الميدان ثم
أسدل الليل ستاره على القتال ، وكان كلا الجيشين يعسكر
في الميدان ، غير أنه في صبيحة اليوم التالى اختفى العرب مرتدين
على أعقابهم نحو جبال البرانس في أكتوبر سنة ٧٣٢ . وهكذا
أوقف تيار الفتح الاسلامى لأول مرة ، ومع أنه لم يقدر للفرنجة
أن يستردوا أسبانيا من العرب إلا أنهم اعتبروا أنهم منقلبو
شمال أوروبا . على أن النقد الحديث يرى أن الخلافات الداخلية
بين مسلمى اسبانيا قد أدت خدمة أجل لقضية العالم المسيحي
من ذلك الانتصار الذى أحرزه شارل مارتل ، حيث ظلت
سپتمانيا (Septimania) في قبضة العرب الذين شنوا
الغارات على پروفانس . ولكن بالنسبة للمعاصرين لم يكن هناك
شك في أن الفرنجة بعملهم هذا قد استحقوا شكر الكنيسة
وامتنانها ، كما استحق شارل مركزه الشاذ كذلك غير متوج .
وكان رئيس البلاط يشعر كل الشعور بقيمة التعصيد الدينى ؛ فأولى
عمل المبشرين الانجليزيين وليبرورد (Willibrord) وبونيفاس (Boniface)
مؤازرته في التبشير بين القبائل الجرمانية الغير مسيحية كالفريزيين
(Frisians) والمهسين (Hessians) والثورنجين (Thuringians) الذين
طالب شارل بالسيادة عليهم . وقد سمح لبونيفاس بأن يضع نفسه
في عداد خدام الكنيسة . حقا لقد رفض شارل أن يعقد تحالفا
مع الكنيسة الرومانية ضد اللومبارديين ، فقد شغلته تماما الحروب

التي كان يشنها في الشمال ؛ مثل حروبه مع الفريزيين والسكسونيين
والبافاريين الثوار والألماني والاقطانيين . ولكن الخطوة الطبيعية
التي اتخذها خلفاؤه هي التحالف مع روما بعد التحالف مع
الكنيسة . فقبل وفاته بفترة وجيزة سنة ٧٤١ قسم شارل سلطانه
بين ولديه كارلومان (Carloman) وپن (Pepin) فأعطى الأول أسترازيا
والثاني نويستريا . ولكن كارلومان اعتزل الحكم ليصبح راهبا في
سنة ٧٤٧ فترك أخاه پن ليواصل منفردا عمل أبيه . وقد
استخدم كلا الاخوين بونيفاس في تنظيم وإصلاح رجال
الدين الذين يعملون في أملاكهما فسمح پن للقديس بونيفاس
بأن يؤدي كافة الاساقفة الفرنجيين بين يديه قسما لتأكيد خضوعهم
لكنيسة روما ، ثم عينه رئيسا لأساقفة ماينتس (Mainz) ورئيسا
للكنيسة الالمانية . وبعد ذلك بثلاثة أعوام حصل پن رئيس
البلاط على إذن البابا زكريا (Zacharias) لعزل
آخر ملوك الميرونجيين الاطيفاء وتوليته مكانه . لقد كان
البابا على حق حين أوصى في سنة ٧٥١ بأن صاحب السلطان
الحقيقى يجب أن يحصل على اللقب . وهكذا انتهى فرع كلوفيس
وانتهت بانتهائه الفترة البربرية في تاريخ الفرنجة . ولمدة الخمسين
سنة التالية يصبح تاريخ أوروبا هو تاريخ الفتوحات الكارولنجية
والمحاولات التي بذلت لإعادة التكوين السياسى لأوروبا .

والآن اتخذت العلاقة الآخذة في النمو بالبابوية طابعا جديدا ،
فند أوائل القرن الثامن فقدت الامبراطورية الشرقية كل ما تبقى
لها من حق في تبعية إيطاليا لها وذلك بتحريمها عبادة الأيقونات ،

وكان ذلك منها احتجاجا في غير أوانه على المادية والاشراك بالله الآخذين في النمو في المسيحية الكاثوليكية ، وكانت النتيجة أن أنضم البابا إلى اللومباردين لحماية عبادة الأيقونات في إيطاليا الامبراطورية . وقد أصدر جريجورى الثالث في سنة ٧٣١ قرار الحرمان ضد اللاأيقونيين وفي سنة ٧٥١ استولى أيستولف (Aistulf) ملك اللومباردين على رافنا آخر معقل هام للبيزنطيين في شبه الجزيرة . وقد لاحظت البابوية بعد فوات الأوان أن اللومباردين الكاثوليك يمثلون خطرا أعظم من خطر الإغريق المراطقة ، وكان أيستولف يعتبر روما وسائر ممتلكات الامبراطورية الأخرى غنيمة الحلال . ولأول مرة شب الخلاف بين السياسة الدنيوية التي كانت تعمل على توحيد إيطاليا وبين الأسقف الروماني الذي كان يطالب بالسيادة والسلطان الدنيوي على إيطاليا بالاضافة إلى مركزه الديني . وهذه السلطة الدنيوية كانت في نظر البابا سلطة تاريخية لا غنى عنها لمنصبه . وقد قام البابا ستيفن الثاني بزيارة مثمرة للبلاط الفرنجي ليستحث الملك على تأكيد المطالب الدنيوية وليظهر له اعتراف البابوية بالجميل . فقام بين بغارتين عبر جبال الألب اضطر اللومبارديون بعدهما إلى التراجع عن المطالبة بروما ، هذا بالاضافة إلى إرجاع الأراضي التي كانوا قد غزوها من أراضي الامبراطورية . وهذه الأراضي التي تقع في رومانيا (Romagna) ومنطقة المستنقعات هي المنحة التي قدمها ملك الفرنجة في سنة ٧٥٦ للبابا باعتباره الممثل

الشرعى للسلطان الامبراطورى . هذه المنحة التى قدمها بين للبابوية رغم احتجاجات بيزنطة قد وسعت سلطة البابوية الدنيوية التى مارسها خلفاء ستيفن فترة طويلة فى روما والمناطق المجاورة . وهذه الوسيلة المأساوية لتعجيز أعظم غريم للفرنجة كانت الصخرة التى تحطمت عليها المثل العليا فى ذلك الحين ، ذلك لأن السلطة الدنيوية للبابوية هى التى كانت مثار النزاع العنيف الاخير بين الامبراطورية الرومانية المقدسة وبين البابوية ؛ ذلك النزاع الذى كان يمثل العقبة الكوئود فى سبيل زعماء حركة البعث الإيطالية (Risorgimento) (١) .

وقد بذل بين - كاييه - جهدا عظيما ليربط بين المناسقات التى غزاها الميروفنجيون الأولون ، ولكنه لم يلق نفس النجاح الذى صادف أباه . لقد أخرج العرب من ناربون (Narbonne) واسترد دوقية أقطانيا وقضى على الأسرة الحاكمة فيها بعد ثمانى حملات شاقة . ولكنه لم يستطع أن يحصل على اعتراف أكيد بسيادته من السكسونيين أو من البافاريين . وقد حاق الخطر الجسيم بأعماله فى أقطانيا عندما قسم - وهو على فراش الموت فى سنة ٧٦٨ - مملكته بين ولديه كارلومان وشارل حسب

(١) « ريسورجيمنتو » : يطلق هذا اللفظ على الحركة التى قامت لتوحيد إيطاليا وتحريرها فى منتصف القرن التاسع عشر ، والاسماء الرئيسية التى تحصل بهذه الحركة هى مازينى وثيكتور عمانويل ، ملك سردينيا ، وغريالدى ، وكافور الذى انشأ فى سنة ١٨٤٧ جريدة بهذا الاسم . المترجم

المبدأ العائلي القديم . ومن حسن الحظ أن صمد شارل - رغم المتاعب والمؤامرات التي أثارها ضده أخوه الأكبر العديم الكفاية - لثورة جديدة في أقطانيا وتمكن من أخمادها . وقد شيع شارل في سنة ٧٧١ أخاه كارلومان إلى القبر غير مأسوف عليه رغم صغر سنه ، وكان من اليسير أن يحصل على اعتراف بانفراده بالملك ، وعندئذ غدا في مركز ملائم كل الملائمة لأن يتبع سياسة تتضمن مطامع أسلافه بل ونسبو عليها ، فهو وريث مملكة تمتد من الاطلنطى إلى حدود بوهيميا ومن بحرى الشمال والمانش إلى جبال الالب والبرانس ، وهو راعى الكنيسة الرومانية وسيد حكومة دينية كانت ترى المثل الاعلى في قيام دولة مسيحية ، وترغب في أن ترى السلطة الدنيوية تفرض الوحدة المسيحية بالسيف على أوروبا ؛ وكان شارل سيد طائفة من الأفصال يملؤها الكبرياء والشهوة للغزو ، وتحت يديه الموارد الكافية والانصار لتحقيق الأمل الذى كان يراود ثيودرك يوما من الايام ؛ وهو أن يكون السيد الاعلى للاقوام التوتونية ونائب الامبراطورية في كل الولايات الغربية . ولم يكن شارل بالشخص العادى الذى سنحت له مثل تلك الفرصة فرغم أنه كان ناقص التعليم حتى إذا قيس بمقياس عصره، إلا أنه كان حاضر البديهة ، محبا للاستطلاع إلى أقصى حد ، وقائدا ذا إرادة حديدية ونشاط خارق للعادة قلما خاناه في قيادة جنوده خلال المصاعب والصدمات حتى النصر النهائى ، وكان شارل خياليا يتوهج بخياله كلما اتضحت له فكرة عظيمة تمت للعالم

القديم — سواء كانت مسيحية أو وثنية ؛ وهو سياسى عملى اقترن حبه العميق للنظام واحترامه للعدالة بموهبة تنظيمية وقوة مكيئة جعلت مروسيه يؤدون عملهم على خير وجه ؛ لهذا كله لم يكن هناك أى نقص فى مؤهلاته الطبيعية يمنع من ادراجه فى مرتبة عظماء الرجال . إن المآخذ التى تؤخذ على أعماله لم تكن إلا مجرد أوجه نقص فى الجنس والعصر اللذين ينتمى إليهما شارل ، فأعلى درجات الحنكة السياسية لا تأتى للمرء إلا إذا تجمعت لديه الخبرة الطويلة والمقدرة الفائقة خلال حضارة عريقة قوية .

ومياسة شارل فى تلك الفترة التى انفرد فيها بالحكم (٧٧١—٨١٤) سياسة ذات وجهين : فهى تتطلع للأمام وتتلفت إلى الخلف . فهو كأسترازى لحما ودما — كان يخلص للمثل الأعلى الفرنجى القديم وهو الغزو الحربى ؛ ولكنه أضفى على هذا المثل معنى جديدا ، ولم يقف عند حد تنفيذ مشروعات أسلافه بل تجاوز أقصى ما طمحوا إليه من أعمال . وقد انتهج شارل نهج أبيه فى صداقته للبابا وفى عنايته بالإصلاح الدينى ، ولكن علاقات الابن بالكنيسة أئخذت غرضا جديدا وأنطوت على أسس تختلف عن الماضى . استرشد شارل فى نظمه الادارية بالمقياس التقليدى لواجب الملك ، وكان إشرافه على ممتلكاته ملحوظا ؛ فهو موئل الفقير وملاذ الضعيف ونصير العدالة ، ولكنه كان أيضا مصلحا بعيد النظر ؛ فقد وفق بين النظام الادارية القديمة ومقتضيات الجهاز السياسى الجديد . وفى

الحقيقة إذا أردنا أن نجعل كل أوجه التباين هذه في وجه واحد ،
استطعنا القول بأن شارل كان وريث ملكية جرمانية قديمة
كما كان مؤسساً لامبراطورية جديدة .

وقصة حروب شارل نفروها كما لو كنا نقرأ نثرات من
قصة مفقودة ، ففي المصادر المعاصرة نجد أن الحوادث متنوعة
للغاية والتفصيلات قليلة :

(١) في سنة ٧٧٣ عبر شارل جبال الالب إستجابة لتوسلات
البابا هارديان نظرا لان ديدير (Didier) ملك اللومباردين
كان قد استولى على بعض المدن التي كانت ضمن هبة بن
بل وكان يهدد بالاستيلاء على روما نفسها . حاصر شارل
مدينة بافيا واضطرها تحت ضغط الحصار إلى التسليم ؛ فلجأ
ديدير إلى أحد الأديرة ، وضم شارل كل الاراضي اللومباردية
فيما عدا سهولتو (Spoleto) - التي خضعت للبابا -
وبنفتو (Benevento) ، ولقب شارل نفسه بملك
اللومباردين ؛ ولكن بغض النظر عن وضع حاميات في
بعض المدن القليلة ، وتعيين بضع كوثات من الفرنجة لم
يحاول شارل عزل الموظفين اللومباردين أو تعديل نظم الحكم
اللومباردي . وقد قام شارل بزيارة هارديان في روما وجدد
« هبة بن » وعقد حلفا للصدقة الأبدية مع البابوية .

(٢) ثم تبع ذلك فترة حروبه مع السكسونيين ، وبقلد
ما كانت تلك الحملات بمثابة حرب صليبية ضد الوثنية الجرمانية
كانت أيضا نضالا لإثبات حقوق قديمة مهمة في السيادة عليهم .

وقد قام شارل بحملته الأولى على السكسونيين فى سنة ٧٧٢ ولكن لم يتم اخضاعهم تماما إلا سنة ٧٨٥ . وكان السكسونيون لا يزالون فى تلك المرحلة من التطور السياسى التى وصفها تاكيتوس (Tacitus) فى كتابه عن الشعوب الجرمانية (Germania) ، يحكمهم رؤساء عشائر صغار يقيمون عليهم زعيما ليقودهم فى الحرب كلما دعت الحاجة للاتحاد ، وفيما عدا ذلك اقتصر اتحادهم على عاطفة الجنس وفى عبادة إله القبيلة . ولكنهم كانوا جنسا محاربا ، ووجدوا فى هذه الازمة زعيما قسديرا وهو فيدوكند (Widukind) المشهور . وأخيرا ضرب فيدوكند هذا المثل لأتباعه باعتناقه المسيحية ، وقد حضر شارل بصفة كفىل حفل تعميده ، وغدا فيدوكند بعدها التابع الأمين لوالده الروحى .

وفى بضع سنوات امتلأت سكسونيا بالكنايس التبشيرية . وفى بضعة أجيال أصبح السكسونيون مبرزين فى ولائهم للمسيحية وعند الأساقفة السكسونيون من بين أغنى الأمراء الدينيين ومن أكثرهم نفوذا ، وكان على يد الحكام السكسونيين الذين انحدروا من فيدوكند أن بُعثت سياسة شارل الامبراطورية فى القرن العاشر واحتفظ الشعب الالماني بالتاج الامبراطورى . خير أن تعاق السكسونيين بقوانينهم الوطنية وبلغتهم ، ورفضهم العنيد بأن يحكمهم أجناس أخرى وقفا عقبة كوودا فى سبيل أقوى الحكام الذين أنجبهم ألمانيا فى العصور الوسطى .

(٣) وفى خلال السنتين ٧٨٦ - ٧٨٧ هددت شارل

موأمرة على نفوذه وسلطانه في إيطاليا ؛ فقد كان تاسيلو (Tassilo) دوق بافاريا يطمح إلى الاستقلال ، وقد حرضته زوجته - وهي ابنة الملك ديلير - على أن يضم قضيته إلى قضية شعبها . وأكد أريجيس (Aroghis) - الحاكم اللومباردي للدوقية بنفثتو - استقلاله بأن نهج نهج الملوك ، فانضم الحاكم أحدهما إلى الآخر إلا أن أمرهما أنكشف قبل أن تنضج خططهما ، وارتعدت فرائصهما وخضعا خضوعا تاما عندما ظهرت الجيوش الجارية على حدود كل منهما .

ولم تكن الدوقية اللومباردية بملك مستديم للفرنجة ، ولكن أخضعت دوقية بافاريا كنتيجة لموأمرة ثانية سنة ٧٨٨ . ولما أضيفت هذه الولاية الكبيرة الغنية لأوستراريا ، أصبح النصف الشرق للمملكة الفرنجة مساويا في المساحة تقريبا لألمانيا في العصور الوسطى ويكاد يعادل في الأهمية ولايات غالة الرومانية .

(٤) وكاحتياط طبيعي للدفاع عن بافاريا ، ولي شارل وجهه شطر الآفار - وهو جنس يمت بالقرى للهون - وكانوا قد استقروا في حوض الدانوب الأوسط عقب رحيل اللومباردين إلى إيطاليا ، وقد غزا الآفار بافاريا وفريولي باعتبارهم حلفاء لتاسيلو عام ٧٨٨ ، وقد عاقبهم شارل بأن جرد عليهم ثلاث حملات بين سنة ٧٩١ وسنة ٧٩٦ حطمت قوتهم ولم تبق إلا على بقية تعسة من شعبهم . وقد ضمت أراضيهم إلى ألمانيا ولكنها لم تستعمر وذلك لأن ألمانيا كانت ميدانا أكثر

إغراء لارواد الأوائل من الفرنجة . حقا لقد أستقر بعض الآفار الباقين في إقاييم الحدود الشرقى (Ostmark) الذى هو النمسا الآن ؛ ذلك الإقليم الذى أسسه شارل كنقطة حدود لبافاريا ليراقب منها السلافيين .

(٥) وجه شارل انتباهه لاسبانيا لأول مرة سنة ٧٧٧ عندما دعاه أمراء العرب المتدمرون في شمال نهر الابر (Ebro) كى يخلصهم من الخليفة الأموى فى قرطبة . وفى العام التالى قام شارل بحملته الفاشلة عبر ممر الرونسفال (Roncevalles) إلى أسوار مدينة سرقسطة (Saragossa) . وقد خلدت ذكرى هذه الحملة فى قصيدة رولاند الغنائية (Chanson de Roland) وهى أقدم وأشهر ملحمة تدور حول شارلمان ، ولكنها خيالية من أولها إلى آخرها ، فيما عدا ما يتعلق بشخصية واقعية هى شخصية رولان الذى كان حاكما لإقليم الحدود برتون (Breton Mark) والذى خر صريعا فى أثناء انسحاب الفرنجة . على أن شارل قام بعمل هام فى اسبانيا فى السنين الأخيرة من حكمه ، فقد أعلنت نافار (Navarre) انضمامها للفرنجة واعتناقها المسيحية، واستولى أكبر أنجال شارل على طرطوشة (Tortosa) عند مصب نهر الابر سنة ٨١١ وأسس هناك لإقليم الحدود الاسبانى .

إن هذا العرض الطويل لايمتوى إلاعلى سرد لحروب شارل الهامة التى خاضها هو ومعاونوه . على أنه يجب أن نتخيل — إذا أردنا إتمام الصورة — الاشتباكات القليلة الأهمية التى

أبيرة فرجة



-- حدود امبراطورية الفرجة
 [] حدود الامبراطورية الشرقية

٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ميل

وقعت داخل وخارج الامبراطورية ضد السلافيين والدانيين والاغريق والبريتون والعرب واللومبارديين فى بنفقتو . هذه الأعوام المتخمة بالحروب تنهى بتأسيس الامبراطورية الفرنجية التى تمثل القوة الكبيرة الوحيدة غرب نهر الإلب وبحر الادرياتيك . ولكنها لم تشمل الاراضى الاسكندنافية أو الجزر البريطانية ، فالفرنجة لم يكونوا فى يوم من الايام سادة على البحار الشمالية . على أن الامبراطورية قد فشلت فى إخراج العرب والبيزنطيين من غرب البحر الأبيض المتوسط ، فبقيت اسبانيا وصقلية بل وأجزاء من إيطاليا دون غزو ، ولم يكن هناك أى تفكير فى استعادة شمال إفريقيا . ومع ذلك كانت المملكة الفرنجية من حيث العظم خليفة بأن تخلف الامبراطورية الغربية . وفى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ توج شارل امبراطورا على الدولة الرومانية على يد البابا ليو الثالث فى كنيسة القديس بطرس بروما ، ولم يدر بخلد أتباعه أن عقارب الساعة بهذا الاحتفال المهيب قد رجعت أربعمائة عام إلى الوراء . وإن كان عصر الغزوات الجرمانية قد انتهى على يد شارل — وهو أعظم شخصية ظهرت بين الجرمان — إلا أن العصر الذى بدأ به لم يكن عصر إحياء للقديم بل كان عصر تطور جديد .

الفصل الثالث

الامبراطورية والملكيات الجديدة

من ٨٠٠ - ١٠٠٠ ميلادية

تولّف سياسة شارلمان الامبراطورية ، المقدمة لتاريخ العصور الوسطى المتأخّرة ، فقد عرف كيف يحتفظ بالتوازن بين القوى الناشئة التي قدر لها أن تتطاحن فيما بينها فتسبب الاضطراب فيما بعد . وكان شارلمان يقبل دون تمييز الآراء التي حار في التوفيق بينها السياسيون الذين جاءوا بعده وكانوا أقل صلفا منه أو أكثر نزوعا إلى تقبل النقد ، وهو يجمع بين النقيضين ، إذ كان أوتوقراطيا على رأس أرستقراطية حاكمة ، ولكنه كان حاكما شعبيا ينشد التعاون مع الجمعيات الشعبية في الأقاليم ، وكان على رعيته - كبيرهم وصغيرهم - الاعتراف بالولاء المباشر لشخصه ولاء غير مشروط ؛ ومع ذلك فلم ير مانعا من وجود الدوقيات القبلية ، ثم أنه عمل على إحياء مملكة اللومباردين وأحاطها هي وأقطانها بإقطاعين لأولاده الصغار . وقد تعهد نمو الاقطاع الاقليمي وآزر حقوق السيد اللورد على تابعه ، ولكنه في نفس الوقت ابتكر وسائل للهيمنة على الاقطاع وللحد من نموه الطبيعي ، وهو يمجّد الكنيسة ويخضعها في نفس الوقت لمشيئته . وكان أداة لتنفيذ إرادة الله كما فسرّها رجال الدين ؛ ولكنه كان يتصرف في الأسقفيات وكراسات الأديرة

كما لو كان يتصرف فى إقطاعات شاعرة ؛ وكان يملئ إرادته على البابا ويتدخل فى طقوس الكنيسة ويطالب بأن يكون له رأى فى التعاليم الدينية وشئون العقيدة . وأكثر ما يسترعى النظر - آخر الأمر - هو التباين بين مظهرى سلطته ؛ المظهر الملكى والمظهر الامبراطورى .

فقد ترك الفرنجة لأوربا تركة تقوم على نظريتين سياسيتين ، الأولى : نظام الملكية الجرمانية ، والثانية : المثل الأعلى للسلطة التى ينبغى أن تعلو فوق الملكية وتضم فى كومنولث كافة الممالك الكاثوليكية فى الغرب . فمن ناحية أعد الفرنجة نموذجا للحكم ليقنتدى به أمثال إيجبرت (Egbert) وهنرى الصياد (Henry the Fowler) وهيو كاپيه (Hugh Capet) . ومن الناحية الأخرى كانوا هم مصدر الهام للأهداف الكبرى التى نشدها ملوك الالمان من السكسونيين والهوهنشتاوفن (Hohenstauffen) . ولذلك ينبغى أن نفهم ما هو الملك الكارولنجى وماذا كان يأمل الامبراطور الكارولنجى أن يكون .

ترتكز سلطة الملك على ثلاث دعائم : ولاء رعيته له والالتزامات الشخصية التى يلتزم بها الأفصال التابعون له ، والخدمات التى يقوم بها مستأجرو الأراضى الملكية والضرائب التى يؤدونها ؛ ومن هؤلاء الاخيرين يتحصل الملك على الجزء الأكبر من دخله . والملك هو أكبر ملاك الأراضى فى دولته إلى أن وزع فى القرن التاسع أراضيه على هيئة منح من الإقطاعات يتوارثها الأبناء عن الآباء . وفلاحة الأراضى الملكية فرع هام من فروع الخدمة العامة يديرها موظفون يعملون بمقتضى

قواعد وقوانين فصلها الملك تفصيلا دقيقا فى شكل مراسيم ؛
وهؤلاء الموظفون مسئولون أمام وزير من وزراء الدولة ،
الصنجيل أو مدير القصر (Seneschal) . أضف إلى
هذا أن الملك كان مصدر العدالة وحارس النظام العام ،
وراعى الصناعة ، والتجارة التى تزدهر فى السلم . وتبعا
لذلك يحصل الملك على أرباح كبيرة من الغرامات التى تحصل
فى دور المحاكم ، ومن مصادرة أملاك المجرمين ، ومكوس
الطرق العامة والأسواق ، وضرائب الجمارك والمدن الواقعة
على الحدود . ويعاون الملك فى مباشرة حقوقه واستغلالها موظفون
معظمهم من موظفى البلاط كأمين الخزانة الملكية (Chamberlain) ،
والكونستابل (Comes stabuli) وهو قائد الجيش ؛
والصنجيل ويشرف أيضا على الأراضى الملكية ؛ ورئيس قسم
التسجيل الذى تقوم هيئة مكتبه بكتابة الرسائل الملكية
وكافة وثائق الدولة ، وكبير القساوسة (Arch-chaplin)
وليه يلجأ رجال الدين المتقاضون بالتماساتهم وشكاواهم .
وأخيرا هناك كوئنتات القصر الذين يعينون من العناصر
الرئيسية فى المأكنة ، لنظر الاستئناف فى القضايا المدنية.
غير أن الملك مضطر بحكم العادة أن يباشر سلطته بمشورة
كبار رجال دولته ومواقفهم - وهذا تقليد جرمانى استمر
حتى بعد الأخذ بنظرية الحكم المطلق فى القانون الرومانى .
وتداول مع الملك هيئة مختارة من النبلاء ذوى النفوذ فى كل
المسائل التى لها أهمية وطنية وقرارات تلك الهيئة تعرض للموافقة

على جمعية عامة (Mayfield) تجتمع سنويا في الربيع أو الصيف . وأمام هذه الجمعية يناقش موضوع حملة السنة الحربية ثم تؤخذ موافقتها عليه ؛ وفي هذه الجمعية أيضا تذاع المراسيم الملكية (Capitula) .

وليس للرجل الحر - الذى يقع على عاتقه عبء الخدمة العسكرية - أى رأى فى مناقشات الجمعية العامة ؛ ولكن أى قوانين جديدة تؤثر على القوانين العرفية القديمة الخاصة بالعناصر الصاعدة التى تتكون منها المملكة كالفرنجة البحريين (Salians) والنهرين (Ripuarians) والسكسونيين (Saxons) .. الخ لا تصبح نافذة المفعول حتى توافق عليها الجمعيات الشعبية فى الولايات التى تتعلق بها القوانين . ولم تكن إعادة النظر فى القوانين على هذا النحو كثيرة الحدوث ، فحق الملك فى التشريع محدود بالتعصب العام الذى ينظر إلى القانون العرفى نظرتة إلى شئ مقدس غير قابل للتغيير . والمراسيم الملكية هى غالبا القوانين الإدارية ؛ إذ أن القانون العام الذى يطبق على كافة الناس فى جميع أنحاء الدولة ، كان مثلا أعلى تحقق فى إنجلترا دون سائر الدول فى العصور الوسطى . أما فى سائر الأنحاء الأخرى فقانون الملك هو ملحق أو حاشية للقانون المحلى ؛ وامتياز الرجل الحر هو أن يعيش فى ظل قانون ولايته أو قانون اقطاع سيده اللورد أو قانون مدينته الحرة . ويعتمد الملك فى الإدارة المحاية - خارج الدوقيات القليلة - على كونتات يحكمون مناطق هى أقسام من الولايات القديمة .

والكونت - وهو عادة موظف تنتقل إليه الوظيفة بالوراثة - هو نائب الملك في كل الشئون ، الحرية منها والمدنية . وهو يجمع الاستحقاقات الملكية ويقود الرجال الأحرار إلى الجيش ، ويحافظ على السلم ويطبق العدالة .

ومحكمة الكونت هي المحكمة الجزئية الجرمانية القديمة التي كان يتكون قضاتها في المبدأ من الحصوم الأحرار ؛ ولكن أصبح يمثل الحصوم بضعة قضاة (Scalani) يختارون لوقارهم ولعرفتهم بالقانون ؛ وليس لهؤلاء من أثر فعال في مراجعة الكونت ، وكان من العسير إيجاد وسائل وأساليب لإلزام أولئك الحكام المحليين بأن يتصرفوا بأمانة . ولهذا الغرض كان الملك يعين سنويا مفتشين جوابين (Missi dominici) ، يعيشون في جماعات تتألف من اثنين أو ثلاثة لإحاطة الكونت بالتعليمات الملكية ، وإعلان القوانين الجديدة ، وفوق هذا كله للنظر في الشكاوى التي تقدم إليهم من جميع المظلومين ، ثم الحكم فيها . وكانت هذه الزيارات التفتيشية - وهي وسيلة جاءت متأخرة نسبيا وكانت أولى النظم الكارولنجية في الاختفاء - هي الضمان الوحيد لعدم إساءة الإدارة المحلية واستئثار الحكام بالسلطة . ولما انقطعت هذه الزيارات غالبا ما أضحت الكونتية الكارولنجية إقطاعا يورث ، ويستغل لمصلحة اللورد الشخصية .

لم يكن في النية أن تبطل الامبراطورية هذا النظام للحكم الملكي ؛ فالملوك كانوا يعتبرون بقلدر ما كان يعتبر الأباطرة

ذوى مراكز ووظائف معينة فى الكومنولث المسيحى . ولم يكن فى متناول شارلمان تقاليد فى نظام إدارة الامبراطورية إلا لونا من تقاليد صيغت على النمط الشرقى . وكان لشارلمان فى غالة كما فى إيطاليا رعية عاشت تحت حكم قانون رومانى فاسد مشوه ، غير أنه لم يكن على معرفة بالأسس العلمية لكبار المشرعين الذين كانت كتاباتهم أعظم عمل حققته العبقريّة الرومانية . وقد بدت الامبراطورية الرومانية لخيرة عقول القرن الثامن - خلاف ما بدت فى نظر أمثال أتولف أو ثيودرك - آية أبدعتها الخنكة السياسية الإنسانية ، بل بالأحرى نظاما مقدسا خلقتة العناية الآلهية قبل ميلاد المسيح لتدريب الشعوب وإعدادها لسيادة كنيسته العالمية . ولم يكن أجسطس هو المثل الذى يحتذى للأباطرة الكارولنجهين بل كان قسطنطين العظيم أكثر الحكام مسيحية - فهو الذى عمل على أن تكون أولى واجباته هى حماية الكنيسة من الهراطقة والوثنيين واغداق الأموال عليها وفرض شرائعها . ومهما كانت الصورة التى قد تفهم عليها علاقة شارلمان بالبابا ، فقد كان الامبراطور يتقلد منصبه كأول خادم للكنيسة . فإذا كانت التزاماته العملية إذن ؟ كانت فى رأى البعض أنه أخذ على عاتقه إعادة وحدة العالم المسيحى ، وإخضاع كافة الأقوام الوثنية . ولم يكن فى استطاعة امبراطور من الأباطرة تحقيق هذا المثل الأعلى الساذج تحقيقا عمليا ، فشارلمان لم يشن حروبا هامة عقب تنويجه لإمبراطورا ولا تردد فى عقد صلح مع الامبراطورية الشرقية أو حتى فى

تبادل العلاقات الودية مع هارون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد . وكان يعتقد - وقد أيده في اعتقاده عقلاء مستشاريه - أن أولى واجباته هي صيانة مجتمعاته والتوحيد فيها بينها وإصلاحها ، تلك المجتمعات التي مارست الكنيسة عليها سيادة اسمية . ولم يعد ينتظر منه غزو حكام آخرين من المسيحيين ، كما لم يكن ينتظر منه أن يسلم في حقه الملكي ؛ ولو أنه كان من المطلوب أن يظهر هؤلاء الحكام ولأهم له باعتباره الممثل للوحدة الروحية على الأرض .

أما في داخل دولته فقد غير المنصب الامبراطوري من روح الحكم لا من شكله ، فرفعت الامبراطورية مقام الملك والمسؤوليات التي يضطلع بها باعتباره ملكا إلى منزلة أسمى من العزة والسطوة إذ شعر بأن عليه إعداد الوسائل التي توطد دعائم القانون الكنسي وتحسن القانون الدنيوي بإمعان يفوق ما سبق . وكان على رعاياه ملاحظة أن ولأهم للامبراطور وإخلاصهم له يجعلهم رعايا الله ، وكان عليهم مراعاة قانون الله كجزء من قانون الامبراطورية ؛ والامبراطور من جانبه كان يعمل بكل ما يستطيع من قوة على أن يكون الرقيب الأخلاقي والمعلم وحامل الرسالة الدينية وحامي حماي رجال الدين والمدافع عن العقيدة .

وإذا ما تركنا هذا الحلم النبيل لتتبع تاريخ الامبراطورية الكارولنجية ، وجدنا أن التباين بين الواقع والمثل الأعلى تباين غريب فخلال جيل من الزمان قسمت الدولة الفرنجية على

النمط المبروفنچى ، وكل ما تبقى ليضمن بقاء الوحدة هو اللقب الامبراطورى الذى احتفظت به إحدى الممالك التى انقسمت إليها الامبراطورية ، إلى جانب النظرية التى تقول إن الملوك يربط بينهم رباط من الاتفاق الأخرى للدفاع عن الكنيسة والدولة ضد كافة الأعداء . ولقد أنغى المعاصرون باللائمة على ضعف لويس الثقى وعلى طموح أولاده ، ولا شك أن هذه الأسباب قد عجلت فى عملية التفكك ولكن أسبابا أخرى لا تتصل بالاشخاص كانت تعمل عملها تدريجيا تحت سطح الحوادث .

(١) الأول كان بزوغ فجر القومية ، فقد انقسم رعايا الامبراطورية شمال جبال الألب إلى مجموعة جرمانية تقع خاصة شرق نهر الراين ، وإلى مجموعة رومانية يكاد يكون اتساعها مطابقا لمساحة فرنسا الحديثة ؛ أما إيطاليا فقد قطعت من المجموعتين جغرافيا لاختلاف الجنس واللغة والتقاليد السياسية . وفى معاهدة فردان (٨٤٣) ، التى تبدأ بها عملية التفكك السياسى ، لم تحترم هذه الاقسام الطبيعية إلا احتراماً جزئيا ، فملكة الفرنجة الشرقية كانت جرمانية كلية ؛ وملكة الفرنجة الغربية كانت تشمل الولايات الغالية الرومانية التى أخضعها كلوفيس ، وفيما بين هاتين المملكتين تقع المملكة الوسطى وهى الجزء الذى يختص حاكمه باللقب الامبراطورى والذى يضم إيطاليا وپروفانس وپرجانديا ، ووادى الموزل وجزءا كبيرا من الأراضى الواطئة . وفى كل مرة يعاد تقسيم

الأراضي بين الأمراء السكارولنچيين كانت خطوط التقسيم تقرب من حدود الدول الحديثة . وقد بقيت برجانديا وپروفانس وحدهما بعد سنة ٨٨٨ كتذكرة بالدولة الوسطى ، إذ تصبح إيطاليا دولة مستقلة وتغزو الولايات الشمالية (Lotharingia) مثارا للنزاع بين الفرنجة الشرقيين والفرنجة الغربيين ، وأصبح حكام الدول الجديدة يمثلون الشعور القومي والأمانى القومية ؛ ولم تكن تسمية لويس فى عصر متأخر بالألماني - وهو أول ملك من ملوك الفرنجة الشرقيين - بالتسمية التى لا سبب لها .

(٢) غير أن الشعور بالقومية فى عقول الناس العاديين لم يزد إلا قليلا عن الازدراء لأولئك الذين ينتمون إلى جنس آخر ويتكلمون لغة أخرى . وكانت القوميات على استعداد كاف للانفصال الواحدة عن الأخرى ؛ وما أن تم هذا حتى انقسمت إلى مجموعات قبلية أو إقطاعية . فى ألمانيا تجمع السكسونيون والصوابيون والبافارليون والثورنچيون والفرنكونيون حول زعماء محليين . وفى غرب الراين حيث أضعف الحكم الرومانى الشعور القبلى منذ زمن طويل ، نستطيع أن نرى تميزا بينا بين شمال غالة وجنوبها ، ولكن فى كل شطر من شطرى الدولة بقى المبدأ الإقطاعى القوة الغالبة ؛ ومن منتصف القرن التاسع نلاحظ تكوين تلك الإقطاعات المقسمة تقسما عرفيا والى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ فرنسا . على أننا سنتكلم عن الحركة الإقطاعية فى مكان آخر .

(٣) وأخيرا يجب أن نأخذ فى حسابنا اختفاء ذلك الحماس

الأدبى الذى بثه شارلمان فى رعاياه . فنظريته عن الامبراطورية كانت كبيرة جدا بحيث يصعب فهمها على أصحاب العقول الضيقة ، الذين لم يكن فى استطاعتهم استجلاء أى منطق فيها . لقد كانوا شديدى الشعور بالتضحيات التى تطلبها الامبراطورية فى الحاضر ، وكانوا فى شك من المزايا التى وعدتهم بها فى المستقبل . ففكرة العمل من أجل الأجيال المقبلة من الطبعى ألا تخطر على بال الأقوام الشبه متحضرة فهم يعيشون ليومهم لا يدرون من أمر غدهم شيئا ، وكانوا منهمكين باستمرار فى صعوبات الساعة ومشكلاتها ، وكانوا يعتقدون فى الصدفة أو الحظ أو العناية الآلهية ويتحدثون عن التبصر الإنسانى باعتبار أنه ادعاء أو مجرد عبث . وقد حرص على البرنامج الامبراطورى ودافع عنه علنا حفنة من سياسى رجال الدين ولكنهم لم ينجحوا فى تحويل الكثيرين إلى الأخذ بأرائهم التى نادوا بها . ولما خلع آخر الأباطرة الكارولنجيين عن العرش سنة ٨٨٧ صاح رجال الدين صيحات الحسرة والنحيب ، بينما لم يحرك السياسيون من رجال الدنيا ساكنا لايقاف عملية التفكك . وقد نجح الامبراطور شارل السمين (Charles the Fat) - لمجرد أنه عمر طويلا - فى توحيد كل ممتلكات أسرته تحت حكمه المباشر ، غير أنه فى ثلاث سنوات بلد كل احترام كان لا يزال باقيا للملكية التى كان يمثلها . وعلى حد قول مؤرخ تلك الفترة : «إن حفنة من صغار الملوك ظهرت فى أوروبا . وقد كان المطالبون بالعرش هم من طبقة كبار رجال الإقطاع ، فثلا من بين الفرنجة

الغربيين كان الكونت ايود (Eude) - حاكم باريس - هو الذى قبض على التاج الملكى ؛ بينما انتخب الفرنجة الشرقيون أرنولف (Arnulf) - دوق كارنثيا (Carinthia) - وأضحت إيطاليا محط نزاع بين حكام سبولتو وفريولى ، أما برجانديا فقد قسمت بين أسرتين من الأسرات المحلية .

ومع ذلك فى خلال مائة عام ظهر رد فعل لإعادة الامبراطورية ، وكانت ألمانيا هى رسول هذا الاتجاه الذى قبلته إيطاليا والذى جعل الكثيرين يتحولون إليه فى فرانكيا الغربية . وكانت هناك أسباب جديدة كافية للرجوع إلى النظام القديم ، فالحكومات القومية التى قوضت الامبراطورية الفرنجية لتوسيع دعائم امتيازاتها الدينية ونفوذها قد اكتشفت أنها قد أقامت ملوكا من الاقطاعيين النهمين بدلا من ملوك لا حول لهم ولا قوة . فضروب الظلم والاختصاب التى يقوم بها إمبراطور - مهما عظمت - كانت تعد شيئا تافها إذا قورنت بالسلب والنهب اللذين باشرهما الاقطاعيون الجدد بلا رادع من قانون . ثم أن الملوك الذين ينتخبهم كبار أتباعهم كانوا من الضعف بحيث لا يملكون نفعا ولا ضرا ، ولم يكن لدى الطبقات الدنيا من عامة الناس ما يحملها على الرضى بالنظام الجديد الذى كان المالك الصغير مضطهدا فى ظله والفلاح مستعبدا والتاجر منهوبا ومسجوناً حتى يدفع القدية . وكانت الحرية التى تتمتع بها الطبقة الارستقراطية مصدرا لبؤس سائر الطبقات وشقاؤها فهولاء الطغاة قضوا حياتهم فى قتال حزبي مميت ؛ وأسوأ من هذا كله أن إنقساماتهم

وانهما كهم فى مشروعات تافهة لبناء عظمتهم الشخصية تركت أوروبا نهبا لغزاة لا يرحمون ؛ فى القرنين التاسع والعاشر تعرض المجتمع الوسيط لنفس المحنة التى عانتها الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس فن: الشمال ومن الشرق بدأ جيل جديد من المتبريرين يشعر بعلامات الضعف فى أوروبا فأخذ فى الاندفاع خلال الحدود بحثا عن الغنائم وسعيا وراء الاستقرار . وقد جاء أولا النورمانيون من النرويج والدانيمارك ، وكانوا لا يحارون فى البحر - مثلهم فى ذلك مثل سكسونى القرن الرابع - فتنقلوا بسفنهم من نقطة إلى أخرى بسرعة لم تستطيع معها القوات البرية من اللحاق بهم ؛ وقد كانت الأنهر الكبرى بالنسبة إليهم بمثابة الطرق الطبيعية ، وإذا أصابتهم الهزيمة على البر ، التجشوا دائما إلى سفنهم فى أمان . ، وكان عقد المعاهدات معهم أو عرض الأموال عليهم عديم النفع . أما الفايكنج (Vikings) فقد جاءوا فى جماعات عملت منفصلة أو اتحدت فى سنة لتتفرق ثم تعيد تكوين اتحادها فى السنة التالية ، ولم يكن فى استطاعة زعيم من زعمائهم أن يفرض رأيه على آخر ، وكان شراء أسطول من أساطيلهم لا يعنى سوى دعوة أسطول آخر . بدأ أولئك القراصنة فى إزعاج الجزر البريطانية وفريزيا (Frisia) قبل وفاة شارلمان ، ولكن عقب التقسيم الأول لامبراطوريته انقضوا على طول الساحل من نهر الإلب إلى جبال البرانس . وقد جاءوا فى الأصل بأمل الذهب والاسب ولكن سرعان ما تحول هدفهم إلى الغزو ؛ وعند نهاية القرن

التاسع حينما توقف بغتة سيل الهجرة المسلحة. من الشمال بقيت الأقاليم التي استقر بها الدانيون في إنجلترا (Danelaw) ، ونورمانديا في الناحية الأخرى من بحسر المانش ، مستعمرتين أجنبيتين اضطر الحكام في إنجلترا وفي فرنسا إلى الاعتراف بهما .

إن ما نزل بغالة من تخريب على يد النورمان كان أشد وطأة مما نزل بغيرها ولو أن فريزيا والولايات المجاورة لها قد استهدفت عدة سنوات للخراب والدمار . أما ألمانيا وإيطاليا فكان لهما أعداء آخرون يهددونهما ؛ ففي سنة ٨٦٢ ظهر خطر جديد على حدود بافاريا يتمثل في الهنغاريين وهم أقوام آسيويون أتوا من المداخلات الشمالية لجبال الأورال وأخذوا في التحرك غربا من مطلع القرن التاسع ، وقد شبههم المعاصرون بالهون ، ولم يكن هذا التشبيه مجرد تشبيه سطحي ، فهم من جنس التتار ، رحل عاشوا على الصيد والحرب ، وكانوا مهرة في ركوب الخيل وفي رمي النبال إلى جانب أنهم في الدرك الأسفل من التوحش والقسوة. وكانت سرعة حركاتهم والمسافات التي امتدت إليها إغاراتهم فوق ما يتصور . وفي سنة ٨٩٩ اكتسحوا إقليم الحدود الشرق (Ostmark) حتى وصلوا سهل لمبارديا . وفي سنة ٩١٥ خسروا برمن (Bremen) ، وفي سنة ٩١٩ أنزلوا الخراب والدمار بكافة أنحاء سكسونيا ، ثم اخترقوا المملكة الوسطى، وفي سنة ٩٢٦ اقتحموا تسكانيا وظهروا في ضواحي روما ؛ بل ووصلوا إلى أسوار كاپوا (Capua) في سنة

٩٣٧ . وإلى أن سجل أوتو الأول (Otto) في سنة ٩٥٥ انتصاره العظيم عليهم في موقعة لخفلت (Lechfeld) ، كان الهنغاريون في الواقع يمثلون الرعب في ثلثي أوروبا المسيحية . أما إيطاليا التي كانت أشد الممالك الجديدة انقساماً فقد أزعجها أيضاً القراصنة العرب الذين جالوا في غربي البحر المتوسط ، وكانت أساطيل الإمبراطورية البيزنطية هي القوة البحرية الوحيدة التي تستطيع نزالهم ، وقد حمى الأسطول البيزنطي الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية . ولكنه عجز عن انقاذ صقلية التي غزاها العرب فيما بين سنة ٨٢٧ وسنة ٩٦٥ . وفي الشمال كانت الموانئ أمالفي (Amalfi) وجايتا (Gaeta) ، وناپولي (Naples) . وسالرنو (Salerno) ، تدفع الجزية . أو تسمح ببقاء حاميات عربية . وفي سنة ٨٤٦ . أنزل القراصنة العرب التخريب بميناء أوستيا (Ostia) والمدينة البابوية بروما (Leonine City) بما فيها كنيسة القديس بطرس ؛ وأسس أولئك القراصنة مستعمرات على نهر جاريليانو (Garigliano) وعند لاجارد فرينيه (La Garde Frainet) وهي نقطة اتصال إيطاليا بمقاطعة پروفانس .

إن الأثر الذي أحدثته هذه الكوارث في عقول الذين نزلت بهم لم يكن أشد وضوحاً في منطقة من المناطق أكثر مما كان في إنجلترا ، حيث استطاع بيت الفرد (Alfred) - خلال قرن من ذلك - التقسيم الذي اتفق عليه في صلح ويدمور (Wedmore) سنة ٨٧٨ .

بين الممساكة السكسونية الغربية والدانين - استطاع أن
يؤسس مملكة ليست وثيقة الارتباط ولكنها كانت أكثر بقاء
وأكثر تنظيماً. مما كانت عليه أى قوة ظهرت فى بريطانيا منذ
الفترة الرومانية . وفى ألمانيا استطاع الفرع السكسونى -
ابتداء من هنرى الصياد (٩١٩ - ٩٣٦) - أن يجعل اللقب
الملكى وراثياً ، وأن يفرض حكماً نافذاً على الادواق القبليين
الآخرين . وفى فرنسا دُعيت الأسرة الحاكمة فى باريس -
بعد حكم دام سنوات عديدة باسم فرع منحل من فروع
الأسرة الكارولنجية - دُعيت فى شخص هيو كاييه لتولى
الملك سنة ٩٨٧ . ونحن هنا بصدد حركة أوربية تنزع إلى
الملكية ؛ وفى أعقابها تلتها حركة أخرى لإعادة الامبراطورية .
وقد أتت الأمرات الملكية الجديدة بأعمال طيبة ، وحتى
أضعف تلك الأسرات - وهى الأسرة الفرنسية - كانت
بمثابة رمز للاتحاد ، ونقطة التجمع ، جمعت حولها رجال
الدين وسائر عجي السلام الآخرين ؛ غير أن تلك الملكيات
لم تحقق فى النواحي العملية والعاطفية كل الرغبات ، فالملكية
القومية كانت تعنى حروباً قومية وتعنى حق الكنائس القومية
فى أن تحكم نفسها حكماً سيئاً وفقاً لميولها المتعددة . وبمرور
الزمن ازداد التباعد بين الممالك المسيحية الواحدة عن الأخرى ،
وأخذت الوحدة السياسية فى الاختفاء وسرعان ما انتهت الوحدة
الدينية إلى نفس المصير . ولم يكن يروق للقب الملكى الخليل
أو الضمير إلا قليلاً ، فأياً كانت الطقوس التى يتم بها تنصيب الملك

فقد كان مصمداً لـ قوته الحقيقية المركز الذي شغله مستقلاً عن وظيفته وهو مركزه باعتباره زعيم مجموعة قبلية أو إقطاعية ؛ وبعبارة أخرى - كما جاء في إشارة سانت أودو (St. Odo) الصارمة - مركزه باعتباره زعيماً لرجال كانوا مضطهدين فاستظلوا بحماية لورد حتى يتمكنوا بمساعدته من أن يضطهدوا الآخرين . لقد فقدت قوة الملكية كل سمو وكرامة ، إذ ضلت الطريق لخدمة أغراض نافهة ؛ وكان الأمر يحتاج إلى امبراطور ليعيد شعوراً أسمى بالعدالة ويعلى شأن جانب الحياة الروحي فوق الجانب المادى .

هكذا فكر المثاليون ، ووجدت آراؤهم محبّدين في ألمانيا ؛ وقد يظهر هذا غريباً ، إذ أن ألمانيا كانت أول من نبذ الامبراطورية الكارولنجية ، ولم يكن هنرى الصياد الذى أسس الملكية الألمانية مثالياً . ولكن الحقيقة هي أن الدستور الخاص بالملكية الألمانية والمشاكل الخاصة التى أثارها التوسع الألماني صوب الشرق كانت على نحو يجعل السياسة المثالية هي أسلم الطرق ، ومع أن هنرى الصياد قصر اهتمامه على المشاكل الألمانية ، فقد وجد ابنه أوتو الأول - الذى سار على نفس سياسته - وجد نفسه منساقاً مع تيار الحوادث الطبيعية فعبر جبال الألب واستولى على إيطاليا وأخذ التاج الامبراطورى من بين يدي البابا .

وهنرى الصياد - الذى انتخب بعد تسعة عشر عاماً من الملكية الاسمية والفوضى الضاربة الاطناب - حدد مركزه بعقد عدة موافق مع الادواق الكبار ، فأصبحت سوابيا وبافاريا

ولوثارنجيا إمارات تابعة للتاج وحكامها يحضرون المجالس الوطنية. (National Diets) ، ويحضرون إلى المحكمة أحيانا ، ويؤدون الخدمة العسكرية أحيانا أخرى . ونحت حكمهم تعمقت جنود الاقطاع الحديد ونما كنظام قانوني ، ونال هذا الاقطاع تشجيعهم باعتباره الوسيلة لخلق جيوش تستخدم في غرضين هما الدفاع واتباع سياسة خارجية مستقلة . وفي داخل نطاق حدود الدوقيات لم يكن هنرى إلا نفوذ ضعيف فيما عدا كونه ربيب الكنيسة . وقد طالب بحق تعيين الاساقفة — ولو أن هذا المطلب لم يسر في بافاريا حتى حكم خلفه — وكانت المؤسسات الدينية تنال امتيازاتها منة منه، وكانت المجالس الدينية التي تضع نظمها بموافقة أهم من المجالس الوطنية التي تتكون من رجال الدنيا والدين على حد سواء . إن سياسة هنرى العامة كانت محل رضى بالنسبة لرجال الدين أكثر مما كانت للبقية الباقية من أتباعه ، وكان تأكيد سيادته على لوثارنجيا سنة ٩٢٥ وعلى بوهيميا سنة ٩٢٩ ، وهزيمة الهنغارين في موقعة أنشروت (Unstrut) سنة ٩٣٣ — كانت كل هذه أعمالا وطنية جليلة ، غير أنه قبل هذه الموقعة بشع سنوات ترك الملك الهنغارين يفعلون ما يحلو لهم في بافاريا وسواها بعد أن عقد معهم ميثاقا منفصلا ضمن به سلامة دوقيته . على أن هنرى استغل هذه الفترة في بناء مدن قوية للدفاع عن سكسونيا ، وفي بسط النفوذ السكسونى على براندنبورج (Brandenburg) ولوزتس (Lausitz)

وشتريلتز : (Strelitz) وشلزفج (Schleswig) ،
ولا يمكن أن تسمى كل هذه الأعمال خدمات وطنية إلا على
فرض أن التاج سيقى ملكا وراثيا فى بيته ؛ ولكن الملكية
الحرمانية كانت انتخابية . على أية حال لم يكن هناك شئ
أجبر بالترحيب لدى الكنيسة من فتوحات اكتسبت على
حساب الوثنيين من سلاف ودانين ، وفى نظر الكنيسة كان
هذا السيامى السكسونى رسول الديانة المسيحية فى مناطق
أوروبا المظلمة . لكل هذه الأسباب إذن ، ظل نفوذ هنرى
وخلفائه قوة ترتكز على التعصيد الدينى ، ولا شك أن تقوية
التحالف بين الكنيسة والدولة هو ما يجب أن يكون الهدف
الأول لأى حاكم سكسونى .

ولعدة سنوات عقب تولية أوتو الأول العرش فى سنة ٩٣٦ ،
لم يكف المطالبون بالعرش من أسرته عن إزعاجه ، إذا انضم
هؤلاء المطالبون إلى دوق أو أكثر من كبار الادواق ، فهدد
الباغار يون بالانفصال وتكوين دولة مستقلة ؛ وثار الفرائكونيون
حينما أثبتت مشروعية حقهم فى شئ حروب خاصة ؛ ودبر
اللوثرانجيون المكائد ليكونوا من أنفسهم دولة وسطى مستقلة .
لقد وجد كل هؤلاء الساخطين من السير عليهم أن يتدخلوا
أخا أو ابنا للملك زعيما اسميا لهم . وحتى عندما وضع أوتو
كل الدوقيات فى أيدى من تربطه بهم قرابة أو علاقة ظل نفوذه
مزعزعا ؛ ذلك لأنه طالب بحقوق جديدة آذت شعور الاقطاعيين
وأهل الولايات على الرغم من أن هذه الحقوق كانت ضرورية

لتوطيد النفوذ الملكي ، على حين طالب الأذواق الذين عينهم .
أوتو بحقوق أسلافهم . واعتبروا أنفسهم ممثلين لمصالح رعاياهم .
لقد كان من الضروري . أن يحصل الملك على مساعدة رجال
الدين في هداية الرأي العام في ذلك الحين أكثر من أى وقت
مضى ، ولكن في أخرج فترات . حكم أوتو (٩٣٥ - ٩٥٥)
ألقى فردريك ، رئيس أساقفة ماينتس (Mainz) ، بنفسه
وبسمعه الشخصية العالية لنصرة قضية الثوار ، ومن
الناحية الأخرى وجد أوتو أن رجال الدين هم أول المعارضين
في مشروع كان حريصا على تنفيذه . وكانت البعثات التبشيرية
المنظمة من بين الوسائل التي اعتمد عليها أوتو في نشر الحضارة
وتوسيع رقعة الفتوحات التي قام بها والده في الأراضي السلافية .
ومن أجل هذا وضع أوتو خطة بموافقة البابا في روما ، يجعل
ماجديبورج (Magdeburg) أسقفية وعاصمة لولاية سلافية .
وفي سنة ٩٥٥ عارض هذا المشروع معارضة شديدة كل من
أسقفيتا ماينتس وهالبرشتات (Halberstadt) على أساس أن
ذلك سوف يحد من اختصاصاتهما وبذلك ذكر أوتو بحجة
مرتين أن نفوذه على الكنيسة الألمانية لم يكن كاف لتنفيد مآربه .
وفي تلك الأثناء ، أفضى مجرى الحوادث إلى تدخل أوتو
في السياسة الإيطالية . كان هيو بروفانس (Hugh of
Provence) وهو مغامر من أصل كارولنجي - قد
استولى على المملكة الإيطالية في سنة ٩٢٦ . وعند وفاة رودلف
الثاني البزجندي في سنة ٩٣٧ ، أعد هيو العدة للاستيلاء على

ذلك الميراث الشاغر . ولكن أوتو أفسد عليه تدبيره إذ اضطلع بالوصاية على الوريث الشرعى لبرجانيا و هو كونراد الصغير ؛ إذ لو اتخذت إيطاليا وبرجانيا تحت حكم ملك واحد لاصبحتا جارا خطيرا للمملكة الألمانية . على أية حال ، حصل هينز لابنه لوثير على يد أدليد (Adelaide) شقيقة كونراد ، فأبقى بذلك حقوق أسرته للمطالبة بها فى المستقبل . وبعد ذلك بفترة قصيرة رد أوتو على ذلك بأن بسط حمايته على غريم هيو الايطالى برنجر (Berengar) حاكم فريولى ، الذى أتى إلى بلاط سكسونيا وغدا مواليا للملك الالمانى . وفى سنة ٩٥٠ اكتسبت تلك العلاقة فجأة أهمية سياسية بموت كل من هيو ولوثير على غير انتظار ، وبتولى برنجر عرش إيطاليا . ولما دُكر يمين الولاء الذى أقسمه لأوتو ، نبذ الملك الجديد التزاماته باعتباره فصلا ، ثم أمعن فى تحديه بإساءة معاملة أدليد ، أرملة لوثير ، وبذلك تسلم أوتو بسبب مزدوج لشهر الحرب على برنجر ، كما اضطر أيضا للحرب من جراء أطماع شقيقه هنرى ، دوق بافاريا ، وابنه ليوتولف (Liutolf) دوق سوابيا ، فكلاهما كان يطمح فى تولى عرش إيطاليا التى كانت فى يأس من الانقسام وفريسة سهلة للوقوع فى يد أول قادم إليها . وفى سنة ٩٤٩ استولى دوق بافاريا على أكويلايا (Aquileia) ؛ وفى سنة ٩٥١ عبر دوق سوابيا جبال الالب متظاهرا بمساعدته لأدليد . ولم يكن فى وسع أوتو أن يظل ساكنا ، بينما أخذ

تابعان من رعاياه وأبناء بجلدته في التطاحن على الفوز بإيطاليا .
فما كان منه إلا أن جمع جيشا واقتفى أثر ليوتولف فهرب
برنجر وتصافى الدوقان مع ملكهما واضحى أوتو صاحب الأمر في
مملكة إيطاليا سنة ٩٥١ .

ولو واثت الفرضة أوتو ، لكان من الخائز أن يتوجه فورا
إلى روما ليتزوج إمبراطورا ، ولكن البابا - وهو الوحيد الذى
يستطيع تنويجه ، كان صنعة حزب رومانى يرأسه البرك
(Alberic) ، وهو عضو السناتو الذى كان يطمح فى
إقامة صرح سيادة دنيوية تقوم على قاعدة السيطرة على البابوية ،
فلم يدع أوتو لزيارة روما ، وبعد تردد قليل قرر أوتو أن يعيد
برنجر إلى العرش بشرط أن يحدد الأخير بين الولاء ، بدل أن يضطلع
هو نفسه بواجبات عديمة الجدوى باعتباره ملك إيطاليا . ولعل
هذا الترتيب قصد به أن يكون مؤقتا ، إذ كان أوتو لا يزال
مهددا بالموامرات فى ألمانيا ، وقد يفلح برنجر فى حراسة إيطاليا
من أطماع الادواق ، إلى أن تصبح يد سيده طليقة للعمل
فى المشروعات الإيطالية . وقد برهنت الحوادث التالية على
صحة هذه الافتراضات ، ففى خلال بضعة سنين زالت المصاعب
الرئيسية التى كانت تواجه أوتو ، إذ انهارت ثورة قام بها
الادواق وهزم الهنغار يون هزيمة ساحقة عند تلخفت سنة ٩٥٥
حتى أنهم انقطعوا عن إزعاج ألمانيا . وخلص الموت أوتو من
أخطر غرمائه وهو فردريك رئيس أساقفة ماينتس ومن ابنه
الدوق ليوتولف ، ثم وهبت الدعوة التى طنال تأخيرها

من روما سنة ٩٦٠ ، فقد طلب يوحنا الثاني عشر - وهو قى داعر فى الثانية والعشرين من عمره وابن ألبريك المتوفى سنة ٩٥٤ ولكنه يفتقر إلى مقلدة أبيه - طلب العون من ألمانيا لحماية ممتلكاته للدنيوية من برنجر ، فما أحتاج أوتو إلى نداء آخر يوجه إليه ، فأنحدر إلى إيطاليا وطررد برنجر ، وتقلد تاج إيطاليا فى ٩٦١ سنة ، ثم تقدم إلى روما ، حيث توجه البابا سنة ٩٦٢ سيدا على الامبراطورية الرومانية المقدسة للشعب الالمانى . وسواء كان خيرا أو شرا فقد ارتبط امتياز شارلمان ارتباطا لا ينقسم بالملكية الالمانية .

ومن سلسلة الحوادث المعقدة هذه نستنتج بعض النتائج الهامة : فالامبراطورية التى كثيرا ما اتهمت بأنها مصدر نكبات لا حصر لها لالمانيا ، قد بعثت لمصلحة سياسية ألمانية خالصة . وعلى خلاف ابنه وحفيده لم يخضع أوتو الأول أبدا لسحر إيطاليا ، فنذ أيام شارلمان أصبح من المستحيل أن ينال تاج الامبراطورية أحد إلا على يدى البابا ، ولا يتقلده سوى ملك إيطاليا . ولم يغال أوتو فى تقدير أهمية ممتلكاته الايطالية ، ولو أن الظروف اضطرتة إلى البقاء فى إيطاليا خلال فترة طويلة من سنى حكمه المتأخرة . ولقد دار بخله أن ينزع أبوليا وكالبريا من البيزنطيين ، وصقلية من العرب . غير أنه تنحى عن مطالبه قبل الامبراطورية الشرقية كثنم لخلاف يأتيه عن طريق الزواج ، كما أنه ترك صقلية دون مساس .

لقد كان تاج إيطاليا عظيم القدر لديه بنوع خاص إذ بدونه لما استطاع أن يرقى لمنصب الامبراطورية . ولم يكن أوتو عديم الاهتمام بالواجبات الدينية لهذا المنصب ، فالأساقفة وإن استخدموا بكثرة في الوظائف الادارية إلا أنه روعى في اختيارهم أن يكونوا أكفاء للقيام بواجباتهم الروحية . ولقد كان أوتو معضدا للحركة الكلونية التي كانت تهدف إلى إصلاح الديرية . ولكن من الواضح أنه لم يقم بزيارة روما تنفيذا لأية خطط من أجل تطهير الأداة البابوية ، فنقائص يوحنا الثاني عشر كانت معروفة ولكن باعتباره البابا الذي يستطيع تقليد الملوك تاج الامبراطورية قانونا ، كان لا بأس به لقضاء غرض أوتو . ولم يعزل يوحنا ليعين مكانه خلفا له يتمتع بسمعة طيبة سنة ٩٦٣ إلا بعد ندم يوحنا على اتفاهه معه وانقلابه خائنا له . وكان خلف يوحنا رجلا دنيويا حتى وقت انتخابه بابا ، إذ عني أوتو عناية خاصة بتعيين من يكون جديرا بثقته من أبناء جلدته وقد ظلت هذه السياسة هي السياسة السكسونية إلى أيام حفيده .

كان أوتو يشعر بجلال منصبه وبما يستطيع هذا المنصب أن يحقق له من مطالب وأطماع كبيرة . لقد أبان للعالم الحماية الكريمة التي أسبغها على الحاكين الصغيرين لبرجنديا وفرنسا ، وأصر على أن يقدم دوقا بولندا وبوهيميا ولاعهما له ، وعقد مجالس تحوطها العظمة احتفالا بمركزه الجديد ، وبذل جهودا عظيمة للفوز باعتراف البلاط البيزنطي . غير أن مطامح أوتو كانت في جوهرها مطامح ملك ألماني وطني ، فهو قوي

الشعور بالحقائق ويستطيع النتائج المادية استجابة قوية ؛
فن البداية إلى النهاية تركزت أفكاره في مشاكل وطنه :
وهي توسيع حدوده الشرقية ، والتحالف مع الكنيسة وإدارة
الدوقيات - هذه كانت أعماله الرئيسية . كما كانت مطامحه
الأساسية . ولكن أوتو أقام بناء يفوق ما كان يتوقع واكتسبت
الامبراطورية قبل وفاته دلالة أنبل مما كان يظن .

لقد أتى أوتو الأول أعمالا يحلوها الخلق والمهارة بدليل أنها
عاشت بعد مهازل ابنه وحفيده ؛ ففي فترة العشرين سنة التي أعقبت
وفاته سنة ٩٧٣ ، كان حكام الامبراطورية المتوجون صبية
وأوصياء على العرش من النساء . وفي روما كما في ألمانيا على
الحدود الغربية والشرقية استجمع المنافسون المغلوبون على
أمرهم وكذا كل الأحزاب التي كانت قد باءت
بالهزيمة - استجمع أولئك وهؤلاء شجاعتهم وهمسوا
بمحاولة للفوز بالنصر ؛ وقد اقتسمت الامبراطورية العجوز
أدليد وزوجسة ابنا الامبراطورة ثيوفانو (Theophano)
الإشراف على الإدارة أو تطاحتا عليها إلى سنة ٩٩١ . ومنذ
ذلك التاريخ حتى سنة ٩٩٨ تحررت الامبراطورة أدليد
من تدخل ثيوفانو بوفاتها فتمتعت بنفوذ كبير ، ولو أن هذا
النفوذ كان آخذا في التقلص . على أن أيا من الامبراطوريتين
لم تكن أهلا لمعالجة مشاكل الموقف المعقدة ؛ فأدليد ولو
أنها كانت مخلصه للنظامم الألمانية التي كانت لزوجها ،
كان التحزب الشخصي رائدا في اختيار وزرائها . أما ثيوفانو

رغم أنها ذات مقدرة ملحوظة ، فقد أحترقت التعقيدات المملة التي انطوت عليها السياسة الألمانية ، وأقنعت كلا من زوجها وابنها على اعتبار إيطاليا أحق الميادين التي تتسع لأوجه نشاط الامبراطور ، وهناك تطلعت ثيوفانو إلى روما وإلى الجنوب لا إلى لومبارديا . لقد استطاع حزب الكنيسة في كل من ألمانيا ولومبارديا أن يبق على صدق ولاء رعايا الامبراطورية في تلك السنوات . أما الأدواق الألمان فلم يظلوا على عدم اكتراثهم بالأمور ، ولكن السوابق التي وضعها أوتو الأول برهنت على عظم قدرها عندما احتاج الأمر من ولده أن يواجه ثورة أو سنحت له الفرصة لتعيين دوق في دوقية شاغرة .

أن اللوم الذي يوجه إلى أوتو الثاني والثالث بسبب أطماعهما الخيالية يقع عادة على عاتق ثيوفانو تلك الرسول الذكية المتألقة ، رسول الثقافة البيزنطية والآراء السياسية البيزنطية . غير أن التأثير الذي أضل حكمهما على الأشياء إلى أن أصبحا مثلا سيئا في أوروبا لم يكن ملموسا . كما لمست إرادة امرأة قوية مسيطرة . لقد ولد هذان الامبراطوران في البواكير الأولى لعصر النهضة الوسيطة عندما أخذ حب الاستطلاع في الاستيقاظ وتحمس الناس لدراسة الفلسفة والعلوم والأدب اللاتيني ولكنه حماس يفتقر إلى روح النقد ، وكان فيه الخطيب والسفسطائي ملوكا غير متوجين بين الأذكاء . أما الفلسفة فكانت لا تزيد عن المنطق المدرسي مأخوذا عن فلسفة أرسطو بطريق غير

مباشر، وكانت العلوم خليطاً: متنافراً من التجارب العملية والأراء القديمة المتوارثة ، ثم أن الدراسات اللاتينية — بغض النظر عن استخدامها مصدرًا للكنايات والشائع من المعاني والعبارات — لم تنجح إلا في بعث مهابة وهمية في أذهان الناس نحو روما القديمة . وكان أوتو الثاني وولده من التلاميذ السذج لهذه الدراسات الجديدة ، ولم يكن بوسعهما إلا أن يظهرًا إعجابهما . المنقطع النظر بجربرت (٩٤٥ — ١٠٠٣) (Gerbert) . العالم الفذ وأقدر معلمي عصره . لقد استمع أوتو الثاني وبلاطه : الساعات الطوال بينما كان جربرت يجادل عالماً آخر من سكسونيا . في تقسيم الفلسفة . وأنواعها . وقد دعا أوتو الثالث . جربرت للمجيء إلى بلاطه لصقله من « الخشونة السكسونية » (Saxon rusticity) ، وكان يغمر معلمه الرقيق الجانب بسيل من الأشعار اللاتينية ، ويستشير في شئون الدولة ، ثم عينه آخر الأمر في الكرسي البابوي . ولقد كان جربرت في الحقيقة سياسياً حصيفاً طموحاً ، فازت البابوية في عهده بقدر كبير من المديح والبناء . غير أن مواهب جربرت الهامة لم تكن لتجد لها فرصة للظهور لولا مهارته التي أبدتها في خدعة الزعة الكلاسيكية الكاذبة التي اصطنعها السكسونيون الأجلاف . . .

لقد أدار كل من هذين الامبراطورين ظهره إلى ألمانيا في أول فرصة سنحت ، وصادف كل منهما الحقيقة المرة في إيطاليا ووافت كل منهما المنية في سن مبكرة .

وأوتو الثاني — الذي نلمس في مثاليته أثراً محسوساً من مطمح والده

— كان يعد الخطط لغزو جنوب إيطاليا وصقلية ، ولم يكن المشروع غير عملي والدليل على ذلك تحقيقه على يد الطوهنتاوفن فيما بعد . وفي سنة ٩٨٠ كان هناك ما يبرر القيام بالمشروع باعتباره في مصلحة كل أوروبا المسيحية ، نظرا لظهور خطر جديد يهدد غرب البحر الابيض المتوسط إذ قامت أسرة جديدة من مغامرى المسلمين ، وهم الفاطميون ، في شمال إفريقيا وجعلوا من أنفسهم سادة على مصر سنة ٩٦٩ ، وقبل ذلك بخمس سنوات كانوا قد استولوا على صقلية ، وفي سنة ٩٧٦ أاروا وجهتهم نحو إيطاليا . وكان جنوب شبه الجزيرة الإيطالية مقسمين الى امبراطورية الشرقية وباندولف إيرنهد (Pandulf Ironhead) ، سيد كاپوا الذى أقام دكتاتورية مزعزة على انقاض القوتين اللومباردية والبيزنطية . ولم يكن في استطاعته حتى أن يواجه العرب في ميدان مفتوح ، وقد أعقب وفاته في سنة ٩٨١ تقسيم أراضيه وقيام صراع مرير بين أولاده . ولو لم يتدخل أوتو لكان هناك احتمال أن تصبح إيطاليا جنوب نهر جاريلىانو مستعمرة من مستعمرات الخلافة في القاهرة . على أية حال كان أوتو غير أهل لقيادة حملة صليبية ، فخبرته الحربية كانت مكتسبة من عمليات حربية تافهة ضد الدانين والسلافيين ومن حملة على فرنسا بدأت في غمرة من الحماس الكاذب وانتهت بهزيمة سنة ٩٧٨ . قاد أوتو — وكله ثقة بالنفس — قوة كبيرة إلى أبوليا ، بغية طرد البيزنطيين أولا ثم العرب بعد ذلك . استولى أوتو على بارى (Bari)

وتارانتو بلا صعوبة ، ولكنه ما أن دخل كلابريا حتى وقع في كمين نصبه له أمير صقلية . وعلى ساحة كولون (Colonne) في سنة ٩٨٢ . فقد أوتو زهرة جيشه ، وكاد أن يقع أسيرا لولا هروبه إلى مركب تجارية كانت مارة ، وفي السنة التالية توفي أوتو بينما كانت تجرى الاستعدادات في حماس كبير لمسح عار تلك الهزيمة . لقد ترك الأمر للبيزنطيين لصد العرب عن أرض شبه الجزيرة الإيطالية ، ولكن صقلية ظلت في قبضة العرب حتى مجيئ النورمان سنة ١٠٦٢ .

إن من الأيسر أن نوافق على سياسة أوتو الثاني أكثر من أن نوافق على الرجل نفسه . وإذا ما تحولنا إلى أعمال ولده أوتو الثالث انقلبت الآية . كان أوتو الثالث طفلا عند وفاة والده ، وانفك أسر الوصاية النسائية عليه سنة ٩٩٦ ، وقام بحملته الإيطالية الأولى كحاكم مطلق وهو في السادسة عشرة . ذهب أوتو الثالث إلى إيطاليا لتخليص البابوية من ربة حزب روماني وهو حزب يوحنا الثاني عشر السيئ السمعة ذلك الحزب الذي بدأ يقوى تحت قيادة زعيم جديد . ولقد استطاع الحاكم الصبي اخضاع الثائرين بقسوة لا مسوغ لها . ولكن أوتو لم يكن بلا أطماع نبيلة أو يفتقر إلى القدرة على استطابة طبائع أرفع من طبائعه . ولما دعي إلى تعيين بابا أختار أوتو ابن عمه برونو (Bruno) الذي كان يكبره قليلا ولكنه كان سياسيا مثاليا عول على تأكيد سلطان البابوية على الكنائس المحلية، ولم يكن مدفوعا في ذلك بدافع مصلحة الامبراطورية فحسب، بل بدافع

النظام والأخلاق .. غير أنه لسوء الحظ توفى برونو قبل أن يتمكن من أن يستأصل من أخلاق الامبراطور ضروب الضعف التي نماها فيه تملق المتآمرين وتعليمه الناقص . وقد شجع جربرت — الذى خلف برونو على عرش البابوية باسم سلفستر الثانى — تلميذه على حياة منعمة بألوان الإسراف الصياني ، فبينما أخذ البابا الجديد فى توسيع اختصاصاته وإعلاء منصبه ، كان الامبراطور الصغير يعد العدة لإحياء أمجاد القياصرة القدماء فى روما . وقد بنى أوتو قصرا على تل أفنتين ثم أنه حاكى رونق وبهاء البلاط البيزنطى وقلد رسمياته ، وابتدع أسطورة لتتقش على خاتمه وتاجه . وفى سنة ١٠٠٠ قام أوتو بحجة مهية إلى آخن (Aachen) وفتح قبضة شارلمان وبحجة أخرى إلى بولندا ليصلى عند قبر صديقه الشهيد القديس أدلبرت (St. Adalbert) فى جنسن (Gensen) . وفى أثناء ذلك أهملت مهمام الامبراطورية الخطيرة ، ولفظت الدول السلافية علاقتها بألمانيا ، وأهملت حراسة الحدود الشرقية . وحتى الرومان الذين كان أوتو الثالث يرعاهم كشعبه الخاص ، احتقروا تخيلات وأوهامه وقاموا بالثورة عليه ، فاستيقظ أوتو على الحقيقة المرة وشعر أخيرا بالفارق بين أحلامه ومركزه الحقيقى ، فترك المدينة الخالدة وهام على وجهه فى إيطاليا ثم توفى كسير القلب فى الواحدة والعشرين من عمره .

ومن الواضح أنه لن يكون من العدل أن نحكم على الامبراطورية الرومانية المقدسة التى أحيها أوتو الأول بالضلال والخلل العقلى

الذى يبعث على الأسف والسخرية والذى ارتكبه أوتو الثانى والثالث . وتمثل لنا حياتهما بشكل متطرف الوان الإغراء التى كان الامبراطور معرضا لها ، ولكن أيا منهما لم يدرك جوهر نظام الامبراطورية ، فالفكرة الحقيقية للامبراطورية غابت عن أذهانهما ولكنها لم تتأثر بفشلهما .

إن ما يبرر سياسة أوتو العظيم هو أنه أسبغ على ملكية قومية طابع المنصب الدينى والاحساس بالرسالة المقلسة مثله فى ذلك مثل شارلمان . ولكى نستطيع ما قام به أوتو من عمل عظيم ، نحتاج فقط إلى أن نقارن الملكية الالمانية كما كانت فى سنة ١٠٠٠ بعد أن اتلف جيل من سوء الحكم النموذج الذى وضع لها أصلا — نقارنها بملكية آل كاپيه فى فرنسا أو أسرة إيجبرت (Egbert) فى إنجلترا . إن الفرق ليس فى الحجم أو فى العظمة الظاهرة فحسب . لقد كانت الامبراطورية الرومانية المقلسة تمثل نظرية أعظم نبلا للواجب الملكى والواجب القومى .

الفصل الرابع الإقطاع

قبل شرح أصول الإقطاع وآثاره يجدر بنا أن نكون فكرة معينة عن النظام كما نجده في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، حينما كان الإقطاع هو الأساس الذي تقوم عليه الحكومة المحلية والقضاء والتشريع والجيش وكل السلطة التنفيذية . في تلك الفترة توصل رجال القانون إلى النظرية التي تقول إن أراضي الدولة جميعها إقطاع من الملك بطريق مباشر أو غير مباشر . فالملك نفسه هو كبير ملاك الأراضي ، يمتلك ضياعا مبعثرة في طول البلاد وعرضها ، والإيرادات التي تأتيه من تلك الضياع تكون الجزء الأكبر من دخله الثابت . والملك محاط بهيئة من كبار الإقطاعيين (Tenants-in chief) بعضهم أساقفة ورؤساء أديرة (مقدمون) وكبار رجال الدين من ذوي المراكز الأخرى ؛ وباقي تلك الهيئة تتكون من أدواق وكونتات وبارونات وفرسان . وجميع أولئك وهؤلاء سواء رجال دين أو دنيا ، ملزمون بتأدية خدمات معينة نظير ما يبدونهم من أراضي ، وأهم هذه الالتزامات هي الخدمة العسكرية فضلا عن تقديم نصيب محدد من الفرسان تكون عدته وعتاده — عادة — على نفقتهم الخاصة ، على أنهم ملزمون أيضا بدفع مساعدات مالية (Auxilia) في طوارئ

معينة ، وعليهم الحضور بانتظام إلى مجلس الملك والجلوس في محكمته كمشائرين . وهم يحوزون أراضيم في الواقع بناء على عقد ؛ ولكن الالتزامات المعينة المنصوص عليها في هذا العقد لا تستوعب كل علاقتهم بالملك ؛ فبمعنى غامض مرن ، تدن تلك الهيئة للملك بالاحترام (Obsequium) والولاء (Fidelitas) وعليها بذل كل ما تستطيع للمحافظة على مصالحه وإطراء مقامه . أما الملك فلزم من جانبه باستشارة تلك الهيئة مجتمعة في كافة الأمور الهامة ، وهو ملزم أيضا بتأييد كل فرد من أفراد تلك الهيئة فيما له من الحقوق والممتلكات التي منحه إياها . على أن هذه الروابط الشخصية غير المحددة لا يجب أن ينبذها أحد الطرفين بلا سبب شديد الخطورة كالحيانة العظمى أو الإهمال الشديد للواجب أو إساءة استعمال السلطة أو الامتياز .

ولدى كبار الاقطاعيين هؤلاء أقطاعيون دونهم في المرتبة (Subtenants) مرتبطون بنورهم بعقود وبالعلاقات شخصية مماثلة . وطاعة الاقطاعي الصغير الواجبة عليه لسيده المباشر ينبغي أن يحدها الاحتفاظ بالولاء الذي يدين به جميع أفراد الشعب للملك . وسواء كان هذا الاحتفاظ بالولاء للملك سيتحقق أو - إذا تحقق - سيكون له أى نتائج عملية فذلك أمر يتوقف على موارد الملك وعلى شخصيته . فإذا كان فعالا فيعنى أن الملك يستطيع أن يطلب من صغار الاقطاعيين أداء واجبات وطنية معينة ويستطيع استدعائهم للخدمة العسكرية ،

وأن يحاكمهم في محكمته ، وأن يفرض عليهم الضرائب بموافقة مجلسه أي بموافقة اللوردات ؛ ومن الناحية الأخرى فالاحتفاظ بالولاء يعني أن أولئك الاقطاعيين الصغار لا ينبغي لهم أن يدعوا أن أوامر اللورد تبرر محاربة الملك أو لإحداث أي تمكبر لصفو السلام العام . وحيثما اختفى واجب الولاء العام في زوايا النسيان فالقطاعي الكبير إن هو إلا ملك تابع غير متوج ، وتصبح الدولة الاقطاعية اتحادا يضم دويلات تحت حكم رئيس بالوراثة يقوم بالتوسط بين أعضاء الاتحاد أحيانا ويقودهم إلى الحرب أحيانا أخرى .

أما الأعضاء الآخرون في الدولة الاقطاعية فيتجمعون أو يضطرون إلى التجمع تحت ساطة أشخاص مختلفين في الحكومة الاقطاعية ؛ ففي الريف يقوم بفلاحة جزء من الأرض عدد قليل من المزارعين الأحرار الذين يدفعون لهذا اللورد أو ذاك إيجارا إما نقدا أو عينا أو في شكل خدمات . وهؤلاء المزارعون الأحرار - كالاقطاعيين الصغار - يقعون تحت اختصاص اللورد من معظم الوجوه ، ولو أن القضاة الملكيين في الدولة المنظمة تنظيما جيدا يحمون أولئك المزارعين الأحرار ضد ضروب القسوة الشديدة . أما الجزء الأكبر من الأرض فيقسم بين الجماعات القروية من الأفنان الذين يضطرون إلى تخصيص جزء كبير من أيام العمل لفلاحة أرض اللورد . إن قانون الاقطاع ينزع إلى معاملة أولئك الفلاحين كمبيد وإلى حرمانهم من التمتع بحق التقاضي أمام المحاكم الملكية ،

كما ينزع إلى اعتبار ملكيتهم للأرض رهن مشيئة اللورد .
غير أن اللورد في الواقع كان لا يستطيع الإصرار على مباشرة
كامل حقوقه التي يخولها له القانون ؛ فمع أن له الحق في استعادة
الفارين من خدمته ، إلا أنه كان من العسير تصيدهم ، ثم أن
اللورد كان يستطيع تحديد مقدار العمل الذي يتطلبه منهم ولكن
كان من الخطورة وعدم الجدوى أن يثير فيهم روح التمرد
والعصيان . واللورد - وهو القاضي الذي لا يستطيع إقنانه
الاستئناف ضد حكمه في المسائل التي تتعلق بما في حيازتهم من
أرض - يجد أنه من الفطنة وحسن السياسة أن يعقد معهم
عقودا معينة لا يتخطاها وتظل هذه العقود بلا تغيير من جيل
إلى آخر ؛ ومن ثم فإن حالة القن - ولو أنها شاقة - أقل
قلقله مما قد يفترض إذا ما درسنا الناحية القانونية التي تتعلق بهم .

فإذا ما تركنا الريف إلى المدن ، نجد أن جميع تلك المدن
تابعة للورد أو للملك ، وأن بعضها يضم جماعات من أقنان
نصف متحررة ، وأن السكان في البعض الآخر في نفس حالة
المزارعين الأحرار ، ونجد أن في قلة قليلة من الحالات - ولكنها
قلة مضطردة - حصل السكان على حق التعامل جملة مع
اللورد وعلى اعتبار هذه المدن قومونات أو مدنا حرة . وفي
هذه الحالات يقوم نوع من الحكم الذاتي الشعبي على رأسه
موظفون منتخبون . وعن طريق هؤلاء الموظفين تدفع المدينة
إيجارا معينة للورد السابق ، والمدينة عادة تطالب بحماية
الملك الخاصة ، وتغلو في مركز مماثل لمركز الاقطاعي الكبير .

وليس هناك مجتمع في روحه ونظامه أكثر عداوة للإقطاع من المدينة الحرة في العصور الوسطى ؛ ولكنها لا تستطيع أن تبقى في أمان إلا إذا حصلت على مركز معين في الحكومة الإقطاعية . وفي الحقيقة كان رجال الدين هم الطبقة الكبيرة الوحيدة التي نجحت في مقاومة النزعة العامة لتطبيق نظام الإقطاع على كل عقار ووضع كل رجل تحت سلطة لورد . وقد اضطر رجال الدين إلى التنازل عن امتيازات كثيرة حينما اقتضت ذلك روح العصر . ولم ينجح الأساقفة ورجال الدين من ذوى المناصب الأخرى في إقامة نوع من التمايز بين مركزهم ومركز كبار الإقطاعيين إلا بعد كفاح طويل مرير . ومع هذا فقد بقى القانون الذى يقول بأن الهبات الرئيسية لكل مؤسسة دينية هى إقطاعيات تخاز بمقتضى عقد خدمة إقطاعى . وكان الكفاح أكثر نجاحا ولو أنه لا يقل صعوبة ، هذا الكفاح المضاد للنظرية التى تقول بأن قس الأبرشية هو فصل أو تابع لسيده ، وباعتراف القس بواجباته كفصل ، يجوز له أن يتمتع بامتياز الفصل في أن يورث ابنه وظيفته .

هذا هو الإقطاع من الناحية العملية ، وهو كما نرى إنكار لكل ما نعتقد في أن له أكبر الأهمية في نظريات الدولة والمواطنة . وفي الحقيقة — ولو أنه ليس كلية من الناحية النظرية — يضع الإقطاع التزامات المواطن في المقام الثانى لتلك الالتزامات التى يأخذها الفرد على عاتقه بالإقدام على تعاقد اختيارى . وهذا العقد قد يبرم وقد لا يبرم مع حاكم الدولة ، وفي

غالبية الحالات يبرم مع مواطن آخر . ومع أن هذا العقد يحترم من الطرفين تبعا للآراء الجارية ، إلا أنه دائما ما يترك بعض الثغرات للسيد اللورد لممارسة سلطة استبدادية تخضع لأهوائه ، وهذا العقد يحدث تصدعا في حكم القانون ولو أنه لا يقضى عليه ، أضف إلى هذا أن أثر النظام هو إلقاء العبء الأكبر في الدفاع الوطني وفي الإشراف العام للسلطة الملكية في الدولة على عاتق طائفة محدودة بالوراثة من ملاك الأراضي ، فهبط مستوى الواجب العام، وغدت الحكومة إما استبدادية وإما أوليغاركية ، وفي كلتا الحالتين يقتصر اهتمام تلك الحكومة على مصالح طبقة تزدري الصناعة وتتمتع بامتيازات هي القاعدة الضرورية للمجتمع . وفي ظل النظام الإقطاعي كثيرا ما تمنح سلطات التاج - وهي السلطات التنفيذية والقضائية والإدارية - كامتياز لحائز الأرض مثلها في ذلك مثل الإقطاعيات التي تباشر عليها تلك السلطات .

وهكذا قام أسوأ أشكال الإدارة الحكومية فيما نعلم ، يقوم عليها مجموعة من الموظفين الذين يتوارثون وظائفهم ، وهؤلاء الموظفون من العسير جدا إيقافهم عند حد أو تنحيهم عن وظائفهم ، ولا يسألون حسابا عن الأموال التي يجمعونها تحت اسم الغرامات أو المستحقات ، ويندر أن يوجد بينهم المتعلم الذي يلاحظ أن الأمانة هي خير الطرق حتى لمصلحته الخاصة . ولو أن هذا النظام قد تطور إلى نهايته المنطقية ، ولو أن قواعد الحكم الإقطاعي لم تكن قد شذبت بالثورة من أسفل حيث الطبقات الدنيا. ومن أعلى حيث مصلحة الدكتاتورية لكان من الممكن

أن تنتهى إلى حالة من الامتيازات والفوضى إذا قورنت بها ألمانيا القرن الخامس عشر أو إيطاليا القرن الثامن عشر لعدت كل منهما جنة الأرض .

إن نفس عيوب النظام الإقطاعى على أية حال هى خير دليل على أن هذا النظام هو النتيجة الطبيعية المحتومة للتطور الاجتماعى ، فنظرية قانونية معقدة عافتها تقاليد الحكم الرومانى والحرمانى على السواء ما كانت لتتال الاعتراف العام كجزء من النظام الطبيعى للأشياء ، ما لم تكن قد نمت تدريجيا وما لم تكن نتيجة نظم وعادات ترجع إلى عهود أقدم منها . ثم أن شكلا من أشكال النظام الاجتماعى الخطر والمزمت إلى أقصى حد ما كان ليستمر قرونا ما لم يكن قد حل معضلات كبرى ملحة على وجه غير عادى . ولندرس الآن السوابق والمقدمات التى أدت إلى النظام الإقطاعى والأسباب التى بررت ذلك النظام .

قبل سقوط الامبراطورية الرومانية كانت واجبات الحكومات المحلية تتسرب من قبضة السلطة التنفيذية إلى أنحاء الامبراطورية ، وبموافقة الجهات الرسمية أو بدون موافقتها أخذ كبار الملاك الذين كانوا مسئولين عن الضرائب وعن الخدمة الحربية وعن حسن سير أتباعهم ، يضطلعون بحق نصريف الشئون القضائية . ولما أعاد الميروفنجيون تنظيم غالة ، استمرت هذه المحاكم الخاصة فى عملها ، بل واعترف بشرعيتها كلوتير الثانى (Clotaire II) فى سنة ٦١٤ كنظام ذى منفعة عامة . وهناك عدد معين من الضياع الكبيرة حصلت على اعفاء آخر بمنحها

براءات امتياز خاصة (Immunitas) وبمقتضى هذه البراءات يتمتع موظفو الحكومة عن دخول تلك الضياع بقصد القاء القبض على شخص من الاشخاص أو عقد جلسات للمحاكم أو جمع الغرامات أو جباية أموال الحجزات . وكان الملاك مرغمين على تسليم أى شخص متهم بارتكاب جريمة خطيرة ، وفيما عدا ذلك فقد حكموا بين الناس تبعاً لأهوائهم .

ونظام الإعفاء هذا قد اتسع كثيراً في أيام الحكام الكارولنجهين ، ولكن أدخل عليه تعديلات هامان ، أولهما أن هذا الامتياز لم يمنح لرجال الدنيا بعدئذ إلا نادراً بينما أغدق بسخاء على ضياع الأساقفة والبيوتات الدينية . وثانيهما أن رجال الدين الذين ييدهم تلك الضياع قد اضطروا لتحويل سلطاتهم التنفيذية والقضائية لغيرهم من رجال الدنيا (Advocati) الذين كانوا يختارون إما عن طريق السلطة المركزية وإما بطريقة ما من طرق الانتخاب المتواضع عليها . وكان الغرض من هذين التعديلين هو استخدام المحاكم الخاصة لإقرار النظام والأمن العام ، والحد من سوء استعمال امتياز خطير ، وجعله أداة مفيدة للسياسة الملكية . غير أن هذا المشروع لم يبق إلا نصفه بصفة دائمة .

وفي منتصف القرن التاسع عندما منحت كافة المؤسسات الدينية امتياز الإعفاء سمح الكارولنجهيون بتسرب حق اختيار رجال السلطين التنفيذية والقضائية من قبضتهم الضعيفة ، وبذلك بقى نظام الضياع المعفاة ولكن زال الإشراف الملكي

على حكوماتها الداخلية ، فغدت تلك الضياع إقطاعيات (Seigniories) تابعة لرجال الدين ، وأيا كانت الضوابط التي وضعت للحد من سلطة حكام تلك الإقطاعيات فقد جاءت من النبلاء المجاورين لهم أو من السكان التابعين لهم . ولقد كان ملاك الأراضي من رجال الدين يقفون إلى جانب صاحب التاج تارة لإحتراما للعرف والعادة وتارة بوازع من المصلحة الشخصية حتى في القرن العاشر عندما كانت أسهم الملكية منخفضة للغاية . ولكن كان لهذه المؤازرة ثمن لا بد أن يدفع ، فقد تأيدت الامتيازات القديمة بل وزيّدت بمنحهم سلطة التحكم في رقاب الناس بالحياة أو الموت . وهكذا ولدت تلك الطبقة من رجال الدين الذين كانوا بمثابة أمراء تمتعوا بسلطان يداني السلطان الذي تتمتع به كبار سادة الإقطاع الدينيين .

وبراعة الامتياز التي كانت تحظى بها ضياع رجال الدين في القرن التاسع كانت نموذجا للامتياز الذي يطمح إليه كافة ملاك الأراضي . ولكن كان على الرجل الديني أن يصل إلى مركز الحاكم الصغير عن طريق آخر . وهناك بصفة عامة مرحلتان لإجتازهما الرجل الديني للوصول إلى ذلك المركز ، الأولى : أن يغلو في مركز أحد مستأجري الملك ، يتولى الأرض نظير خدماته وولائه، والثانية : أن يحصل على قسط أكبر أو أصغر - انتدابا أو اغتصبا - من النفوذ الملكي يزاوله بين أتباعه .

(١) إن فكرة العقد الشخصي بين المحارب الحر وسيد

التي بها يضع الأول نفسه تحت تصرف الثاني ويعد بخدمته خدمة لا حلا لها ، لم ي فكرة انبثقت في كثير من المجتمعات البدائية ، وهي ليست مقصورة على فرع معين من فروع الجنس البشري . فقد لاحظ تاكيتوس (Tacitus) أن إحدى ظواهر الحياة الجرمانية في عصره هي وجود جماعة المحاربين الإحرار (Comitatus) الذين كانوا يعيشون في دار زعيمهم ويتبعونه إلى ساحة القتال ، وكان الاعتقاد أن آخر درجات العار هي رجوعهم أحياء من ميدان القتال الذي سقط فيه زعيمهم . وقد أبقى الملوك الميروفنجيون حرسا من هذا النوع (Antrustions) وكان هؤلاء الاتباع أيام الملوك الكارولنجيين يظهرون في الجيش وبين الأسرة الملكية وفي كل فرع من فروع الإدارة ، كما كانوا أكثر عملاء الملك موضعا للثقة ، وكان لهم شأن كبير من الناحية الاجتماعية ، وكانوا يسمون الأنصال (Vassi) وهذا الاسم كان يطلق فيما سبق على أي نوع من أنواع الاتباع ، ولكن إقتصر إطلاقه منذ ذلك الحين على الرجال الإحرار الذين يقومون بخدمات غير مأجورة للملك أو للسيد ويقعون تحت سلطته القضائية . ول هؤلاء الاتباع قيمة كبرى حتى أن سطوة السادة في القرنين الثامن والتاسع كانت تقاس إلى حد كبير بعدد الافصال الذين كان في إبتطاعتهم لإنزالهم إلى الميدان .

وقد أوضحت عدة اعتبارات مختلفة إلى الحكام الفرنجة والنبلاء أن يهبوا أولئك الاتباع أرضا والا يمنحوا أرضا لأي مستأجر

ما لم يقسم يمين الفصل . والأرض عادة هي الشكل الوحيد من أشكال الجزاء التي يمكن أن يهبها السيد اللورد لمن يشاء من أتباعه ، وقد برهنت الأرض دائما على أنها هي الضمان المادى للخدمة بإخلاص طالما كان من الممكن استرجاعها كلما اقترف الفصل تقصيرا .

وفى تلك الأيام ، لما كان القانون والخلق لا ينفعان كثيرا كضمان لعدم الإخلال بالعقود ، كان من الطبع أن يرغب مالك الأرض فى تقييد المستأجر على عجلته عن طريق الالتزام الشخصى ، وكانت هناك مزايا واضحة فى الإشتراط بأن كل مستأجر ملزم بمساعدة اللورد التابع له بالخدمة . وكانت الضمياح التى بمنحها الأفصال تعرف بـ (Beneficia) وكانت ظلا لإقطاعية الرجل الدنيوى فى الأزمنة التالية . ولكن هناك بعض الفروق التى تحتاج للتوضيح فالضبيعة التى منحها الفصل من الوجهة القانونية لا تورث بل ترد عند وفاة اللورد أو المستأجر . وكانت الخدمة غير محددة على وجه الدقة كما كانت فى الأزمنة اللاحقة ، والالتزامات الحرية الواجبة على الفصل لم تكن تختلف فى النوع أو الدرجة عن التزامات الرجل الحر العادى . وآخر الأمر فإن فكرة وضع الأفصال فى مرتبة أعلى من سائر المجتمع لم تكن قد تولدت بعد ، وتوقفت أهمية الفصل على مدى ثرائه ومرتبته فى خدمة الملك . ولم يلق عبء الدفاع الوطنى كلية على عاتق الأفصال إلا فى أواخر عصر الامبراطورية الكارولنجية عندما كادت طبقة من ملاك

الأراضي الأحرار أن تمحى من الوجود باضطهاد السلطات الرسمية لهم ومن جراء عبء الخدمة الحربية غير المحتمل . وبما أن الأفصال هم الطبقة الحربية الوحيدة في المجتمع فقد اكتسبوا عندئذ الاعتبار الذي كان في المراحل الأولى في التطور الاجتماعي مقصورا على أولئك المدربين على القتال .

(٢) كان من الطبيعي أن تلقى رابطة التبعية على كل موظف يشغل وظيفة هامة ؛ وكان من الطبيعي أيضا أن تعتبر وظيفته كضبيعة توقف عليه مدى الحياة طالما سلك سلوكا حسنا . وفي تاريخ متقدم نلاحظ وجود الامراء المغلوبين على أمرهم كدوق أقطانيا ودوق بافاريا وملك الدانيمرك - الذين أقسموا بيمين الفصل وقبلوا أن تبقى بيدهم أملاكهم السابقة كإقطاع وهكذا نجد أن أحد أفراد البيت المالك يقدم ولاءه ويعبد بالخدمة نظير إقطاعه . والأخذ بمعاملة الكونتات كأفصال كان أكثر شيوعا وأكثر أهمية للمستقبل فالكونتية في طول الامبراطورية الفرنجية وعرضها كانت هي الوحدة العادية للإدارة المحلية ، والكونت هو الذي جمع الجند وهو الذي كان يجمع المستحقات الملكية ، وهو الذي فرض القانون وحافظ على السلام وكان القاضي الذي بيده أن يحكم بأقصى العقوبة وهي الموت . وقد استطاع الكارولنجيون السيطرة على الكونتات بواسطة المبعوثين الامبراطوريين ؛ غير أنه لما تفككت إمبراطوريتهم ، زال إشراف المبعوثين ، بينما بقيت سلطة الكونت . وفي ذلك الحين غدا المنصب وراثيا قياسا على الاقطاعية واحتفظ الكونت لنفسه بالأرباح التي

عادت عليه من منصبه . وفي مثل تلك الحالات تغلب الكونتية إمارة صغيرة وضعها القانونيون في عداد الاقطاعية ولكنها غالبا ما كانت تحكم بلا أدنى إشارة إلى مصالح الملك . وعلى هذا النحو كانت أنجو (Anjou) وشمپانيا (Champagne) والفلاندرز (Flanders) كونتيات وراثية ثم أصبحت إقطاعيات . ثم أننا نجد أحيانا أن فصلا من كبار الافصال يحصل عن طريق الاغتصاب على امتيازات الكونت فوق أراضيه ؛ والأمثلة على ذلك هم كبار أساقفة ترير (٨٩٨) وهامبورج (٩٣٧) ومنز (٩٤٥) .

ولقد كان الأثر الأول لهذا التحول الملحوظ في طبيعة ملكية الاراضى وفي المناصب العامة هو إحلال نظام اتحادى منحل محل دولة الكارولنجيين المركزية ، وكانت كل وحدة في ذلك النظام الاتحادى عبارة عن مجموعة من الرجال ترتبط بشخص رئيس وراثى ، وهذا النظام الاقطاعى الناشئ كان في كثير من الأحيان وحشيا في طرق حكمه التى تتصف دائما بالعجلة وقصر النظر . وكانت الجماعة الاقطاعية مشتبكة في صراع دائم مع الجماعات المجاورة من أجل البقاء . ثم أن السياسة الاقطاعية كانت سياسة عدوانية ، وذلك لأن لكل لورد من اللوردات جماعته الحربية التى لم يكن فى استطاعته الإبقاء عليها بمأسكة إلا بتدبير المغامرات للفوز بالغنائم الثمينة ؛ كما لم يستطع أى لورد أن يعتبر نفسه بئامن من العدوان طالما لا يستطيع قهر جوار له يملك نفس الموارد . أضف إلى هذا أن

كل إقطاعية من الإقطاعيات الكبيرة كانت في خطر دائم من قيام حرب أهلية وتقسيمها كأن تفكك المجتمع لم يكن بعيد الغور بما فيه الكفاية . وكما عامل اللورد الملك كان يعامل بدوره بنفس الأسلوب من إفضاله فكان يهبهم الأراضي ويسمح لهم بتكوين أسر لهم ، ويعطيهم المناصب ذات النفوذ ، وهم بعد كل هذا يتحلون . وفي القرن الحادي عشر كانت الإقطاعية الكبيرة تعج بالقلاع التي يسيطر عليها أفضال اللورد ؛ ففي كونتية مين (Maine) الصغيرة وحدها نسمع بوجود خمسة وثلاثين قلعة من تلك القلاع ؛ وهذه القلاع كانت بوجه عام مراكز للثورة والسلب والنهب بلا تمييز . ومثل ذلك النظام الإقطاعي لم يكن نظام حكم بل كان عرضاً من أعراض الفوضى .

ومع ذلك لم يكن النظام الإقطاعي دائماً مجرد تسلط الطبقة الحربية على الشعب الأعزل من السلاح وإمبراطورية الفرنجة ، شأنها في ذلك شأن الإمبراطورية الرومانية ، فقدت الاحترام وحب الشعوب لها بسبب سوء الحكم وضعف الحكومة والمغالاة الشديدة في مطالبة التابع بالخدمة الشخصية . وكان مالك الأرض سيداً أقل تعسفاً من الإمبراطورية ، وكان في أغلب الأحيان يستطيع الدفاع عن مستأجره ضد ضروب الاجحاف والظلم التي عاملتهم بها الإمبراطورية . وفي أثناء الإغارات التي شنها الشماليون والهنغاريون ، اضطرت الممالك حرصاً على مصلحته إلى حراسة ضياعه بما وسع من قوة ومقلدة . ومن أجل ذلك

تطلع العامة إلى مالك الأرض أو يبحثوا حولهم عن مالك للأرض
يستطيعون أن يعهدوا إليه بأنفسهم ، وكانت الضيعة الكبيرة
سفينة النجاة من طوفان الرذائل الاجتماعية العام . وفي القرن
الحادى عشر تغير الموقف ، فقد استطاع هنرى الصبياد وأوتو
العظيم من تحويل تيار إغارات الهنغاريين ، وانخرط الشهابيون
أعضاء فى الاتحاد الأوروبى ، فلم تعد هناك حاجة إلى الطاغية
الاقطاعى الصغير الذى انحدر من مركز الحامى إلى وباء
من أوبئة المجتمع ، وكانت مشكلة العصر السياسية الكبرى
هى الحد من فتكه وأذاه . وقد عولجت المشكلة وحلت بوسائل
مختلفة ، ففى فرنسا قادت الكنيسة حركة القمع فى محاولتها
الاقبال من فظائع الحرب الشخصية بوضع موانع وقيود على
المحاربين . وخلال القرن الحادى عشر كان من المؤلفين
أن يحصل الأسقف فى منطقته على معاونة ممثلين من كافة
طبقات المجتمع فى إعلان هدنة الله (Trenga Dei) . وهذه
الهدنة ، التى دعى الناس إلى القسم باحترامها ، كانت
تحرم التعرض بأى أذى لرجال الدين والفلاحين وغيرهم من
غير المحاربين ، وتمنع إتلاف الأرض المزروعة أو سرقة
الماشية ، وقد عينت الهدنة بعض المواسم التى يجب ألا تشن
فيها حرب . وقد فرض اتفاق آخر من هذا النوع يقضى بوقف
كل الخصومات الشخصية لإبتداء من مساء الأربعاء إلى صباح
الاثنين من كل أسبوع ، على أن يبدأ هذا بحلول موسم البشارة
(Advent) إلى الأسبوع الذى يلى عيد الغطاس (Epiphany) ،

ومن بدء الصوم الكبير (Lent) إلى نهاية الاسبوع الذى يلي عيد الفصح (Easter) ، ومن بدء أيام الابتهاال (وهى الاثنين والثلاثاء والأربعاء التى تسبق عيد الصعود) (١) إلى نهاية الاسبوع الذى يلي عيد العنصرة (Pentecost) . وقد وافق ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا على «هدنة الله» ؛ وحتى فى القرن الثانى عشر كانت المجالس الكنسية لا تزال توصى بالالتزام «هدنة الله» باعتبار أنها وسيلة نافعة . غير أنها لم تراع إلا فى النادر ، إذ لم يكن هناك من الوسائل ما يفرض الالتزام بها ، وكانت المصالح الطبقة المتعارضة تشجع الانقسام فى صفوف أولئك الذين أقسموا على احترام الهدنة للدرجة أنهم لم يستطيعوا التعاون بإخلاص مع بعضهم البعض . وهذا النقص الثانى كان يتضح أيضا فى طريقة الألمان فى نظام أمن الدولة (Land Peace) ؛ فمن حين إلى آخر نجد أحداً الإباطرة يجبر ولاية معينة أو حتى سائر الدولة الألمانية على قبول مجموعة من القوانين صيغ بعضها على نمط «هدنة الله» وبعضها الآخر على شكل تشريع جنائى . وهكذا طلب إلى أعيان الدولة فى سنة ١١٠٣ أن يقسموا على ألا يتعرضوا بأى أذى فى مدة الأربع السنين التالية لرجال الدين أو التجار أو النساء أو اليهود وألا يشعلوا النار أو يدخلوا عنوة بيوت الناس خلال تلك الفترة ، وألا يقتلوا أو يجرحوا أى رجل أو يأسروه لفدية .

(١) عيد الصعود هو العيد الذى يلي عيد الفصح بأربعين يوما وعيد العنصرة هو الأحد السابع بعد عيد الفصح . المترجم

وفيما يتعلق بالفقرة الأخيرة من القسم صمم الاعيان على إدخال بعض التعديل عليها حتى انتهوا إلى أنه إذا قابل رجل عدوا شخصيا له في الطريق العام جاز له مهاجمته ، على ألا يطارده إذا احتسب في أحد البيوت الخاصة . والقوانين العامة « لأمن الدولة » التي سنت في عهد كل من فردريك باربروسا (١١٥٢) وفردريك الثاني (١٢٣٥) هي أهم قوانين من هذا النوع ، غير أنها تنحرف إنحرافا شديدا عن النموذج الأصلي وهو « هدنة الله » ، فهي دائمة غير موقوتة وتهدف إلى قمع الفوضى وعدم الخضوع للقوانين خضوعا تاما ؛ ولو أن هذه التشريعات في القانون الجنائي قد نفذت تنفيذا كليا لفتحت عصرا جديدا في تاريخ ألمانيا . أما والحالة كما هي — فهذه القوانين لم تكن إلا دليلا على جهود للإصلاح لم تتحقق .

ولم يكن في الاستطاعة كبح جماح الإقطاع عن طريق تعهدات أو موثائق من هذا النوع ؛ سواء أكانت هذه الموثائق إختيارية أم إجبارية . وإنما شاهد القرنان الثاني عشر والثالث عشر — وهما الحقبة العظيمة لفن السياسة في العصور الوسطى — تطبيق طرق أخرى للعلاج كان لها أثر عظيم . ففي المدن الحرة في فرنسا وإيطاليا والأراضي الواطئة وألمانيا نظمت الطبقات التجارية ضربا من الاتحاد ، ومهما كانت عيوب هذا الاتحاد في بعض النواحي — فقد نجح في استبعاد الإقطاع من المراكز الرئيسية للصناعة في المدن . وفي الدول الكبرى — سواء أكانت ممالك أم لم تكن — عمل الحكام بمؤازرة الكنيسة وتعظيم العامة

على قطع دابر المشكلة الموهلة في التعقيد ، ولكن الاقطاع لم يستأصل ، بل أمكن إخضاعه للقانون . وفي مناطق كثيرة ظل الاقطاع منتشرا ، فإلى نهاية العصور الوسطى استمر فرسان سوايا وأراضى الراين في الإبقاء على العادات الوحشية للقرون المظلمة ؛ وفي كل مكان ظل الاقطاع قوة معادية للوحدة الوطنية . غير أن كبار أصحاب الاقطاعات الذين عاشوا في عصر مكيا فيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) وعصر الحكومات الاستبدادية الجديدة كانت لهم على رعاياهم بعض حقوق الاحترام والطاعة . وكانت دوقية بريتاني وبرجانيا ، والإمارات الألمانية محل احتجاج وكرهية لأن بقاءها يعوق نمو مجتمعات أفضل ، ونقول «أفضل» لأنها كانت أشمل ، وأكثر استقرارا وأشد ملاءمة لأن تكون مبنيا للأفكار العظيمة وللتقاليد الرفيعة .

بقى أن نتكلم عن الفروسية ، سنة السلوك والخلق الخاصة والتي تبدو شاذة في كثير من الأحيان ، تلك السنة التي طعم بها الاقطاع في القرن الحادى عشر والقرون التالية له . لقد بالغ الناس في أثر الفروسية الفعلى ، واعتبرت القوانين الخلقية للفروسية إلى حد كبير النتاج الطبيعى لعصر حربي . فالشجاعة والوطنية والولاء والصدق والكرم واللفظ والشهامة - كلها سمات كان على الجندى أن يتحلّى بها حتى في مجتمع شبه متمدين . على أن المستوى الرفيع الذى كان يجب أن يكون عليه الخلق في الفروسية لم يراع عادة شأنه في ذلك شأن التعاليم الرئيسية في العقيدة المسيحية . والسياسيون من الفرسان في

العصور الوسطى أمثال جودفري بويون (Godfrey of Bouillon) قائد الحملة الصليبية الأولى ، وإدوارد الثالث ملك إنجلترا (١٣٢٧ - ١٣٧٧) والأمير الأسود (Black Prince) (١) لا يقلون حذقا في التدبير والسياسة - كما يظهرون تحت ضوء النقد التاريخي - من طغاة عصر النهضة أو من تلاميذ فردريك العظيم البروسي (١٧١٢ - ١٧٧٦) . غير أن المثل الأعلى للفروسية لم يعامل معاملة عادلة ، فالقواعد الخلقية التي تضمنتها الفروسية كانت تحكيمية ذات جانب واحد ، ولكنها كانت تمثل محاولة صادقة لبناء قانون عملي للسلوك - ولو أنه لطبعة واحدة - في وقت كان فيه الدين يجد المجد في طلب المستحيل . وقد تدهورت الفروسية إلى الإسراف والمبالغة كالعادة ؛ ولكن الفروسية في أسوأ حالاتها استحققت الثبات لأنها كست العلاقات الإنسانية والمشاكل الإنسانية بمعنى مثالي ، فقد أعطت النساء على الأخص مركزا أسمى مما كن يشغلن في أى نظام اجتماعي في العصور القديمة . ولولا الفروسية لما خلقت ولا فهمت شخصيات نسائية مثل بياتريس عند دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) ، ولورا عند بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) ، وميراندا عند شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) ، ومارجريت عند جويتيه (١٧٤٩ - ١٨٣٢) .

(١) أكبر أولاد إدوارد الثالث (١٣٢٠ - ١٣٧٦) والاصل في تسميته بهذا الاسم غير معروف ، وقد يكون لبلاه الشديد في المصارعة أو لأنه كان يرتدي حلة قتال سوداء . المترجم

والفروسية في أقدم صورها كانت من ابتداء الكنيسة ،
والقداس الدينى الذى كان على المبتدئ أن يقرم به قبل أن
يصبح فارسا يرجع إلى أيام أوتو الثالث حينما ظهر فى طقوس
الكنائس الرومانية . غير أن الحفل لم يكن مستعملا فى العادة
خارج إيطاليا قبل عصر الحروب الصليبية . لقد كان اربان
الثانى (Urban) هو صاحب فكرة الفروسية فى شمال أوروبا ،
وكان يعتقد بأن الفرسان هم جنود الله (Dei Militia)
أو جنود الكنيسة ؛ وإنه لمن الدلالة على ذلك أن الحرب مع
غير المسيحيين تعتبر من أهم الواجبات المفروضة على الفرسان ،
ولو أنها لم تكن هى الواجب الوحيد ، فالدفاع عن الدين الحق
وعن الكنيسة كان يلحق للفرسان أيضا ؛ وقد يحرز الفارس
التقدير باضطهاده المراطقة أو بقتاله من أجل البابا ضد إمبراطور
غير عادل . وكان من واجبات الفارس أيضا أن يرعى الأرمل
واليتيم ومن لا يستطيع الدفاع عن نفسه . على أن الفارس الكامل
لدى الكنيسة كان هو الذى ينخرط فى هيئة الداوية (Templars)
وهو الجندى الذى يعيش فى ظل نظام دينى ، مكرسا
كل جهوده لقضية الكنيسة المقدسة . لقد كانت بدعة
ملحوظة حينما أخذ القديس برنارد ، الذى كان ينادى بالمحافظة
على القديم ، أخذ على عاتقه وضع نظام لجماعة فرسان الداوية ،
ذلك لأن الكنيسة البدائية الأولى لم تكن تبيح الحروب دفاعا
عن النفس . ومن أجلى وجهات النظر كان من المفيد أن
يغير قادة المجتمع الخلقيون موقفهم بأن يعترفوا بالحرب

وبطبيعة جرية باعتبار أنها ضرورة لا غنى عنها ، وأن يضيفوا على الحرب - وهى أكثر ما يشغل الانسان - معنى خلقيا ومثاليا . ولكن التصميم شوه عند التنفيذ ؛ فالكنيسة حينما رغبت أن تكون عملية ، قد أقامت هدفا دنيئا وترجمت المسيحية إلى تعاليم كانت تلائم فقط مرحلة قصيرة من مراحل حضارة العصور الوسطى ونعنى بها مرحلة الحروب الصليبية .

وقد انتهى الأمر إلى أن أصبح للشاعر أثر بعيد المدى على طبقات الفرسان أكثر مما كان للقس ، ومن الغريب أن تتفق آراء البابوات والمجالس الكنسية على معارضة إراقة الدماء ونجس الأضراس التي تترتب على القتال ، ومن العجيب أيضا أن التهديد بالحرقان من رمة الكنيسة لم يكن يقعد أشد الفرسان محافظة عن أن ينشد الامتياز واللاهوت في تلك الحروب التقليدية ، ولا يقل دلالة عن ذلك عادة التفانى في احترام المرأة (Service des dames) التي أضفى عليها شعراء التروبادور والمنسجز حالة من الرمزية الدينية ، رغم أن الكنيسة كانت لا تستطيعها لا عن خشية امكان اساءة استعمالها ولكن باعتبارها وثنية في جوهرها . وبينما كانت عبادة العذراء تكريما للفكرة الجديدة عن النساء ، كانت أيضا احتجاجا ضد الرومانتيكية الدنيوية . ومن حين لآخر يظهر شاعر من الشعراء - مثل الشاعر الألماني فولفرام فون اشنباخ (Wolfram von Eschenbach) - يسعى إلى التوفيق بين الشعر والدين في صورة الفارس الكامل . غير أن المدرسة التي نادى باحترام المرأة قد انتصرت ؛ فأكثر

التروبادور شهرة دنيويون ؛ ويعد قالتر فون در فوجلبيده
(Walter von der Vogelweide) بهجمات الميرة على البابوية
أقرب تمثيلا لطبقة المنسجرز من فولفرام في ملحمة الرمزية
پارسيفال (Parsifal) وسانجرال (Sangraal) .

وقبل الحملة الصليبية الألبجنسية على پروفانس حيث كان
المجتمع لا يحفل في كثير أو قليل بالمسيحية الكاثوليكية ويظهر
عداوته لرجال الدين ، قامت حركة تبشير بالفروسية وتطورت
تطورا غريبا حتى غدت الفروسية على أيدي التروبادور إنجيلا
للأبهة والمباهاة وللعواطف المصطنعة والشجاعة المفتعلة ، وأصبحت
سترا للمادية والأنغماس في الشهوات والتظاهر في مجتمع
تافه مفتون بزينة الحياة .

الفصل الخامس

البابوية قبل جريجورى السابع

ليس من المحتم أن يعاب نظام من النظم إذا ما عرفنا أنه قد نما من باكورات صغيرة وأنه قد طبق فى أحوال جديدة على مسائل جديدة ، وأنه فى مدى تاريخ طويل قد قام الدفاع عنه بحجج واضحة الخطأ . لا شك أن الطفل رجل المستقبل ، ولكن المرء فى الكبر يختلف عنه فى الصغر — وقد يكون شيئا أفضل — عما كان فى طفولته . ومن هنا لا ينبغى أن نعلق أهمية كبرى لا داعى لها على دراسة الأصول ، ولكن لا يسعنا اغفال دراسة تلك الأصول . ومهما قلت الروابط التى تربط الحاضر بالماضى ، فإن ملاحظتها هى ضمنا لا تعدو أن تكون ملاحظة استمرار التطور الإنسانى — وهو أهم الدروس وأكثرها وضوحا وأشدّها لدينا تعرضا للإهمال ، تلك الدروس التى بوسعنا أن نتعلمها من التاريخ . حقا إن الجذور مهما كانت قوية ومهما كان عمق غرسها ، فهى لا تكفى لإيضاح خصائص النبات الذى ينمو من خلالها . غير أنه من الحقيقة أيضا أن أيا من النباتات وبالمثل النظم لا تستطيع تماما أن تنزع عنها قشورها وهى بعيدة عن النضج ؛ فهى لم تتكيف تماما وفقا للأحوال التى تصل فى كنفها إلى تطورها الكامل ، فالبابوية فى أوج قوتها وعظمتها ، بعضها جديد والبعض الآخر قديم .

فإذا نظرنا إلى النظرية البابوية كما كانت تلبو لعقول البابوات من أمثال جريجورى السابع أو إنوسنت الثالث ، لأوحت إلينا بنفس شعور الاستواء والتطابق المنطقى والاكتمال الذى نحس به عند دخولنا لأول مرة إحدى الكنائس الكبرى فى العصور الوسطى . ولكن إذا فهمنا رسم المهندس ، فستجد عادة أنه قد عمل من بعض الأوجه وبلا قصد منه وفقا لتقاليد موروثة عن فترة سابقة ؛ أضف إلى هذا أن عمله يتضمن بقايا بناء أقدم وأكثر بساطة . فهنا عمد ذات أحزمة ضخمة لا تناسق بينها وبين الأقواس الدقيقة التى تحملها ، وهناك برج قديم العهد قد دعم بدعامة لتجعل فى استطاعته إحتمال برج جديد . فهما كانت مهارة المهندس وحذقه ، نستطيع مع هذا أن نميز بين الجديد والقديم . وكذلك الأمر فيما يختص بدفاع البابوية فى أيام سياستها العظيمة فنجد مثلا عبارة من قوانين روما القديمة تضاف إلى مبدأ مأخوذ من الفلاسفة الرواقيين أو الأكاديميين ، وخرافات من أصل غالى أو مصرى تلتمس لتعزيز قرارات ومجالس خلقلدونيا ونيقية المسكونية ، ونص من نبي عبرى يفسر على هوى أحد المفسرين الافريقيين . والنسيج المكون من هذه العناصر المتناقضة له فى الحقيقة وحدة الغرض ؛ غير أن التصميم قد اختفت معالمه وأضحى مبهما من جراء تنافر المواد حتى أننا نجد أنفسنا مدفوعين دفعا لا يقاوم لأن نسأل : كيف استخدمت تلك المواد ؟ ولماذا استخدمت ؟ لقد قاست البابوية أكثر من أى نظام انسانى آخر من ضرورة

مفترضة لتبرير كل خطوة نخطوها إلى الامام بالسوابق وبالرجوع إلى كتابات الثقة ؛ ففي خلال ستة عشر قرنا أقدمت البابوية مرتين على تغيير جبهتها تغييرا مفزعا ، وكانت في ارتباك مرير لدفع تهمة التناقض في سياستها . وقد أجرى أحد تلك التغييرات في سكون عند نهاية القرن السابع عشر ، عندما أمسك البابوات عن إقحام أنفسهم في المسائل العالمية التي لا قبل لهم بها . وكان هذا تغييرا كبيرا ، ومع ذلك فلم يكن في عظم التغيير الذي جاء على يد جريجورى السابع . في النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، لأنه أحدث انقلابا في كل النظرية التي تركز عليها حقوق البابا . ومع أنه لم يكن قانونيا متعمقا ولا عالما من علماء اللاهوت ، فقد نظر جريجورى السابع إلى التاريخ الماضى لمنصبه بمثابة الشاعر وخياله ، ونظر إلى المستقبل براديكالية مكافئلى أو هوبز الثائرة . أدرك جريجورى السابع أن العالم المسيحى دولة واحدة غير مقسمة ، دولة باعتبارها نظاما يسوده ملك ، والملك كحاكم يجب أن يكون حاكما مطلقا أو عديم النفع . لقد تسائل جريجورى من يستطيع غير وريث أمير الرسل أن يجترأ على المطالبة بسلطان كبير مثل هذا السلطان ؟ إن جرأة دعواه بالنسبة لنا لتغتنر إذا نظرنا إلى الاهداف الشامخة التي كانت دعواه ترمى إليها . وكان من الضرورى تهدئة رأى المعاصر أن تعرض الدعوى الجديدة باعتبار أنها إحياء لحقوق قديمة ، وباعتبار أنها نتائج منطقية لحقائق لا جدال فيها . وقد أدى

هذا الأسلوب إلى تحريف الحقائق التاريخية تحريفا ظهر فيه الجهد وإن كان هذا التحريف في بعض نواحيه غير مقصود .

ذلك لأن البابوات ممن سبقوا جريجورى قد أدعوا لأنفسهم سلطات واسعة ولكن كان في الامكان تحديدها ؛ وهذه السلطات وإن كانت ضخمة في الاستطاعة الدفاع عنها بالالتجاء إلى عرف ثابت . أما السياسة الجديدة فقد أدت إلى موقف متناقض يتلخص في أن السوابق كانت تلمس بمثابة البرهنة على أن البابا فوق كل السوابق .

وفي عهد جريجورى السابع أخذت الرئاسة الدينية على العالم المسيحي الغربي تتخذ طابعا جديدا . ولكن الرئاسة الدينية في صورة أو في أخرى كان قد انعقد لواها للكنيسة الرومانية منذ قرون مضت . وهذا الأمر قد حققه بابوات ممن سبقوا جريجورى وكان نجاحهم أكثر استعلاء للنظر إذا ما تذكرنا أن القليل منهم كانوا سياسيين مبرزين . فلا موجب للدهشة إذا برهن بعض أساقفة روما على عجز في غضون تسعة قرون مضطربة ، ولم يصن البعض الآخر المصالح التي عهد بها إليه . على أية حال من الغريب أن البابوية استطاعت أن تضطلع بالمركز الرئيسي بين أساقفة الغرب دون أن تؤدي خدمة كبيرة لتنظيم الكنيسة أو لنشر نفوذها .

وبالنسبة للبابوات الأوائل ، فيما عدا ليو الأول وجريجورى الأول ، قد نكون على معرفة ما بتاريخ عصرهم دون أن نعرف الكثير عنهم ، فلم يكن أى بابا من البابوات يعد في نفس

منزلة الآباء الغربيين المبرزين ؛ وعالم اللاهوت الهام الوحيد الذى شغل كرسى البابوية قبل سنة ١٠٠٠ هو جريجورى الأول ، وأسمى مديح يمكن أن نسبته على كتاباته هو أنها بعثت حياة جديدة فى بعض آراء القديس أجسطين . إن البابوات الأوائل يسترعون انتباهنا كسياسيين لا كفكرين . ومع ذلك فإن ما تم على أيديهم من أعمال عملية لا يكاد يفسر لنا الاحترام والتبجيل اللذين يبعثونهما فى النفس . والبعثة العظيمة التى أرسلتها روما كانت بعثة أجسطين إلى إنجلترا . أما رجال الدين الآخرون فى العصور المظلمة فقد وجدوا مصادر وحيهم فى أماكن أخرى مثل أديرة إيرلنده أو غالة أو ألمانيا . ولماذا ما نظرنا إلى تقدم علم اللاهوت والنظام الدينى ، نجد أن الامبراطورية الشرقية هى التى حسمت الخلافات الدينية الكبرى ، وأن المجالس الدينية التشريعية قد اجتمعت فى الامبراطورية الشرقية . ونلر أن أكدت روما حقها فى التكلم حتى باسم الكنيسة الغربية ، إذ لم يكن سجل البابوات الأولين الذين توصلوا إلى مركز صدارة قصيرة الأمد بحيث يتذكره الغرب بروح الرضى والارتياح . فى الواقع إن حصول روما على مركزها السامى كعاصمة أوروبا الدينية واحتفاظها بهذا المركز ليعزى إلى أسباب أخرى غير جدارة البابوات الشخصية .

كيف إذن نعلل تقدم روما وفوزها ؟ لقد أمدنا هوبز بتفسير لهذا عند ما أطلق على البابوية «شبح الامبراطورية الرومانية»

لقد وجد الابطاطرة الرومانيون المتأخرون من المناسب أن يضيفوا امتيازات خاصة على أساقفة عاصمتهم القديمة ، ولكنهم اتبعوا هذه السياسة فيما بعد عندما أخذ الاحترام للامبراطورية في الغرب يتقلص . ولم تغم البابوية سلطات جوهريّة من وراء المنح التي قدمتها لها الامبراطورية ، بينما فقد البابوات المتفرقون جدارتهم واستقلالهم نتيجة لصلتهم الخاصة التي كانت تربطهم بالعاصمة الجديدة على البسفور . لقد كانوا مضطرين إلى أن يلعبوا دورا شائنا في الخلافات التي نشبت بين الكنائس الشرقية ، وحملوا بأعباء دنيوية ثقيلة ، وأضحوا رموزا وعملاء لاستبدادية أجنبية وفقدوا على السواء ثقة الغزاة الجرمان ورعايا الامبراطورية الاسمين .

على أن بعض النقاد الآخرين قد فسروا الهبة التي تمتعت بها البابوية باعتبار أنها ثمرة لمحاولات ناجحة من الاحتيال ، وليس لدينا إلا القليل ليقال بصدد هذا الافتراض . لقد ارتضى بابا أو أثنان من البابوات غير العظام استعمال وثائق مزيفة ، ولكن بولغ في أثر هذه الاحتيالات مبالغه شديدة . وأشهر تلك الوثائق هي هبة قسطنطين (Donation of Constantine) والمـراسيم المـزيفة (False Decretals) ؛ ولو أن الأولى قد يكون أصلها رومانيا إلا أنها لم تستخدم كثيرا في روما ، واقتصر نفعها على تبرير البواكير المتواضعة للسلطة الزمنية . أما الثانية فتفوق الأولى أهمية واعتبرت في بعض الاحيان كفاتحة عهد من الدعاوى

الجديدة . وفي الحقيقة لا تعلق هذه القرارات الزيفة أن تكون تكرارا أو استمرارا لدعاوى متناهية في القدم . ومع أن ذكرها قد تكرر على لسان قانوني الشريعة ، فهي لم تكن روابط ضرورية في سلسلة القرائن والسوابق التاريخية . لقد كان لها دلالة خاصة باعتبار أنها تؤكد الرغبة العامة لرجال الكنيسة لإيجاد نوع من الكفالة التي تضمن لهم قوة في ممارسة الحقوق البابوية . إن أسقفا يتمتع بسلطات حقيقية كان أمرا يرغب فيه ليس فقط رجال الدين في الكنائس الوطنية كحصن ضد اضطهاد الدولة الوحشي ، بل يرغب فيه أيضا سائر المفكرين الدينيين باعتباره رمزا لوحدة اتحادية وضمانا لتوحيد العقيدة .

ليس هناك نظرية نستطيع أن نعتبرها شرحا مرضيا لسلطة البابوية ما لم تقم بتفسير هذا الاعتقاد العام في ضرورة وجود بابا يقوم على رأس الكنيسة الغربية . لقد كان بعض الضرورة سياسيا ؛ فالكنائس الوطنية التي كانت معرضة للخطر العام من الاستبدادية الدينيوية التمسست الأمن في الاتحاد ؛ وقد عبرت عن اتحادها بالطريقة الوحيدة التي يستطيع الرجل العادي غير المتعلم أن يفهمها وذلك بأن أعلنت عن خضوعها لحاكم روحي واحد . ولكن بقيت مشكلة تبرير قرار الاستقلال هذا الذي يعنى الثورة على الامبراطورية الشرقية ؛ ووجد التبرير في رأيين أحدهما تاريخي والآخر ديني : الأول يقوم على أساس الرواية الرومانية بصلد بطرس الرسول، والثاني

يقوم على الأهمية المسلم بها لالتزام التقليد الصحيح التزاما تاما .
ويستدعى كل من هذين الرأيين بعض الدراسة .

تقول الرواية إن بطرس الرسول قد عين في مركز الصدارة بين الرسل ؛ وهذا هو المعنى الواضح من إعلان المسيح «أنت بطرس» (Tu es Petrus) وأسس بطرس الكنيسة الرومانية وأنشأ الأسقفية الرومانية . وقد أورث بطرس لينوس (Linus) أول الأساقفة ، رسالته المقدسة وعلمه حقائق المسيحية ، ثم انتقلت هذه العطايا كاملة من لينوس إلى الواحد بعد الآخر في سلسلة خلفائه المتصلة الحلقات ، وبذلك يجب أن نحول روما الحق في مركز الصدارة بين الكنائس كما كان بطرس بين اخوانه الرسل . ولن يجدينا البحث في الأساس التاريخي لتلك الرواية فنحن لا نعرف شيئا قاطعا أكيدا عن علاقة بطرس الرسول بالمدينة الخالدة سوى أنه قام بالتبشير ولقى العذاب هناك . أما إذا كان الأساقفة قد وجعلوا في ذلك الوقت فهناك ما يدعو إلى الظن بأن المنصب كان جماعيا ، وأن لجنة الأساقفة حينئذ كانت أقل أهمية في الحياة الروحية للمجتمع مما كانت فيما بعد .

وقبل القرن الثاني لم تصبح الاسقفية ذات سيادة ولم يعد شاغل المركز صاحب التفوذ الأسمى داخل الكنيسة التي أنتخبته . وكان التغير تاما في وقت إيريناوس (Irenaeus) الذي كتب حوالي سنة ١٨٠ م أول قائمة تضم أساقفة روما تبدأ بـلينوس وتنتهى بإليوثيروس (Eleutherus)

وهو الثاني عشر بعد بطرس والمعاصر لإيريناىوس . أما الاسماء التالية فى القائمة فهى بلا شك أسماء أساقفة حقيقيين . والاسماء الأولى قد تكون أسماء تاريخية بمعنى ما ، مثل أسماء شيوخ الكنيسة المشهورين أو أسماء رجال تركوا آثارهم فى اللجنة الأسقفية القديمة . وهناك نقطة فى المقام الثانى من الأهمية وهى أن إيريناىوس قد تكلم عن أساقفة وليس عن بابوات فهذا اللقب لم يستعمل إلا بعد مرور مائة سنة على الوقت الذى عاش فيه إيريناىوس . والحقيقة التى تفوق ذلك فى الأهمية هى أنه فى القرن الثالث عندما تصبح وثائقنا أكثر وفرة ، تكون روما قد أُعترف لها عادة بالمقام الأول بين الكنائس (Ecclesia Principalis) ولكن لم يكن لها حق القضاء فى الدعاوى الاستثنائية أو أى سلطات تشريعية . وفى حالة ما إذا نشب نزاع على مسائل تتعلق بالأحاديث المأثورة ، اتفق على أن يكون رأى روما محل تقدير خاص باعتبار أنها كنيسة تحتفظ بذكرى تعاليم بطرس . وإذا ما أصبحت الخلافات على العقيدة أشد حدة وتعمقت إلى الأساس ، فإن أهمية الأحاديث المأثورة تتأكد ، وسلطة أولئك الذين يروونها تعظم . وأخيرا تقوم سائر دعاوى البابوية على أساس الادعاء بأنها تملك الأحاديث المأثورة التى لا تشوبها وحدها شائبة . ولكن لم تتبين نتائج الادعاء حتى المبطالين به إلا بعد القرن الثالث بزمان طويل .

ولذا ما دعينا فى الوقت الحاضر لاقتراح وسيلة لحفظ مجموعة سائبة من التعارييف الخاصة بالعقيدة والقانون النظامى ، فطبيعى

أنه لا ينبغي لنا أن نختار وسيلة ما من وسائل النقل الشفوى كأسلم الطرق منالا . ولكن هذه الوسيلة لقيت تحجيذا كبيرا في الماضي وحتى بين اليهود - مع احترامهم الشديد للكتب المقدسة - نجد أن روايات الشراح قد جعلت الكلمة المكتوبة عديمة القيمة . وقد امتنع متعبلو الديانات الإغريقية الباطنية عن كتابة صيغ عبادتهم الهامة . وكانت هناك عدة إعتبرات تحجب هذه السياسة الغربية ، فلم تكن هناك قوانين علمية لتفسير النصوص المكتوبة ، وكان الشراح الذين يطلبون المعنى الرمزي يترجمون تخيلاتهم الطائشة إلى أبسط العبارات ، وكانت الطريقة الوحيدة للتحقق مما يقولون هي الرجوع إلى التفسير التقليدي . نحن الآن نستخدم النصوص إذا أردنا اختبار الأحاديث المأثورة ، غير أن علم النقد في مراحله الأولى كان يتبع الطريق المضاد ، وكتيجة طبيعية لذلك يقدر الحديث المأثور أكثر مما يقدر الكتاب المقدس . وكانت هناك أسباب أخرى لم تشجع على استعمال الكتابة ؛ منها : أولا - الخوف من أن أى مهارة أدبية في الكتابة قد لا تكفى للتغلب على صعوبة التعبير بدقة ؛ ثانيا - الاحجام الطبيعى للعقلية الدينية عن تعريض أعمق الحقائق للازدراء والنقد المبطل لغير المطلعين على أسرار العقيدة ؛ ثالثا - بعض بقايا الخرافات البدائية ، فصيغ كتاب الطقوس إن هي إلا تعويذات سحرية تفقد قوتها إذا نشرت على العالم ؛ وأخيرا - الفطرة الطبيعية لطبقة الكهنوت التى تقصر معرفة الأسرار العميقة على دائرة

مختارة من المقربين . اكمل هذه الأسباب كان يوجد في كافة الكنائس المسيحية الأولى تقليد الاحاديث المأثورة حيث تحفظ بحرص وعناية فائقة ، وكان يطلق عليها عادة الأسرار (Arcana or Secreta) ؛ مثال ذلك : عقيدة الرسل (Apostles' Creed) وهى الرمز المميز للكنيسة الرومانية ، ظلت تحفظ شفها إلى القرن الرابع ، ولم تكن تعطى للمبتدئ في تعلم المسيحية حتى وقت تعميده . ولأول مرة عهد بكتابة دقائق قواعد نظام التوبة لثيودور الطرسوسى (Theodore of Tarsus) رئيس أساقفة كانتربرى حوالى نهاية القرن السابع ؛ وقد وجهت بعض المجالس الدينية النقد الشديد لهذه البدعة . وكان إحجام الكنائس عن كتابة أجزاء القداس الضرورية الفعالة أشد استرعاء للنظر من كل هذا . ولم يرد ذكر شيء عن نسخ مكتوبة إلا في القرن الرابع الميلادى ، ولم تصح الاختلافات في الروايات المحلية بإصدار نص قياسى إلا بعد ذلك بفترة طويلة . وقد يرجع عدم وجود نسخ رسمية إلى الافتقار إلى وسائل كالطباعة مثلا التى يمكن بها طبع نسخ عديدة في متناول الجميع . ولكن هناك حقيقة غريبة تدعو إلى الظن بأن النشر كان يعتبر شيئا غير مرغوب فيه ، فأحد أقسام ناموس القداس ويسمى للقسم السرى (Secretum) كان القس القائم بالقداس يتلوه بصوت منخفض حتى لا يغلو معروفا لدى المصلين . وبالمثل كان علماء اللاهوت الأولون يتركون جانبا أى عرض كتابى للعقائد الرئيسية مثل التكفير

أو الثالث المقدس مارين بها مرا هينا باعتبار أنها - في رأيهم -
موضوعات يحيط بها العارفون .

وقد خلقت سنة السرية هذه صعوبات سجلت على صفحات
التاريخ بأحرف عريضة ، إذ قامت الخلافات بصدد الكلمات
المستعملة في النص على المذاهب ، وبصدد قانون الكتاب
المقدس ، وبصدد عدد الزلات المميتة وطبيعتها والعقوبات
الدينية التي ينبغي أن تنتج عنها . ومن حين لآخر يثير أحد
الباحثين ثورة بادعائه أنه قد اكتشف زلة في الصيغ التقليدية
أو عثر على خطأ في المعنى الجارى الذى عرفت به هذه الصيغ .
وكان السبيل الوحيد للتحقق من هذه الشكوك هو مقارنتها
بالأحاديث التقليدية الماثورة في الكنائس الأعرق في القدم ،
وهذا لا يتأتى إلا على يد مجمع من الرؤساء الدينيين للولاية
أو مجلس ديني عام . ولكن الأولى من هيتى التحكيم هاتين
لم تكن موضع رضى لأن أحكامها لم تكن سارية المفعول إلا
محليا ومن الجائز أن ترفضها الكنيسة العالمية . وكان من العسير
جمع المجلس الدينى العام وخاصة بعد أن حدث شقاق بين
الكنيستين الشرقية والغربية . وكان من الأيسر اختيار أسقف
ليكون فيصلا في الأمر ، على أن تكون معرفته بالحديث
المأثور ترجع إلى أحد الخلفاء الرسولين .

وفي الشرق كانت هناك ثلاث كنائس رسولية
وهي أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، أما في الغرب
فلم تكن إلا كنيسة روما التي تتوفر فيها الشروط المطلوبة .

وكان أساقفة روما هم الذين بوسعهم الادعاء - ولهم في هذا بعض الحق - بأن أحاديثهم التقليدية كانت نقلا عن مصدر أوثق من مصدر أية كنيسة رسولية من الكنائس الأخرى ، وأنهم قد اعتنوا بالمحافظة عليها ضد التحريف أكثر من أية كنيسة أخرى . ألم تكن حقيقة وطيدة الأركان أن روما قد صمدت بجهة لا تنزحزح في وجه الهرطيق أريوس بينما ترعزع إيمان حتى أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ؟

أما وقد سلم لروما بأنها صاحبة الوضع السائد حيال الحديث المأثور - وكان الالتجاء إليها باعتبارها وحى العقيدة وسيلة واضحة جدا - فلا يسعنا إلا أن نعجب عندما نجد أن انتصار روما في دعواها كان بطيئا وتدرجيا ! لقد أعاق كبرياء الكنائس الغربية الأخرى وضعف إدراكها انتصار المنطق، فمن ناحية تعلقت كنيسة قرطاجنة بالمثل الأعلى القديم القائل بأن العالم المسيحي هو تحالف بين كنائس تتمتع بالحكم الذاتي ، وهذه الكنائس قد تستشير الواحدة الأخرى كما يعونها ولكنها لا تعترف بأية سيادة إلا سيادة المجلس الديني العام ، وقد اقنعت قرطاجنة كنيسة إفريقيا وضربت مثلا فأخذت باحتذائه مجتمعات أقل شأنا . إن غزو إفريقيا على يد الوندال الهراطقة كان سببا في أن يوافق مسيحيو إفريقيا على الاتجاه نحو روما كعاصمتهم الروحية . ومن الناحية الأخرى كان ينظر بحق إلى أحكام أساقفة روما نظرة شك في أنها تتأثر تحت ضغط الظرف المحيط بها ، ففي بعض الأحيان خفف الأساقفة نظام

التوبة خشية أن يندفع الاخوان الضعاف الايمان إلى الارتداد عن العقيدة . وفي بعض الاحيان الاخرى اقترح أساقفة روما تحت ضغط القسطنطينية إتفاقا غامضا مع الهرطقة ، وتغلب ضغط الظروف تدريجيا على مثل تلك الاعتبارات . وقد أجبر آخر الأمر انتشار الأريوسية وهجمات التيوتونيين الذين كانوا أريوسيين في أغلب الاحيان أجبر الكنائس على أن تسلك الطريق الواضح وهو المحافظة على اتساقها واتحادها اللذين كانا في خطر .

لإننا نجد في قرارات مجلس سارديكا (٣٤٣) أول اعتراف صريح بأن البابا هو الحكم ، ونكاد نستطيع القول بأنه هو القاضي الذي تستأنف لديه قضايا الكنيسة . ولم يكن هذا المجلس إلا اجتماعاً عقد بين أساقفة الغرب ، والقوانين التي أقرها لم تقبلها بحال كنيسة إفريقيا . وكانت شرعية هذه القوانين مشكوكا فيها حتى أن بابوات العصر التالي ادعوا باطلا بأن هذه القوانين سبق أن أقرها مجلس نيقية المعروف سنة ٣٢٥ ومع ذلك فإن البابا - حتى في مجلس سارديكا - لم يحظ إلا بامتياز واحد معلوم مقرر ، ومنذ ذلك الحين أصبح يجوز لأي أسقف يدينه مجلس الولاية أن يستأنف دعواه لدى البابا الذي كان يستطيع إذن أن يأمر بعقد محاكمة ثانية للأسقف ويرسل مندوبيه للحضور كقضاة ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستمع للدعوى في بلاطه . وأعظم من هذا التمرار لفتا للنظر هو الخطاب الذي وجهه المجلس إلى البابا يوليوس :

«لأنه من الصواب والملائم جدا أن يرجع قساوسة الله من جميع الولايات إلى رئاستهم أى إلى كنيسة القديس بطرس» . وقد استجابت لهذه التوصية كنيسة غالطة وأسبانيا ، فانهاالت الاسئلة من أساقفة هاتين الكنيستين على البابوات الذين أخذوا فى إصدار أحكامهم فى شكل خطابات مفتوحة ، وفى المطالبة بأن تكون لهذه الخطابات قوة ملزمة كقوة القانون . ويبدو أن البابا ليبريوس (٣٥٢ - ٣٦٦ Liberius) قد بدأ فى ممارسة هذا الحق ، ولو أن أقدم ما حفظ لنا من هذه القرارات يرجع إلى سنة ٣٨٥ فى عهد البابا سيريكىوس (Siricius) . وبعد سيريكىوس بستين سنة - عندما كانت الامبراطورية الغربية تعاني سكرات الموت - أيد الامبراطور فالنتينيان الثالث (٤٤٥) رسميا ذلك المطلب الذى يدعو إلى تمتع البابا بالسلطة التشريعية للكنيسة ، ولكن بعد مجلس سارديكا بوقت ما ، استعمل الامتياز الجديد بحرص شديد ، إذ لزم بابوات تلك الفترة كل الحذر ليجعلوا لإجاباتهم التى يفتون بها مأمونة العاقبة ، فهم يطمنون مراسلهم أن روما لا تفرض أى بدع جديدة ، وأنها لا تجترأ على البت فى أية مسألة لم تتناولها الروايات الماثورة ، وأن روما لا تعدو أن تكون منفذة لأمر شرعى وضعته على عاتقها المجالس العامة .

أما أولئك الذين أظهروا احترامهم للملأبات روما فقد عمرتهم المجاملات ، وهذا قرار إنوسنت الأول (٤٠٢ - ٤١٧)

الذى يبدأ على النحو الآتى :

« أخانا العزيز

إن قواعد الكنيسة فى الحياة والسلوك لمعروفة جيدا لقس فى منزلتكم ومقامكم ، ولكن بما أنكم ألحتم فى سوءالنأ بخصوص القاعدة التى توصى بها كنيسة روما ، فإننا نلجى رغبتكم ونرسل إليكم مع هذا قواعد النظام موضوعة بالترتيب .

ومن الناحية الأخرى لم تترك أية فرصة للفت النظر إلى سيادة روما . فقد كتب البابا سيريكىوس (٣٨٤ - ٣٩٨) فى أحد خطابه : « نحن نتحمل أعباء كل أولئك المضطهدين ؛ إنه الرسول بطرس الذى يتكلم فى شخصنا » .

وخلال العبارات الخصوصية الداخلية التى تفوه بها أولئك البابوات كان يجرى شريان من التعالى والاعتداد بالنفس ، وفى خطابات ليو الأول ومقالاته (٤٤٠ - ٤٦١) تكاد تسمع لهجة الأمر « أنت بطرس » (Tu es Petrus) بين السطور ؛ فنحن هنا أمام الحاكم الرومانى يحدث شعبه الرومان . إن كبرياء الامبراطورية يتخذ شكلا جديدا بين أنقاض تلك الامبراطورية الزمنية التى بناها قداماء الرومان الوثنيون .

وفى ذلك الاضطراب العام الذى أحدثته الاغارات الجرمانية عظمت أهمية البابوية للدرجة كبيرة ، إذا قورنت بتلك الكنائس الغربية الأخرى ، وذلك لعدة أسباب منها تدمير قرطاجنة التى كانت أقل نقاد روما رحمة ؛ ومنها تدهور الكنائس الأخرى

التريجي ، ذلك التدهور الذى كان ملحوظا جدا فى تلك الولايات حيث تحول الجرمانيون بسهولة إلى الكاثوليكية الرومانية ؛ ومنها طقيان موجة الجهل التى اجتاحت سائر الآراء عن العالم المسيحى والتى تتعارض مع فكرة سيادة روما ، تلك الموجة التى طمست معالم التاريخ الماضى للكنيسة . ولقد كان الجهل مطبقا إلى درجة أن إنوسنت الأول استطاع الادعاء - دون أن يخشى المناقضة - بأن « أحدا لم ينشئ أية كنيسة فى إيطاليا أو صقلية أو غالة أو أسبانيا أو إفريقيا سوى أولئك الذين عينهم بطرس وخلفاؤه قساوسة » . وكان هناك ثلاث كنائس فى شبه الجزيرة الإيطالية : رافنا وميلان وأكويلايا وقد رفضت هذه الكنائس بعناد أن تقر بأنها مجرد أفرع من كنيسة بطرس . غير أن الاسطورة نبث وترعرت بينما أخذ البابوات المتعاقبون يشتركون فى البعثات التبشيرية لتحويل القبائل إلى الكاثوليكية ، وإصلاح الكنائس الجرمانية .

ومن بين الأحداث الأولى التى أسهمت فى جعل العقيدة الرومانية هى المقياس لسائر البقاع المسيحية فى الغرب لا نحتاج إلا لذكر غزوات الفرنجة الكاثوليك وتحول البرجنديين رسميا من الأريوسية إلى الكاثوليكية فى سنة ٥١٦ والقوط الغربيين فى أسبانيا سنة ٥٨٦ ، ثم القضاء على الوندال والقوط الشرقيين على يد قواد چاستينيان ؛ والبعثات التبشيرية التى قام بها أجسطين إلى إنجلترا وويلفرد (Wilfrid) وويلي برورد (Willibrord) وبونيفاس (Boniface) إلى ألمانيا ؛ وكذلك

وقوع الكنيسة الفرنجية تحت تأثير بونيفاس و بين القصص—ير (Pepin the Short ٧٤٨) . وكان طبيعيا أن يزداد النفوذ الأدبي لروما في الاراضى الشمالية بإحياء الامبراطورية الغربية ، الأمر الذى كان يعنى تعاون البابا والامبراطور فى توسيع رقعة الدولة المسيحية . وقد وجد سيريل (Cyril) ومثودىوس (Methodius) رسولا السلافيين ، أنه من الضرورى أن ينبذوا الولاء للكنيسة البيزنطية وأن يضعوا المتحولين للمسيحية من السلاف تحت حماية روما سنة ٨٦٦ .

ولقد قام القديس أدالبرت (St. Adalbert) من روما ببعثته التبشيرية العظيمة التى لازمها سوء الطالع ، إلى البروسيين سنة ٩٩٧ ، وأكتسب أحد البابوات وهو سيلقستر الثانى فخر انضمام الشعب الهنغارى إلى المسيحية الغربية سنة ١٠٠٠ . وأخيرا ذهب كانتوت العظيم (Conute the Great) ملك الدانيمرك وإنجلترا إلى روما للحج سنة ١٠٢٧ ليضع ولاء رعاياه الاسكندنافيين على مذبح القديس بطرس ، وبذلك حصد البابوات ما لم يبلروا وكان المحصول رائعا ووفيرا . لم يكن الطابع السياسى أقل أهمية من سواه ، ذلك الطابع الذى أضفى على المنصب البابوى عند إحياء الامبراطورية ، فى بابوية جريجورى العظيم يمكننا أن نتبع بواحد سلطة زمنية ، ومن الطبيعى والضرورى أيضا أن يأخذ البابا على عاتقه — وهو الموكل إليه واجبات هامة زمنية مثل باقى الاساقفة — أمر حماية رومة والدوقية المحيطة بها والاضطلاع بالحكم فيهما ،

عندما نفّض الحكام البيزنطيون أيديهم من هذه المسئوليات الغير المجدية . وكان من الطبعي أن يطالب البابا بالسلطات التشريعية في ممتلكاته الإيطالية الشاسعة ، تلك السلطات التي يتقلدها كل ملاك الأراضي كأجراء للدفاع عن النفس ضد الاضطهاد أو القوضى التي لا ضابط لها .

وقد اتخذت خطوة أخرى في أيام بين القصير ؛ فهذا الملك الفرنجي لم يشأ أن يورط نفسه في إيطاليا ، إلا أنه لما كان يتوق إلى أن يضم إلى جانبه البابوية ضد اللومباردين ، فقد اعترف بالبابا ستيفن الثاني وريثا شرعيا للممتلكات الامبراطورية المتروكة الشاغرة . وقد أيد شارلمان — ملكا ثم بعد ذلك إمبراطورا — هبة أبيه للبابوية ، ولم تكن في الواقع سياسة جعل البابا حاكما مستقلا بالسياسة التي يحبدها شارلمان ، إذ أن مثله الأعلى في السياسة كان سياسة الإباطرة البيزنطيين . وهذه السياسة تتلخص في أن الامبراطور هو رأس الدولة والكنيسة ، والبابا هو بطريرك كافة الكنائس في الامبراطورية ، ويتتخب بموافقة الامبراطور ، ويحكم رجال الدين بمشورة الامبراطور ، ويتمتع بأقصى الامتيازات التي تخضع على أي أسقف ليمارسها على أراضي كنيسته ، ولكن فيما يتعلق بكافة الشئون الدنيوية فالبابا تابع للامبراطورية . غير أنه من الناحية الاخرى نشأ في روما رأى مختلف بصدد امتياز البابا ، فنزل زمن طويل كون البسايا جلاسيوس (Gelasius) مبدأ كان نافعا لخلفائه الذين جاعوا من بعده بفترة طويلة أكثر

ما كان له ، وهذا المبدأ يتعلق بالقوتين ، الكنيسة والدولة
ككلاهما مستمدة من الله وككلاهما لها الحق في سلطة قصوى
تباشرها في مجالها . وعلى هذا المبدأ ينبغي ألا تتدخل الدولة
في الانتخابات الاسقفية أو في المسائل التي تتعلق بالعقيدة
أو النظام ، ولا ينبغي للدولة أيضا أن تمارس سلطة تشريعية
على رجال الدين الذين هم خدام الكنيسة ، أو على أراضي
الكنيسة بما أنها وديعة لدى الكنيسة لله وللمساكين . نشر هذا
الرأى أو المبدأ على العالم ليو الثالث الذى كان سببا في إقامة
نصب من الفسيفساء في قصر لاتيران يمثل في مجاز علاقته
بالامبراطورية فيرى القديس بطرس وهو جالس على عرشه
المرتفع وإلى يمينه ويساره يجثو كل من شارلمان وليو في وضع
يبدوان فيه كأنهما يتسلمان من القديس بطرس الوشاح
(Fallium) والعلم (Gonfalon) رمزى منصبيهما على التعاقب.

ولم يقبل أحد من الأباطرة الاقوياء مبدأ جلاسيوس بأكمله .
وعلى أية حال كان من العسير دحض هذا المبدأ ، طالما تمشى
مع النظرية السائدة عن الدولة . وفي حكم الكارولنجيين
المتأخرين - غدا مبدأ جلاسيوس برنامجا للمصلحين والسياسيين
من رجال الدين . وقد وضعت الأديرة الجديدة - التي تأسست
أو نظمت تحت نفوذ ديركلونى (١) - نفسها تحت حماية

(١) أسس ديركلونى ولیم دوق اقطاعيا سنة ٩١٠ . ويرجع لروساء هذا الدير
الفضل في حركة اصلاح شاملة تمت الكنيسة والمجتمع الغربي في القرن الحادى عشر. المترجم

البابا الخاصة وبذلك نجت من الأعباء الدنيوية . وقد هالت السلطات الدينية الوطنية لوثائق إيزيدور المزيفة باعتبار أنها ميثاق لتحرر الكنيسة . وقد اتخذ البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) موقفه على رأس الحركة الجديدة ، وأضنى عليها تطورا ملحوظا عندما أكد ولايته وسلطته على الفاسق لوثير الثاني (٨٦٣) . على أن نيقولا قد توفى قبل أن يتمكن من عرض أمثلة أخرى على دعواه بالسيادة - حتى على الملوك - في الشئون الخلقية وشئون العقيدة . وفي الفترة الواقعة بين نيقولا وبين هيلدبراند - أى من سنة ٨٦٧ إلى سنة ١٠٧٣ - لم يوجد بابا له من القوة ما يكفى للقيام بعمل مماثل ، فقد شغلت البابوات ممتلكاتهم في الدنيا ونزلت بهم إلى مستوى لا يعلو المستوى الذى كان عليه النبلاء في المدن ، وأضحوا آلة في يد الأحزاب . ولم يكن البابوات فيما بين سنة ٨٦٧ - ٩٦٢ سوى مجرد أمراء إيطاليين أقوياء ، ولكنهم ارتدوا إلى ذلك المستوى المنحط عقب فترة الملوك السكسونيين الذين حكموا من سنة ٩٦٢ إلى سنة ١٠٠٢ م ؛ ففي فترة الأربعين سنة هذه كان فيها ومضات تنبئ بمستقبل أفضل ؛ إذ تبنى البابا الألماني جريجورى الخامس (٩٩٦ - ٩٩٩) حركة الإصلاح التى بدأت في كلونى حينذاك ؛ ثم شارك جربرت أوريلاك ذى المواهب العديدة في العلم والرياضة والخطابة والفلسفة والسياسة صديقه وتلميذه أوتو الثالث في أحلامه الخيالية بعد أن اعتلى كرسى البابوية باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) ،

وأخيرا بنى أحلاما أخرى لنفسه دارت حول البابوية أكثر مما دارت حول الامبراطورية ، فقد رأى سيلفستر بعين خياله ، البابوية على رأس اتحاد يضم الممالك المسيحية ، غير أن القدر لم يكن أرأف به مما كان بأوتو ، فلم يطل به العمر إلا سنة واحدة بعد وفاة راعيه الفتى أوتو الثالث .

الفصل السادس

الكنيسة الهلديراندية

إن طول الفترة بين عصرنا الحديث والمسيحية الوسيطة ليجعل من العسير أن نفتق أثر خطانا إلى الوراء بغير أن نبذل مجهوداً لنقف على المركز الفكري لأعلام العصور الوسطى من أمثال القديس برنارد (١٠٩١-١١٥٣) والقديس فرنسيس (١١٨٢-١٢٢٦) وتوماس كيمبس (١٣٨٠ - ١٤٧١) (Thomas a Kempis) صاحب رسالة « انتهاج نهج المسيح » (Imitatio Christi) وبصرف النظر عن الصعوبات التي تكتنف التعبيرات الغير العادية، فقد أصبحنا بعيدين عن الآراء التي كانت عندئذ آراء شائعة ؛ والمعتقدات التي كانت تعتبر فيما مضى واضحة بذاتها ورئيسية، تكاد تقترب الآن من النطاق الخارجى للفكر التأملى باعتبارها مجرد إمكانيات ، وباعتبارها أحداً من الحقيقة لم تثبت ولا يمكن إثباتها . ومن الجائز أن عقائدنا لا تستقر على قاع سليم من الإثبات المنطقي ، ولكنها صيغت للإجابة على الشكوك ولتعليل الحقائق التي تجاهلتها النظريات الوسيطة . ونحن في صياغة هذه العقائد قد اضطررنا تارة إلى إعادة النظر في الآراء الوسيطة وتارة إلى هدمها ، تلك الآراء التي تتعلق بالله وبالعالم وبالبشر وبالقانون الخلقى .

ليس هذا مجالا لنقد الدين في العصور الوسطى ، ولكن إذا

لم نحصل فى الأذهان بعض المظاهر الضرورية لنظام الفكر الكاثوليكي ، فسنضل الطريق الذى يودى إلى معرفة سياسة الكنيسة التى سادت القرنين الثانى عشر والثالث عشر . إن برنامج البابوات العظام من جريجورى السابع إلى بونيفاس الثامن لا بد وأن يبدو نسيجا من المتناقضات ومن الأطماع الغير المعقولة ومن الافعال التى لا يمكن الدفاع عنها ، ما لم ندرس هذا البرنامج بالنسبة إلى علم اللاهوت الذى يبعد عن المسيحية البدائية بعده عن عقائد وفلسفات العصر الكلاسيكى القديم .

وأول مادة فى هذه الفلسفة الدينية هى وجود إله وهو - وإن كان لا يعزب عن شئ وقادراً على كل شئ - لا يبدى نفسه مباشرة لبنى الانسان الذين خلقهم ليعبوه ، وهو لا ينظم الكون بحيث تعبر الحوادث دائماً عن مشيئته وغرضه . خلق الله الانسان ذا طبيعة آتمة وأباح أن تغزو عالمه العقول الشريرة بالقوة والخبث الخارقين للعادة ، تلك العقول التى تحرض الانسان على التدمير وتعكف على قلب النظام الالهى الذى هى جزء منه . والله جواد إلى أقصى حدود الجود ، ومع ذلك فهو لا يظهر أقصى حده لهذه الصفة إلا إذا استنزل الناس عونه بالصلاة ، وكثيرا ما يجد لطفه تعبيراً فى المعجزات بمعنى إيقاف أو عكس عمل القوانين العامة التى وضعها الله نفسه لتنظيم الكون ومصائر بنى الانسان . والله يحيطه الابهام ، وهو غير مفهوم ، ومع ذلك فإن ضل الانسان فيما يتعلق

بطبيعة وجوده فهذا أكبر الخطايا حيال جلال الله على الاطلاق .
وهدف الحياة الدينية هو الاتصال الشخصى به ، والادراك
البديهي والتسليم طوعا لمشيئته ، والرويا السعيدة لفضائله وعظمته .
واكن لا يمكن الوصول إلى هذه الحالة من السعادة بمجرد
ضبط النفس ، فلا تفيد الصلاة والتأمل والاعمال الطيبة الفرد
المنزول الغير المتعلم إلا لتفتقر حالة من الجهل العضال . أما
السييل إلى معرفة الله فلا يمكن سلوكه إلا عن طريق الدين
والدين يعنى قبولاً لا ريب فيه للتجلى المزدوج لنفسه الذى
وضعه فى الكتاب المقدس وفى تقاليد الكنيسة . وهذان الشطران
من التجلى فى الواقع قد اندمجا فى واحد بالقول إن الكنيسة
هى الوحيدة القادرة على اعطاء تفسير جازم للكتابات المقدسة ،
وعلى الكنيسة يتعلق خير الفرد وخير العالم ، وبلون الاشتراك
فى أسرارها المقدسة يتر الفرد إلى الأبد من الله . وبلون
صلوات الكنيسة فإن موجة قوى الشر لا يمكن كبح جماحها
بتكرار أفعال التوسط المعجز ، بل تكون الموجة من المد بحيث
لا استطاع مقاومتها ولا منعها من أن تغمر الجنس البشرى .
ومجتمع تقع على عاتقه مثل هذه الواجبات الضخمة ،
وهو الآلة الوحيدة للإرادة الإلهية الذى يقدم الضمان الوحيد
لخلاص الروح - مجتمع هذا شأنه ، من الواضح أنه لا بد وأن
يكون أسمى من كل القوى الدنيوية . إن الوضع سيكون
شاذاً لو أن تعاليم الكنيسة عدلت أو أن سلطتها لحكم نفسها
قد حدثت لتلائم أطماع أو ما يسمى إدراك حاكم دنيوى ،

فالكنيسة تقف من الدولة موقف الرأس من سائر الأعضاء ، موقف الروح من الجسد ، موقف الشمس من القمر . والدولة تقوم لتهيئ الأسس المادية للمجتمع المسيحى ولتحمى الكنيسة ولتوسع مجالها ولتجبر أولئك المارقين عن قانونها على طاعته . والدولة قد رسمها الله ولكن بمعنى أنها فقط حالة ضرورة لوجود الكومنولث المسيحى . والدولة منطقيا يجب أن تكون خادمة الكنيسة ، تعمل بسلطات مستمدة من الكنيسة وبتوجيه منها .

غير أن النظريات مهما كانت منطقية ، لا بد وأن تتمشى مع الحقائق أو تخفى فى غياهب الخيال . لقد كانت سلطة الكنيسة الهلدبراندية عرضة للتقييد الخطير ، فى بعض الشئون الهامة كانت السلطات الدينية القومية تناصر الدولة ضد البابا ، فعلى هذا النحو مثلا مطالبة المجلس البابوى بفرض ضريبة على رجال الدين وبتخلى حقوق رؤسائهم ، هذه المطالبات حدثت بين الحين والآخر باتفاقيات أو بنشرى دنيوى مثل القوانين الانجليزية (Praemunire, Provisors) التى حرمت البابا من حق تعيين رجال الدين فى المناصب الشاغرة بالكنيسة الانجليزية ، ومنعت سريان سلطة البابوية القضائية فى إنجلترا . أما حينما وقفت هيئة رجال الدين جميعها جبهة متحدة استطاعت تأييد أى مطلب من المطالب حتى ولو لم يساير العقل . فمثلا كان من صالح رجال الدين أن يكون للكنيسة الحق المطلق فى محاكمة المدنيين منهم ، ذلك الحق

الذى فرض حتى على حاكم قوى حاذق كهنرى الثانى ملك إنجلترا . واكن نجاح مطالب الكنيسة كان يتوقف على رأى العام الذى كان من العسير تحريكه ، لا لأن الرجل العادى كان ناذرا أو معاديا لرجال الدين ، واكن لأنه كان غير منطقي ويعوزه التصور فلم يكثرث لأى برنامج من برامج الإصلاح لا تبرره ساسلة طويلة من الاستدلال العقلى، إذ كان يكره التطورات العنيفة ، ويشعر أن الدولة باعتبارها الضمان الأخير للنظام الاجتماعى لا بد وأن تنال تأييده حتى ولو تعارض ذلك مع اتساق النظريات اللاهوتية . وإلى أن يهيج من المستطاع إقناعه بأن المسائل الخلقية فى خطر فهو يرى أن صدور قرار بحرمان مليكه أو قرار القطع ضد وطنه أمر خطير أو لا جدوى من ورائه ، ونظرا لافتقار الكنيسة إلى تعصيد الناس فقد فشلت فى تحقيق مطالبها الهامة كتلك المطالب التى تتعلق بإعفاء ممتلكاتها فى البلاد المختلفة من الضرائب العامة وباختصاصها فى الحكم فى قضايا العقود التجارية . وأكثر من هذا أن منعت الكنيسة من إنشاء محاكم التفتيش فى دول ، لو أن هذه المحاكم أقيمت فيها لوجدت الكثير من العمل .

ومع ذلك فبالرغم من انقسامات رجال الدين وجمود الرأى العام ، فقد كانت «حرية الكنيسة» مثلا أعلى يستوجب الولاء العام ، وكان يتعين على أشد المعارضين لامتياز الكنيسة أن يبين أن سياسته لا تنطوى على هجوم حقيقى على تلك الحرية ، ولإلا فهزيمته محققة . ارتفعت الصيحة من أجل الحرية ثلاث

مرات في فترة مائتي سنة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة ،
وقد انتهت ثلاث مصادمات طويلة بهزيمة أشد السياسيين عزما
ودهاء ممن تولوا عرش الامبراطورية . هؤلاء السياسيون هم هنرى
الرابع (١٠٥٦-١١٠٥) ، وهنرى الخامس (١١٠٦-١١٢٥) ،
وفردريك بارباروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) ، وفردريك الثانى
(١٢١٢ - ١٢٥٠) . وأولى تلك المصادمات العنيفة هى الخلاف
حول إصلاح رجال الدين الوطنيين وتحريرهم من سلطة العلمانيين .
وقد دفع هنرى الرابع ثمنا لتمسكه بحقه وبما جرى عليه العرف
بتسليمه الشائن ولو تسليما ظاهريا فى كانوصسا (Canossa)
سنة ١٠٧٧ وبتعرضه للمهانة التى لم يسبق لها مثيل فى أيامه
الأخيرة عندما اضطر - وهو سجين ولده - ليس فقط إلى
التنازل بل وإلى توقيع إعراف بارتكابه ذنوبا شائنة تنافى
الدين والخلق . ولما أحيا هنرى الخامس مشروعات أبيه الذى
لقى على يديه الغدر والخيانة ، اضطر تحت ضغط الإغواء إلى
أن يعقد إتفاقية فورمز (Worms) سنة ١١٢٢ ، وهذه الاتفاقية
لا تعدو الهزيمة المطلقة للامبراطورية لأن الحقوق التى تنازلت عنها
الامبراطورية فسرت بالنظر إلى اللفظ أكثر مما فسرت بالنظر
إلى الروح . وفى الصدام الثانى كان موضع الخلاف المباشر
هو حرية البابا فى انتخاب رجال الدين ، وهذا الخلاف كان
يترتب عليه الإجابة على السؤال النهائى بصدد ما إذا كان البابا
أو الامبراطور هو الذى يصوغ سياسة الكنيسة ، وقد اضطر
فردريك براباروسا - بعد شقاق دام سبعة عشر عاما - إلى

التسليم بحقوق ترجع إلى عهد شارلمان ، واضطر أيضا إلى أن يعقد صلحا مع البابا اسكندر الثالث الذى كان فردريك قد أقسم على عدم الاعتراف به مطلقا (معاهدة أناني Anagni سنة ١١٧٦) . ولما ضم هنرى السادس بن فردريك برباروسا مملكة صقلية إلى الامبراطورية بزواجه من كونستانس وارثة العرش النورمانى ، بلز البثور لنزاع جديد وأورث فردريك الثانى الفكرة المثالية الخطيرة وهى فكرة لإتحاد إيطاليا تحت حكم المهونشتاوفن . وقد أصبحت إذ ذاك حرية الكنيسة تورية على الاحتفاظ بالسلطة الزمنية وعلى مشروع إيطاليا الفدرالية التى تدين بالولاء للسيادة البابوية . وفردريك الثانى الذى كان أدنى إلى النجاح فى سياسة أبعد مدى من سياسة أى من أسلافه ، قد أنهكه تعاقب مرات النجاح والانتكاس وترك أولاده وحفيده ليحصلوا معه ول الفشل المير الذى لم يرغب عن إدراك فردريك .

إن النتيجة الادبية تتضائل إلى نسب أصغر فى كل مرحلة من المراحل المتتالية لهذا الصراع الجبار بين الممثلين الاسمين للدولة والكنيسة ، ومن البداية إلى النهاية اعتمدت البابوية لإعتدادا كبيرا على حلفاء كانوا يخدمون أغراضهم الخاصة تحت اسم البابوية . فالامراء الالمان ونورمانيو جنوب إيطاليا وصقلية ، والقومونات الومباردية ، كل أولئك ساهموا بدرجات متفاوتة فى هزيمة الإباطرة الالمان . فالامراء الالمان اضطروا هنرى الرابع إلى أن يمشى على ركبتيه فى لحظتين حرجيتين أثناء حكمه ،

وقد ظلت غالبيتهم ترفع بعناد عن الاشتراك مع بربروسا في حروبه الايطالية ، وفردريك الثانى الذى حاول أن يشترى حيادهم بالتنازل لهم عن امتيازات سخية ، وجد نفسه أمام ثوار ألمان يطالبون بالعرش في أواخر حكمه (١٢٤٦ - ١٢٥٠) حين بدأ الموقف في إيطاليا يتغير في صالحه. وقد تدخل النورمانيون أكثر من مرة في حروب التقليد العلماني لحماية بابا لاجئ أو لإنقاذ روما من الجيوش الالمانية ، أما اللومبارديون - كما سيجيء ذكرهم في مكان آخر - فقد كانوا الحائل الرئيسي الذى حال بين روما وفردريك بربروسا ، وبين فردريك الثانى وألمانيا . وكان شارل أنجو آخر أنصار القضية البابوية وأقدرهم كفاءة ، وشارل هذا يذكر في التاريخ باعتباره رائد سيامبي عصر النهضة الدين ليس لهم وازع من ضمير أو حياء . ومع ذلك ، إذا سلمنا بنفع تلك المحالفات ، بقى السؤال : لماذا وجدت القومونات ووجد الاقطاعيون الثائرون والمغامرون الذين يجرون بحثا عن ممالك ؟ لماذا اكتشف هؤلاء أن مما يستحق اهتمامهم أن ينخرطوا في خدمة الكنيسة متحملين القيود التى تأتي لا محالة في أذيال مثل تلك الخدمة ؟ إن القوة الحقيقية للكنيسة لتكمن في نفوذها الادبى . لقد كانت حفنة من رجال الدين هم الذين كرسوا أنفسهم قلبا وروحا لمثل أعلى لمجتمع أقامته الكنيسة . على أن مثلها الاعلى كان في امتلاكها الميدان ، وقد يتعرض هذا المثل الاعلى لنقد سلبي مريب من فيلسوف منزول أو من طائفة من المراطقة أو من شخص

محافظ يتألم تحت وطأة عجرفة كهنوتية، ولكن حينما عبثت قوى الكنيسة وقفت الغالبية العظمى تهز أكتافها غير مبالية . إن طريقة روما قد لا تكون طريقة المسيح ، ولكن إذا كانت الكنيسة الرسولية قد أخطأت تفسير عظات الكتاب المقدس والسنة ، فمن ذا الذى يستطيع أن يعلم قاعدة أفضل للحياة ؟ فكنيسة عظيمة خير من لا كنيسة على الإطلاق . وفى القرن الثالث عشر لما كانت الضرائب التى فرضتها البابوية موضوع تدمير فى كل دولة أوربية ، تقدم فردريك الثانى ووضع نفسه نصيرا للصالح العام واستجار من البابوية بالرأى العام . نطق فردريك صدقا عندما قال إن الدور عليه الآن، وإن دور الملوك والأمراء سيأتى عندما يخلع الامبراطور عن العرش . لقد كان لبلاغته بعض الأثر ، ولكن زملاءه الملوك لم يستطيعوا أو لم يشاءوا منع البابا من جمع الضرائب من رجال الدين فى دولهم ، ومن تجنيد رعاياهم لشن حرب صليبية على الزعيم الدنيوى للدول المسيحية ، الذى كان كل ما جناه أنه قابل بين مصالح الدولة وما سعى بحقوق الكنيسة .

لم يكن مجرد صدفة أن يتفق ازدياد مطالب الكنيسة مع العصر الذهبى للجماعات الدينية ، وأن تتكون السياسة الهلديبراندية عندما كانت الحركة الكلونية تنتقل من حدود فرنسا إلى جميع الدول المجاورة، وأن يكون البابا اسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١) معاصرا يافعا للقديس برنارد ، وأن يجيئ صراع الموت بين الامبراطورية والبابوية فى أعقاب تأسيس جماعتى الإخوان الفرنسيسكان

والإخوان البومينكان . فالرهبان والنسك كانوا جنود الكنيسة .
وليس معنى ذلك أن الجماعات الدينية في العصور الوسطى
قد كرمست للدعاية السياسية بحماس الجزويت ونظامهم في
القرن السادس عشر ، فالخدمات التي أداها الكلونيون والمسترشيون
والدومينكان والفرنشيسكان للبابوية المحاربة كانت غير ملموسة
وغير مباشرة . وصحيح أنه قد عُهد من آن لآخر إلى تلك
الجماعات بمهام خطيرة كجمع الأموال والدعوة إلى حرب
صليبية والتأثير على الملوك وتحويل هرطيق إلى المسيحية أو اضطهاده
فقد كان القديس برنارد - مؤسس كليرفو (Clairvaux)
وباعث الروح الديرية - هو الوحي الذي لجأ إليه البابا بعد آخر
طالباً الارشاد طيلة عشرين عاماً (١١٣٣ - ١١٥٣) . غير
أنه حتى في عصر القديس برنارد ، وحتى لما كان البابا الذي
يترجع على عرش البابوية هو صنيعة القديس برنارد أو تلميذه ،
كان هناك اختلاف معين بين النظريات التي كان يعتنقها
وبين واقع سياسة الكنيسة ؛ فمثلاً لم يكن من رأى القديس
برنارد أن ينظم الحملة الصليبية الثانية ولكنه دعا إليها إحتراماً
لرغبات البابا إيوجنيوس الثالث (Eugenius III) ، ومن
الناحية الأخرى ، اتخذت البابوية لإزاء رالدى المذهب المدرسى
موقفاً كان يعتقد القديس برنارد أنه موقف تساهل دون أى
مبرر . كانت روما أكثر سعة في مداركها من كليرفو ،
وأكثر تيقظاً تجاه الحقائق ، وأكثر تجربة في السياسة والدبلوماسية ،
بينما تعهدت كليرفو فكرة نبيلة للحياة الروحية تتفق مع منع

الكنيسة من الوقوع في الحبالل الدنيوية . إن السجايا التي جعلت الراهب عظيم القدر باعتباره موجهاً للرأى العام ، جعلته أيضاً عاملاً عظيماً شديد المراس في النشاط السياسى . لقد كان عظيم الفائدة كمبعوث أو ممثل فكرة دينية تهاجم أسس الدولة الدنيوية هجوماً خافياً ولكنه مؤكد . إن مؤسسى الجماعات الديرية الكبيرة ، سواء وجلدوا مصدر إلهامهم في نظام القديس بندكت كما فعل القديس برنارد ، أو — بالآخرى — جاهدوا في اتباعهم — اتباعاً حرفياً — رسالة المسيح التى أناط بها رسله الاثنى عشر كما فعل القديس فرنسيس ، قد رجعوا إلى ماض لم تكن فيه الدولة والقيصر شيئاً بالنسبة للمسيحى سوى أنهما السلطانان الكائنتان . إن النظام الديرى أو الاستجدائى الذى وضع كنموذج للمجتمع المسيحى ، كان رابطة اختيارية يحكمها الضمير العام كما يتمثل في إرادة الرهبان الممثلين ورئيسهم المنتخب . وكانت طاعة الناسك أو الراهب مفروضة على النفس ونتيجة لعهد مقبول فقط ممن يشعر بالنداء الداخلى ، وقد اختبر هذا النداء في امتحان عسير . وبموجب تسليم النفس يصبح الراهب فاقد الاحساس بالنسبة للعالم أى مواطن للملكوت السماء على الأرض . ولا يمكن أن تطلب منه واجبات دنيوية قانوناً ؛ فهو قد خرج عن نطاق اختصاص الدولة ودخل في اختصاص الله . وقد طالبت الجماعات الدينية بحقها في أن تكون بعيدة عن أى لون من ألوان الخضوع اللهم إلا الخضوع للكنيسة التى يمثلها البابا . ومع أن تلك الجماعات كانت بعيدة عن أن

تعتبر الدولة ابتكارا لا لزوم له - إذ نظرت إليها باعتبارها آلة قديمة لكبح انفعالات العلمانيين التي لا ضابط لها - فقد طالبت بأن يكون جميع خدام الله الآخرين من رئيس الأساقفة إلى أدنى قسيس في النظام متمتعين بنفس الإعفاء الذي يتمتعون به بشرط قبول نفس الالتزام الثاني وهو الفقر والطاعة والطهارة . ولهذا وجدت الحركات الرئيسية لاصلاح رجال الدين في العصور الوسطى أكثر مشايعها تحمسا في الجماعات الدينية ؛ ونفس المدرسة من المصلحين أعدت القاعدة النظرية لكل مطالبة جديدة بالحصول على امتياز . لقد كانت تلك الجماعات بالنسبة للكنيسة بمثابة الملح للطعام طالما احتفظت بروح مؤسسيها ، غير أنها كانت مسئولة أيضا عن المطالب الغير المعقولة منطقيا التي اتسمت بها سياسة الكنيسة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وكان وايكليف (١٣٢٠ - ١٣٨٤ Wycliffe) - أعظم نقاد العصور الوسطى للنظرية الكهنوتية - كان على حق في مهاجمته للجماعات الاستجدائية باعتبار أنها تمثل كل ما هو ردي جدا في النظام الكهنوتي في عصره .

وطبيعى أن الروح الديرية غالبا ما عولمت باعتبار أنها تضاد مطلق للسياسة العلمانية التي تعارضها الروح الديرية أشد المعارضة . ولكن الروح الديرية والسياسة العلمانية نشأتا في الحقيقة من نفس منبت عدم الرضا الذي كان يقوم كلية على العقل والسخط على حالات الفوضى التي سادت العصور الوسطى الأولى . إن المصلح الدينى ، وقد أدهشته وأذهلته آثام الناس وحظوظهم

المتباينة المتباعدة اعتقد أن عالما على هذه الصورة من السوء لا بد وأن ينظر إليه باعتباره محنة لعقيدة المؤمن . لقد عاش الانسان معذبا في هذه الحياة حتى أنه ليلحظ القيمة العظمى للحياة الاخرى . لقد كان الشر يحوطه من كل جانب حتى أنه لتعلم أن يكره الشر . لقد وُضع في مجتمع لكى يدرب نفسه على أن يسيطر فيه على غرائزه البهيمية التى لا تتفق مع النواميس الادبية ؛ تلك الغرائز التى يوقظها المجتمع . لقد كان المصلحون السياسيون - على الاقل في حالاتهم التى يخلون فيها من الأغراض - ينعشهم نفس الاعتقاد في عناية إلهية حكيمة ، غير أنهم خرجوا منها باستنتاجات مختلفة ، فالله الذى خلق الانسان ككائن اجتماعى لا يمكن أن يكون قد قصد أن يظل المجتمع غير عادل على الدوام، بل لا بد وأنه قصد أن المجتمع ينبغي أن يقترب من فكرة العدالة التى أظهرها الله مهما كان الاقتراب غير تام . إن الدولة نظام قدسى ومن أجل هذا يتعين على الانسان أن يبذل جهده لإصلاح الدولة . والحاكم الديوى - باعتباره ممثل العدالة - هو خادم الله بل وبمعنى آخر قسيسه . وفردريك الثانى - الذى اتهمه معاصروه بأنه مرتد عن المسيحية وكافر - لم يعبر إلا بصيغة جريئة عن تقليد الملكية في العصور الوسطى عندما وصف نفسه - أو سمح لمتلقيه بأن يصفوه - بأنه هو حجر الزاوية في الكنيسة ، وقسيس الله والمسيح الجديد .

وقياسا على هذا فاهراطقة والمفكرون الذين كان نقدمهم للكنيسة أشد خطورة من هجمات الدولة العلمانية عليها . - يشتركون

مع خصومهم في أكثر مما قد توحى به البنا طبيعة الخلافات الطويلة التي أثاروها . لقد كانت هناك في ظل تاريخ العصور الوسطى حرب من الجدل والاضطهاد ضد الفكر الحر ، وقد تطورت تلك الحرب خطوة بخطوة مع النزاع بين الامبراطورية وبين البابوية ، وظهرت الجماعات الدينية في تلك الحرب كإبطال المذهب الارثوذكسى القديم . إن برنجر التورى (٩٩٨ - ١٠٨٨ Berengar of Tours) - الذى تحدى نظرية الاستحالة وبذلك عرض للخطر أساس النظرية الكهنوتية - عاش في عصر كانت فيه البابوية المتجددة تتسلح للحرب العلمانية ؛ لقد كان هلدبراند نفسه هو الذى نطق بالحكم الأخير على أول رئيس للهراطقة . وقد رأى عصر هنرى الخامس وعصر اتفاقية فورمز نشأة مذهب الطهرين (Puritanism) في العصور الوسطى في لانجلوك والفلاندرز . وفيما بين اتفاقية فورمز وانشقاق فردريك برباروسا يقع عصر أبلارد - الكاتب الميتافيزيقي الحر الذى جعل من الفلسفة حديث ناصية الشارع وسوق المدينة - وأرنولد برشيا (Arnold of Brescia) الذى طالب بأن الكنيسة يجب أن تترد إلى الفقر كما كانت أيام الرسل . وإلى أيام شباب فردريك الثانى تتمى الحرب الصليبية الألبجنسية ، والحملة العديدة الجلوى التى شنت ضد ابن رشد وأرسطو ، والبحث عن الهرطقة الذى تطوع به مفتشون في إيطاليا وألمانيا . وبينما كان نفس الامبراطور يحاول الوصول إلى نتائج مع إنوسنت الرابع ، غدا ديوان

التفتيش البابوى فرعا مستديما للتنفيذ الكنسى ؛ وقد أخذت
الجماعات الاستجدائية - التى زودت الديوان بالمفتشين - على
عائقها فى نفس الوقت المهمة الشاقة وهى تحويل الجامعات
عن دراسة أرسطو إلى الاعتقاد فى المذهب المدرسى المسيحى
الذى صاغه البرتوس ماجنوس (Albertus Magnus)
وتوما الاكوينى (Thomas Aquinas) وكانت أسلحة
هذا الجدل الطويل المتعدد الجوانب قطة خشنة مثل العصر
الذى ابتكرها : فهى تنديد جاف وتناقض وقع من جهة ،
واتهامات شائنة وتوبيخ روحى والسيف والسجن والوتد من
جهة أخرى . ذلك لأن موقف العصور الوسطى لإزاء الهرطقة
لا هوادة فيه ولا لين . فالارتياح فى أمر من الامور الذى
قالت فيه الكنيسة كلمتها القاطعة يماثل ارتكاب خطيئة السحر
أو عبادة الاوثان . وبقاء الناصر كان اهانة للمقام العالى وتهديدا
لخلاص البسطاء ؛ فهذا الناصر كان عضوا مريضا فى جسم الدولة
يتطلب البتر السريع ، ومع ذلك لم يكن أولئك الخارجون على
الكنيسة إلا من المؤمنين ، ولم يكن لأحرار المفكرين من المدرسين
- إذا تغاضينا عن قلة من الشواذ الغامضين - رغبة إلا فى
إيجاد أساس عقلى للعقيدة العامة أو استبعاد بعض المواد المعينة
التي وسموها بأنها مجرد إضافات لا مبرر لها فى النصوص
الاصلية وذلك بناء على أسباب أدبية وتاريخية . وكانت جريرة
برنجر أنه هاجم مذهبا لم يقطع فيه برأى خلال المائتى سنة الماضية ؛
أما جريرة أبلارد فهى أنه عرض نظريات بصدد بعض النقاط

التي أغفلتها السنة القديمة أو كانت على خلاف معها .
أما فيما يتعلق بالشيعة (Sectaries) فقد كانت جريوتهم
في العساة تقوم على المبالغة في مذهب أو آخر من المذاهب
الثلاثة التي اعترفت بها الكنيسة على شكل معتدل . وأولئك
الشيعة كانوا إما - كرجال ليون المساكين - يرغبون في أن
ترجع الكنيسة إلى البساطة البدائية ، وإما - كالالبجنسيين -
أسهبوا في موضوع التناقض في تعاليم بولس بين الروح والجسد ،
وذهبوا إلى أقصى الحدود في احتقار الديرية للروابط الدنيوية ،
ورفعوا من قدر الشيطان المسيحي ووضعوه في مصاف إله
شريز فائق الفلسفة في الكون المادى ؛ وأخيرا كيوياكيم
كورازو (Joachim of Corazzo) وسجاعة الرهبان الصغار
(Fraticelli) طوروا الفكرة الرئيسية للمتصوفين المعتدلين
وفكرة الاعتقاد في النور الباطني ، وناحوا بأن التمسك بحرفية
النص تقتل بينا الأخذ بروحه يمنح الحياة . وهو جز القول إن
الجميع كانوا آتمين لا لنبلهم المسيحية ، ولكن لأنهم فسروا
تعاليم المسيحية بمعنى حرمة الثقة . وتحت كل هذه الخلافات
كانت هناك وحدة ، ووراء ذلك الجدل اتفاق . وليس هناك
نزاع أقسى ولا مهاترات أشد ظلما من نزاع ومهاترات
رجال ينظرون إلى نفس العقيدة من زوايا مختلفة .

ويجب أن نتذكر - احقاقا لحق الكنيسة الرسمية - أنه
سواء أكان تعامل الكنيسة مع ملوك أو هراطقة ، فلمن طبيعة
سلطتها الخاصة قد أرغمتها على أن تعمل بوسائل عجزت عن

السيطرة عليها ومع ذلك وضعت الكنيسة ثقتها فيها بدافع من اليأس .
وليس هناك تباين أشد من ذلك الذى وجد بين البرنامج المهدبر اندى
وبين الاجراءات التى تحقق بها هذا البرنامج تحقيقا ناقصا .
فلفرض التبتل على رجال الدين ، كلف غوغاء مدينة ميلان
ومدن جنوب ألمانيا بالتسفل على القسس المتزوجين . ولوضع
نهاية للسيمونية شجع الامراء الالمان على سياسة انفصال المقاطعات
ورصدت جائزة للاتهامات الزور ، وأغرى الولد على الشهادة
زورا ضد أبيه . وللحد من الهرطقة الالبجنسية سلت أنوسنت
الثالث على حضارة اللانجلدوك الزاهرة لإقطاعي الشمال الوحشين
الأخساء . وفى بعض الاحيان كان الخطأ يدرك بعد ارتكابه .
غير أن التجارب لم تستطع أن تزيل توهم الكنيسة الرسمية
بأن كل متطوع لا بد وأن يوثق من نقاء أغراضه إلى أن يثبت
العكس . ولقد اتسمت طرائق الكنيسة فى الروتين الادارى
بالجهل بالطبيعة الانسانية . وحتى إذا سلمنا جدلا بحقيقة
المبادئ التى قيل إنها تبرر محاكم التفتيش البابوية أو رقابة
محاكم الاساقفة أو حق المجلس البابوى فى الفصل فى الدعاوى
الاستثنائية ، تبرز حقيقة هامة أمام أعيننا وهى أن هذه النظم
قد نظمت وأديرت بحيث لم يكن من المتوقع إلا أساءة استعمالها
على وجه فاضح ، ولو أن مثل هذا الجهاز قام على إدارته قديسون
لكاد أن يكون محتملا ، ولكنه غدا جهازا مجحفا فاسدا إذ عهد
به إلى موظفين صغار يتقاضون الضئيل من الاجر ، ثم أن
الرقابة عليهم كانت سيئة إلى جانب اساءة اختيارهم . وإلى

حد كبير . كانت جرائم الكنيسة الوسيطة وضروب حماقتها هي جرائم بيروقراطية معقدة في دولة نصف متمدنة . ومثل ذلك الجهاز يفشل إذا ما كان شديد الطموح ؛ وليس لمؤسسيه التجربة الفنية الضرورية لترتيب مُرضٍ للتفصيلات ، وليس لديهم الاتباع الذين يستطيعون إصلاح العيوب التي تظهر في الآلة بالسكفاية والامانة التي تتطلبها تلك الآلة ؛ ومع ذلك فلأن الهدف كان هو الأبهة - إذ أن معضدى المشروع أعلنوا استعدادهم وقدرتهم على تجديد الدولة والطبيعة الانسانية - فقد نودى بهم باعتبارهم رسل نظام جديد ، وسمح لهم أن يقيموا الحجة على خيرية دوافعهم في إصلاح النظم، ولكن انتهى بهم الأمر إلى أن خلقوا شرورا جديدة دون تقليل يذكر للشرور القديمة .

غير أنه إذا كانت الكنيسة كنظام حكومى نعمة مشكوكا فيها بالنسبة لأولئك الذين منحوها ولاءهم ، فإن الكنيسة كمدار للحياة الروحية كانت تكتنفها العظمة والجاذبية اللتان كانتا وما زالتا واضحتين حتى للمتفرجين الذين يقفون عند الحافة الخارجية للمؤمن الكنيسة ؛ إننا قد نقارن الدين في العصور الوسطى بسلسلة جبال الالپ حيث يجد الرائد نفسه على منحدراتها السفلى مشتبكا في وحل وشجيرات في أدغال لا طرق فيها ، ومرهقا بجو راكد خائق ، ومهجوبا عن رؤية السماء فوقه أو السهول البهيجة تحته وكلما صعد غترقا البرية المحجوبة الكريهة ، كلما وصل المرء إلى أرض الكلاّ الفضاء التي تهب عليها الرياح ، وإلى منزل يحلله بياض السهول البكر المغطاة

بالثلج ، وإلى وديان صغيرة وقمم محلفة في الجو يكتنفها ضوء
أو ظلام غامض خفي لا يستطيع المرء تحديده كما لا يستطيع
مقاومته . ويعيدا من تحته يمتد منظر المستويات الدنيا امتدادا
عظيما لا حده ومع ذلك فهو متناه في الصغر ، وهذه المستويات —
سواء أكانت جميلة أم قبيحة — يشتد بعدها حتى ليتعذر أن
تبدو جزءا من العالم الحديد الذي يجد المرء نفسه فيه ، وهي تمس
مشاعره مسا لا يتعدى مس النقاب الرقيق والمنظر الخلقى للألوان
الزاهية ، وهي أحزمة سلاسل الجبال ذات القمم المغطاة بالثلوج .
وعلى مثل تلك المرتفعات من السمو الأدبي بنى نساك العصور
الوسطى خيامهم وانشدوا صلواتهم داعين الطبيعة لتشهد معهم
أن الله في ماكوته قريب جدا ، وأن كل شيء بخير في عالم
ما وجد إلا تلبية لكلمته . لقد كان هذا تفاؤلا نبيلًا ، والذين
أعتقوه كانوا هم أصدق شعراء العصور الوسطى ، لأنهم
عبروا عن تخيلاتهم السامية بالحياة لا بالشعر . وهم لم يكونوا
فلاسفة ولم ينشدوا الفلسفة ؛ إن الجبلية التي نحس سر الأشياء
بنفاذ ليست هي الجبلية التي تروح تتسائل عن الكيفية والعلة ،
غير أن عالم أحلامهم كان على الأقل أسمى من عالمنا في أنه
قد تأسس على فيض من الاحترام دائم للحقيقة التي تكمن وراء
النقاب . إن رؤية قمم الجبال مهما حجبتها السحب لتستجوي
مشقة الصعود ؛ وكانت هناك حكمة في الدماثة التي انجنى بها
العامة أمام الأشكال والاحتفالات وقواعد السلوك الخارجى
التي أوصت بها الكتيبة المريثة ، طالبا كانوا يعتقدون أنهم على

هذا النحو قد يحملون في هذه الحياة أو في خير منها السبيل إلى تلك القاعدة السامية للخدمة التي تتمثل في خير صور تجاربهم التي — كما قال الكتاب المقدس وكما شهد القديسون — كانت الحياة والحرية الكاملة . وليس من الغريب أنهم كانوا يميلون إلى الذهاب إلى أبعد من ذلك ؛ إلى المجازفة بممتلكاتهم الدنيوية ومستقبل المجتمع تلبية لأمر أولئك المختارين الذين كانوا ينزلون بينهم من وقت لآخر كما نزل موسى من الجبل بوجه متجلّ ورسالة من إلهام جديد . وإذا كانت النتيجة مفاجئة أو يرقى لها في بعض الأحيان ، فقد كانت هناك مغامر عوضا عنها ؛ فحقيقة الرخاء ليست مفضّلة تماما على الانخراط في أمل المثالية الضائع . فلو أن المجتمع الوسيط كان أشد مما هو عليه استغراقا في الدنيوية والإلحاد ، لحاز أن يكون أكثر رخاء وأكثر استقرارا وكان دار حضانة لطبائع أكثر اتزاناً ، ومسرّحا لأعمال أكثر انتظاما ورتابة . ولو كان الأمر كذلك لكان هناك القليل لتتعلّمه من النظريات الخلقية والسياسية التي سادت العصر . إن ما يروقنا في النظرة الوسيطة إلى الحياة هو أولا : فكرة البشر باعتبارهم إخوة يترفعون عن التقسيم العنصري والسياسي ، متحدين في طلب الحقيقة ، وممثلين بروح الإحسان المتبادل والمساعدة المتبادلة ، وموهوبين بعزم أمضى وحكمة أسمى من حكمة البشر من حيث هم بشر . وثانيا : اعتقاد راسخ في سمو الحق على القوة ، وسمو الروح على المادة وسمو المصالح الأبدية للإنسانية على مطامح وانفعالات الساعة الزائلة . وما كانت

تلك التعاليم التي ينطوى عليها الإيمان لتنتقل إلى التراث الانساني
لولا المسيحية ، كما لم يكن من المحتمل إطلاقاً أن تعيش المسيحية
بدون الكنيسة ، بعد عصر شبه همجي وضعت فيه أسس عالمنا
الحديث .

الفصل السابع

الدولة في المصور الوسطى

فيما بين سنة ١١٠٠ سنة ١٥٠٠ ميلادية مر نظام الدولة في أوروبا خلال تغيرات بلغت في جملتها حد الثورة ، غير أن التغيرات التي بقي أثرها — سواء أثرت هذه التغيرات على الحسدود السياسية أو الدساتير أم لم تؤثر — جاءت على دفعات بطيئة . ولم يكن في أية مرحلة من مراحل التطور أن حدث أى طوفان عام مثل ذلك الذى جاء في أعقاب انهيار الامبراطورية الفرنجية ، والذي سيتبع مجيئ نابليون . لقد نصبت أفكار وآراء جديدة نضوجا بطيئا في العقل الوسيط . وما أن وافى القرن الثانى عشر حتى نمت القوى التي كانت تعمل للاستقرار الاجتماعى حتى وازنت قوى الهدم ، ولم يقلقل توازن القوى ثانية إلا في عصر النهضة . وفي غضون هذه الفترة كونت المصالح المكتسبة للملكية والامتياز والسلطة الدينية والديوية جبهة صامدة في وجه أنصار الفوضى والمتطرفين . فجماعة الثوار الفلاحين في شمال فرنسا المعروفة بلا چاكرى (١) (La Jaquerie) واتباع وات تيسلر (٢) (Wat Tyler)

-
- (١) وهم فلاحو شمال فرنسا الذين قاموا بثورة دموية في سنة ١٣٥٨ نتيجة للآلام التي قاسوها من جزاء غزو الإنجليز للمنطقة . المترجم
- (٢) وهو زعيم ثورة الفلاحين في إنجلترا في سنة ١٣٨١ وقد قتل في تلك الثورة في يولية من نفس السنة . المترجم

في إنجلترا والالبجنسيون في لانجلوك والمسيون (١) (Hussites) في بوهيميا كل هذه الجماعات قضت عليها جيوش المحافظين التي انضمت إلى بعضها طوعا دافعا عن النظام القائم . وبينما سادت هذه الروح بين الطبقات الحاكمة كان هناك بعض الخوف من أن تحدث ضربة فجائية ثورة من أى نوع . ففي العلاقات الدولية كما في السياسة الداخلية ، كانت هذه الدول المتينة الدعائم جامدة في العادة ، قوية في الدفاع عن نفسها ولكنها مترددة وبطيئة في الهجوم . ولم ينجب العصر غازيا ليجتاح أوروبا كالإعصار ، لأن وسائل الغزو على نطاق واسع كانت قد قضى عليها أو لم تكن قد وجدت بعد .

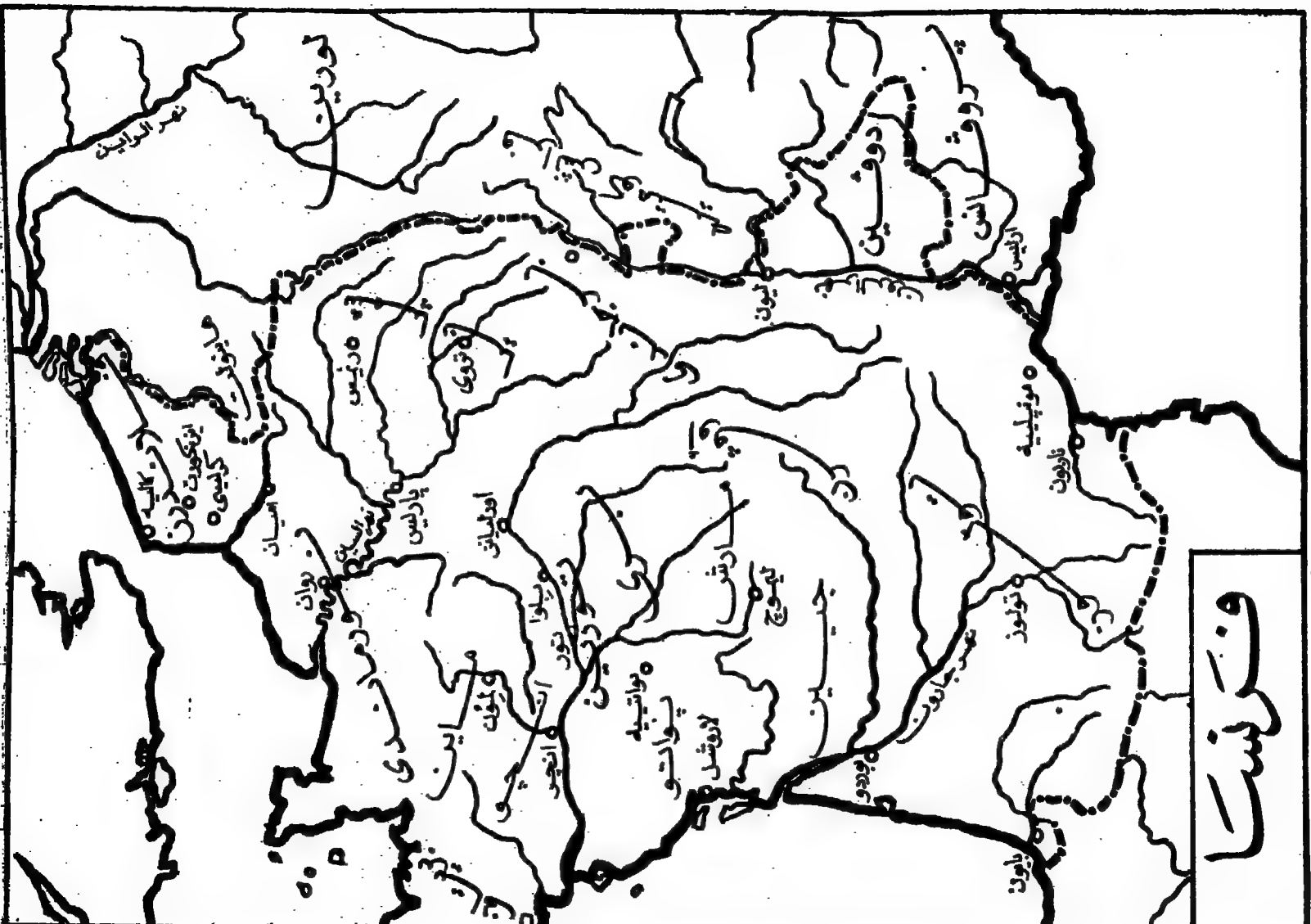
كانت شعوب أوروبا قد خرجت من مرحلة الحضارة البدائية ، ولكنها لم تكن قد انقسمت بعد إلى معسكرات عديدة مسلحة ، فالجموع الإقطاعية كان من العسير تعبئتها بل وأشد عسرا كان إبقاؤها في الميدان ، وإذا ما نظرنا إليها في أفضل صورها وجدناها سلاحا صعب المراس ؛ فجيوش عامل من الجنود المأجورين كان يتطلب عبثا من الضرائب أثقل وأكثر انتظاما من أن يجرؤ على فرضه أى حاكم أو أن يستطيع تلييته أى شعب .

(١) نسبة إلى جون هوس (John Huss) المصلح الديني الذي ولد في جنوب بوهيميا سنة ١٣٦٩ . سعى هذا المصلح إلى إلقاء بعض البدع التي كانت شائعة في الكنيسة الكاثوليكية كييع صكوك الفران ، وكانت النتيجة أن صدر ضده قرار الحرمان من رحمة الكنيسة في سنة ١٤١٣ ، ثم قبض عليه وأحرق جيا في سنة ١٤١٥ . المترجم

ومن أجل ذلك كان لحروب العصور الوسطى - باستثناء بعضها - طابع العقم والتفاهة . وأما المشروعات التي كان مبعثها الطموح إلى السلطة فقد كان مقديرا لها الفشل ، والقوى التي قضى عليها في الظاهر جيش غاز قد استجمعت قواها بمجرد ابتعاد ذلك الجيش . وموجز القول إن السياسة في العصور الوسطى على كلا المسرحين الأوربي والمحلي كانت تعنى تكرار حدوث نفس المشاكل والخلافات تكرارا دائما ، والتكرار الدائم لنفس وسائل التهدة ونفس خطة الحملة . حقا إن علم السياسة قد أحرز تقدما أسرع في الخطى مما أحرزه فن الحرب ، غير أن الإصلاحات الجوهرية التي أدخلت على النظم قد نفذت فقط في بعض المجتمعات الاستثنائية - في صقلية تحت حكم النورمان وفردريك الثاني ، وفي إنجلترا تحت حكم هنري الثاني وادوارد الأول ، وفي فرنسا تحت حكم فيليب أجسطس وخلفائه . وحتى في هذه الحالات ينطوي التقدم عادة على اتفاق وسيلة بدائية ، أو إجراء توسع على مبدأ مصطلح عليه وذلك إلى خاتمة منطقية . أما المجددون الذين يتصفون بالجرأة والإقدام مثل مونتفورت (Montfort) أو أرتفيلده (Artevelde) أو فردريك الثاني ، فقسد تعثروا وسقطوا بمجرد أن تخطوا حلقة الآراء والأفكار التقليدية . حيثئذ سيكون من أجل غرضنا أن نذكر بإيجاز ، الحوادث الهامة للسياسة العالمية ، وضروب التقدم الرئيسية التي أدخلت على نظرية الحكم التي ميزت العصور الوسطى .

إن الأحلاف السياسية الواسعة — وإن كانت تنسق باستمرار — نادراً ما وجدت ، وفي الأحوال النادرة التي وجدت فيها لم تؤد إلى أى نتيجة ملحوظة . على أن وجود بعض المصالح المشتركة كان مسلماً به ، فلم تنظر أى قوة نظرة عدم الاكتراث إلى أى حركة تهدد وجود البابوية التي كانت تمثل الوحدة الدينية ، أو تهدد وجود الإمارات الصليبية التي كانت تكون الحصن الخارجى للمسيحية الغربية ؛ ومع أن مبدأ توازن القوى لم يكن قد تبلور بعد فقد كان مفهوماً حتى ذلك الوقت أن نمو أى قوة نمواً متطرفاً يزعج القوى الأخرى حتى ولو لم تكن فى خطر من الغزو وشيك . ولذلك فكلمنا اكتسبت الإمبراطورية اليد العليا على الكنيسة ، أو كلما ظهر حشد من الأسيسويين فى الأفق ، أو كلما بدت فرنسا على وشك أن تصبح ولاية لـإنجلترا ، أو إيطاليا ولاية لفرنسا ، دق المنذرون أجراس الخطر وتبع ذلك تبادل الآراء بين الحكام ؛ فعقدت المعاهدة تلو الأخرى ، وتكون الحلف فى مقابل الآخر ، وذلك بجدية واجتهاد تماماً كما يحدث فى أى وقت فى التاريخ الحديث .

غير أن الشعوب نادراً ما كانت تتحرك ، وينتهى اضطراب الطبقات الحاكمة فى فورة من الكلام . إن من الأمور الاستثنائية أن نجد دولتين من الدول الكبيرة تتحالفان من أجل إخضاع دولة ثالثة ، كما تحالفت إنجلترا والإمبراطورية ضد فيليب أغسطس ملك فرنسا . لقد كان للقليل من المواقع الحربية فى العصور الوسطى من النتائج البعيدة الأثر مثل ما كان



لموقعة بوئين سنة ١٢١٤ (Bouvines) ، تلك الموقعة
التي يرجع لها الفضل في حصول الإنجليز على العهد الأعظم
(Magna Carta) ، كما وأن ألمانيا مدينة لتلك الموقعة
بالخريف العاصف لأمسرة الموهنتاوفن ، وتدين لها
فرنسا كذلك بضم المقاطعات التي ظلت طويلا منفصلة عنها
تحت حكم ملكي مطلق .

لقد كانت أوروبا في العصور الوسطى منقسمة إلى مجموعتين
من الدول لكل منها مصالح منفصلة ، ونظام الحكم في الواحدة
يختلف عنه في الأخرى ، ويفصل الواحدة عن الأخرى منطقة
عريضة من الأراضي المتنازع عليها تمتد من هولندا إلى ساحل
پروفانس . وهي الأراضي الشالية للمملكة الكارولنجية الوسطى .
وإلى الغرب تقع ممالك شبه جزيرة إيبيريا وفرنسا وإنجلترا
وسكوتلاندا ، هذه الممالك مرتبطة بمصالحها في تجارة ساحل
الأطلنطي ، وتشترك في حضارة كانت أفضل عناصرها من أصل
فرنسي ، ولكنها - فوق كل شيء - تشترك فيما بينها في الانشغال
بالمسائل السياسية الناشئة عن مطالبة إنجلترا بنصف أراضي
فرنسا تقريبا . وقد اشتدت المنافسة بين هاتين الدولتين - تلك
المنافسة التي ترجع في مبدئها إلى الغزو النورماندي لإنجلترا -
عندما تزوج هنري الثاني - الذي ورث عن أمه إنجلترا ونورمانديا ،
وعن أبيه أنجو وتورين - تزوج إليانورا دوقة أقطانيا بعد أن
طلقها لويس السابع سنة ١١٥٢ . وقد تطور هذا التنافس
من مرحلة إلى أخرى ، وكيف ما تعاقب على الدولتين من أقدار

وحظوظ لفترة أربعمئة سنة ، حتى أنهى شارل السابع ملك فرنسا حروبه مع إنجلترا بنصر مبین قضى به على البقية الباقية من الحامية الانجليزية في ^{جيمس} غوينين (Guyenne) وعلى الحزب الذى كان يتمسك بالولاء لانجلترا سنة ١٤٥٣ . وفى هذه الفترة كانت هناك تقلبات قاسية من الفشل والنجاح ؛ مثال ذلك طرد الانجليز على يد فيليب أجسسطس . من نورمانديا (Normandy) ومين (Maine) وأنجو (Anjou) وتورين (Touraine) وپواتو (Poitou) ؛ ثم استيلاء انجلترا على كاليه (Calais) واسترداد أقطانيا على يد الملك إدوارد الثالث والأمير الأسود ، والقضاء الذى كاد أن يكون تاما على أعمالهما بواسطة شارل الخامس وبرتراند دجسكلين (Bertrand Duguesclin) ، واتحاد تاجى فرنسا وإنجلترا سنة ١٤٢٠ الذى نتج عن انتصارات هنرى الخامس والنزاع الدموى بين حزب البرجنديين وحزب الأرميناك (Armagnac) ، ثم ظهور جان دارك رسول الوطنية الفرنسية وتجديد الحكومة الملكية الفرنسية بواسطة عنصر جديد من السياسيين العلميين . إن الغرب بأجمعه قد اهتز بهذا الصراع الزمنى الذى تمخض عن استقلال اسكوثلندا ، وفقدان نافار (Navarre) لاستقلالها ، وقيام أسرة ترستماره الجديدة (Trastamare) على عرش كاستيل . وكانت النتيجة بالنسبة لأراجون (Aragon) هى ظهور منافس جديد فى تجارة البحر الأبيض المتوسط ، وإحباط الآمال التى تجمعت حول پروقانس ولانجودوك؛

وتعريض الآمال الأخرى للخطر وهى الآمال التى كانت معقودة على إيطاليا . وفى كل مرة توالى فيها انتصار فرنسا على جيوش إنجلترا ، تغفل نفوذ فرنسا إلى الجنوب والشرق ؛ وبالزيجات أو الانتصارات الحربية التى قام بها أمراء من الدم الملكى الفرنسى ضمت أراضي جديدة إلى دائرة الدول الغربية . وقد غدت كونتيتا تولوز وپروفانس من أملاك فرنسا فى عهد الملك لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) ، وضم أخوه شارل أنجو مملكة ناپلى التى كان عرشها شاغرا إلى پروفانس . أما صقلية فقد أفلتت من حكم ملوك أسرة أنجفين (١) (Angevins) بخضوعها لبيت أراجون . وبعد انتصارات شارل الخامس استطاع أدواق برجنديا من أسرة فالوا (Valois) - تارة بنفوذ فرنسا وتارة بنفوذ إنجلترا - استطاعوا رسم حدود تقريبية لمملكة وسطى جديدة امتدت من سلسلة جبال جورا (Jura) إلى الزويلر زى (Zuyder Zee) وتكون خاصة من الأراضي التى كانت حتى ذلك الوقت تابعة للإمبراطورية . أما المجموعة الشرقية من الشعوب فتختلف فى طابعها اختلافا كبيرا ، فهى تشمل عددا أكبر من الدول حتى ولو أنسقطنا من حسابنا الإمارات الألمانية الكبيرة التى كانت فى أواخر العصور الوسطى دولا مستقلة . وهذه المجموعة كانت أقل تجانسا فى ثقافتها ، وكانت الامبراطورية تكون قلب المجموعة .

(١) وهم الملوك الثلاثة الأوائل من أسرة پلافانچنت الذين حكموا إنجلترا من سنة ١١٥٤ الى سنة ١٢١٦ ؛ أنظر بعده ص ١٦٧ . المترجم

وحول الامبراطورية تجمعت الدول الصغيرة ودارت الأعمار الصغيرة في فلك الكبيرة : ففي الغرب تقع سافوى وبروفانس ، وفي جنوبي جبال الألب تقع البندقية والدويلات البسابوية ومملكة صقلية - والأخيرة كانت مستقلة حتى ١١٩٤ ثم غدت ملكا خاصا للملك الهوهنشتافن منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٢٦٨ . وفي الشرق تقع ممالك هنغاريا وبوهيميا وبولندا والإمارات الروسية . وفي الشمال تقع الثلاث الممالك الاسكندنافية . وهذه المجموعة على كبرها لا تحتوى إلا على دولة واحدة في المرتبة الأولى ؛ ذلك لأن المملكة النورماندية - وإن كانت آية من آيات السياسة الإنشائية - كانت هامة في السياسة الأوروبية باعتبارها في مركز ثانوي وأداة توازن أكثر مما كانت مركزا رئيسيا ، ولولا الحوادث التي جعلت التحالف مع النورمانيين ذا قيمة عظيمة للبابوية لكانت محط إعجاب أكثر من موضع خشية . ولما كانت نابولي وصقلية في يد الأباطرة الالمان ، فقد شمتخت الامبراطورية كالعلاقات فوق الدول الاسكندنافية والسلافية والمجرية . ولكن من الجائز أن تكون الامبراطورية - حتى بلون نابولي وصقلية - قد استمرت في السيطرة على ثلثي أوروبا ، لو أن الموارد الامبراطورية لم تبتلعها الحروب الإيطالية ، ولو أن الأباطرة الذين جاءوا بعد فترة خلو العرش أعطوا الصالح القومي الأسبقية على مصالح عائلاتهم . وعلى أية حال فالواقع أن الضرر الذي نتج عن الاتحاد بين إيطاليا وألمانيا قد عاش إلى ما بعد انفصالهما ؛

وفي غرب أوروبا كما في وسطها ، حددت الجهود الدائبة التي بذلها الأباطرة الثيوتون لامتنصاص القومية اللاتينية مجرى التطور السياسى عامة . ولكن بينما كانت هجمات إنجلترا على فرنسا هي المسئولة مباشرة عن نمو الدولة الفرنسية ، فقد ترك فشل ألمانيا إيطاليا شبه متحررة من الأجنبي وأكثر تفككا عما كانت في أى وقت مضى . وبينما تسبب فشل إنجلترا في الهبوط بها فترة من الزمن إلى مركز ثانوى بين الدول ، كانت لا تزال الإمبراطورية الألمانية الصرفة - إمبراطورية القرن الخامس عشر - القوة الرئيسية شرقى نهر الراين . ولقد كان هذا إلى حد ما نتيجة للنكبات التي نزلت بالدول المجاورة؛ تلك النكبات التي لم يكن في استطاعة المرء التكهّن بها أو تفاديها . وبينما كانت أوروبا الغربية في حى من غزوات الأجناس الغريبة عنها في العصور الوسطى المتأخرة ، أحست أوروبا الشرقية بصدمة آخر الهجرات التي انبعثت من قلب آسيا والأراضى الإسلامية . وفي القرن الثالث عشر دمرت طلائع الإمبراطورية المغولية دولة بولندا في العصور الوسطى ، وجعلت من الأمراء الروسين أتباعا لحكام القبيلة الذهبية (Golden Horde) . وفي القرن الخامس عشر أكمل تقدم الأتراك على طول نهر الدانوب القضاء على دولة المجرين التي كانت قد أضعفتها الخلافات بين الأحزاب الأرستقراطية . ولكن بغض النظر عن تلك الظروف المواتية فإن موارد ألمانيا كانت لا تقاوم إذا أمكن تركيزها، فقد هددت مملكة بوهيميا وخذلة الإمبراطورية

الالمانية مرتين عقب الفترة الطويلة (١) التي خلا فيها العرش من الملوك ؛ ففي المرة الأولى حينما مسد أوتوكار الثاني (١٢٥٣ - ١٢٧٨ Ottocar II) سلطانه إلى الأراضي الالمانية فيما بين بوهيميا والأديراتيك ، هزمه رودلف هابسبورج في موقعة مارشفيلد (Marchfeld) سنة ١٢٧٨ ، وكون إمارة هابسبورجية جديدة من الأراضي التي أعيد فتحها ، وذلك لحراسة الحدود الجنوبية الشرقية من إغارات جديدة قد يقوم بها التشيكيون أو المجرىون . وفي المرة الثانية عندما وصل الجنود الهسيون بتخريبهم ودعايتهم إلى كافة مقاطعات الامبراطورية المجاورة (١٤٢٤ - ١٤٣٤) ، جردت الحملة تلو الأخرى على بوهيميا حتى أصاب الهسيين الهراطقة - الذين اضطرت انتصاراتهم في الميدان - الإعياء من جراء الجهود المضنية في حروبهم ضد جيوش تفوقهم عددا ، حتى سلم كل المعتدلين بأنه على الرغم من تلك الانتصارات لا بد وأن تنتهي الحرب بخراب بوهيميا وإقفارها من السكان . وقد حدثت نفس الحالة في البلطيق حيث ترك أمر الصراع ضد أطماع الدانين للأمرء والمدن الحرة ؛ فقد رأى قلسمار الثاني (١٢٠٢ - ١٢٤١ Waldemar II) الذي كان يعد العدة لإحياء الامبراطورية الاسكندنافية التي كانت على

(١) تعرف هذه الفترة بـ Great Interregnum وقد استمرت من ١٢٥٤ إلى ١٢٧٣ وبها انتهى النزاع بين البابوات والأباطرة ، وهي تعد نهاية الامبراطورية الرومانية المقدسة في العصور الوسطى ، كما تعد أيضا آخر مرحلة من مراحل جهود الأباطرة التي انتهت إلى الفشل في إقامة الوحدة الالمانية . المترجم

أيام كانت العظم ، غازى إنجلترا - رأى سرح أطماعه
ينهار وهو لا يزال يعمل فى بنائه . وحتى اتحاد كالمارسنة ١٣٩٧
(Union of Kalmar) الذى أدمج التيجان الثلاثة للنرويج
والسويد والدانمرك فى أسرة واحدة - حتى هذا الاتحاد لم
يستطع انقاذ الريح العظيم الذى يأتى من تجارة البلطيق من الوقوع
فى أيدي الالمان . إن ألمانيا - حتى وهى محكومة حكما سيئا
وفريسة لأطماع أسر إقليمية - كانت شيئا عظيما ونحيفا كما
تعلم ذلك أكثر من مغامر سياسى طمع فيها فدفن الثمن غالبا .
فالنشاط والذكاء والروح الوطنية لشعب عظيم أصلحت جميع
أخطاء السياسيين وسدت كل نقص فى نظم الحكم .

وفى أواخر القرن الخامس عشر ساء الالمان أن يكتشفوا
أنهم وإن كانوا أمة إلا أنهم لم يصبحوا بعد دولة ؛ لقد وجدوا
أن قلب القوة السياسية قد انتقل غربا ، وأن مصائر أوروبا
كان يسيطر عليها حينذاك الفرنسيون والانجليز والاسبانيون .
كانت هذه الدول قد أكملت شكلا جديدا من الحكم المطلق
أقوى وأكثر مهارة فى بنائه من أى شكل من أشكال الحكومة
فى العصور الوسطى . وتمسكت ألمانيا فى نفس الوقت بكل ما هو
ردئ وضعيف فى النظام القديم ، فالملكية الألمانية وما يتصل
بها من نظم قد صارت إلى حالة من الضعف والقصور . وقد
فعلت نفس عملية التدهور هذه فعلها فى الدول الصغيرة للمجموعة
الشرقية ؛ ففى اسكندنافيا وهنغاريا والأراضى السلافية أعاق
السلطة الملكية عن النمو عوائق الإقطاع وسلطة الارستقراطية

الإقليمية التي حولت - تحت ستار الألقاب الإدارية - مقاطعات بأكملها إلى أملاك عائلية ، وادعت تلك الأرستقراطية الحق الإلهي في سيادة مطلقة على المستأجرين . وإذا استقصينا كافة الأسباب التي يرجع إليها التخلّف السياسي لهذه الشعوب الشرقية فستحول بعيدا عن ميداننا ؛ غير أن هناك سببا واحدا يظهر واضحا : فخارج نطاق المدن الحرة لم تنشأ هذه الشعوب طبقة متوسطة ، ولم تكن مدنهم كثيرة العدد أو غنية بما فيه الكفاية لتكون ذات أثر في السياسة القومية ، بل لم تكن هذه المدن ممثلة في الجمعيات الوطنية . ونتيجة لذلك اضطّر حكام تلك الدول إلى الحكم بمساعدة الأحزاب الارستقراطية ، وإلى شراء الاعتراف بهم بمنح الاستقراطيين امتيازات أكبر فأكبر ؛ ومن أجل السلطان اضطروا إلى تجريد أنفسهم من الموارد التي تستطيع وحدها أن تضفي على قوتهم شيئا من معنى . غير أنه في العصور الوسطى لم تكن الحكومة الصالحة سوى اسم آخر للملكية قوية ذات روح تجذب على الشعب ، ومثل تلك الملكيات وجدت في الدول الغربية وكانت تتركز على أكتاف الطبقة الوسطى من صغار ملاك الأراضي والتجار الأغنياء ، وهي طبقة ضعيفة عاجزة عن أن تدافع عن نفسها في حالة تسود فيها الفطرة ، غير أنها في مجموعها كانت قوية بما فيه الكفاية لإرهاب قوى الفوضى .

وقد يبدو من الغريب أن هذه الطبقة التي رغبنا في حكومة قوية لأسباب عملية ومادية صرفة ، قد قبلت على البوام الملكية

الوراثية باعتبار أنها النوع الوحيد من الحكم العملى فى مجتمع كبير ، وحتى حيثما كان هناك بيئة من التقليد للرجوع إلى طريقة انتخاب الملك انتخابا حرا ، فضلت الدول المحكومة حكما أفضل أن تنتقل السلطة العليا انتقالا أوتوماتيكيا من الأب إلى الابن . إن تفسير هذا يوجد فى الدوافع التى دفعت الأثينيين تحت ظروف تعددت مشاربها إلى اختيار حكاهم بطريقة القرعة . لقد كان الخطر العظيم الذى يجب تفاديه بأى ثمن هو التنازع على تولى الملك الذى يترك العمل اليومى للمحكومة معطلا ويفتح الباب لتنازع الأحزاب تنازعا هداما . أما إذا تأكد استمرار الحكم واستقراره فكل شيء سيجرى مجرى حسنا ، فلم يكن من المفروض أن يتطلب عمل الحاكم قدرات تفوق العادة ، فهو قد تقلد الحكم ليوزع العدالة وليمكن كل أمرئ من امتلاك حقه وليطبق القانون بدون النظر إلى الاشخاص . ومن أجل هذه الأهداف كان المطلب الرئيسى هو الشعور الحق بالواجب ، وأن يكون عقلاء القوم فى خدمة الملك لإبداء المشورة عندما يطلب إليهم ذلك ، ومن العسير أن يرتكب الملك خطأ إذا ما استمع بانتباه ووزن بلا تحيز المشورة التى يقدمونها إليه . وإذا سلمنا بأنه سيكون أكثر كفاءة نظرا لامتلاكه مقدرة عملية وخبرة فى الشؤون الخطيرة ، أفليس من المحتمل أن رجلا على درجة متوسطة من الذكاء قد تدرب منذ الصغر على ملء الوظيفة الملكية سيحل نفسه محلا أفضل من مغامر عصامى ذى موهبة ، يعنى بأساليب بلوغ

المركز والشهرة أكثر مما يعنى بالعمل الذى سيلقى على عاتقه عندما يبلغ الهدف الذى يطمح إليه ؟ ثم أنه عندما نتذكر أن الملكية الوراثية قد أجازتها العادة والممارسة ، وأنها كانت أكثر الرموز دلالة على الوحدة القومية ، وأنه كان بيدها — كما لو كان حقا — كافة الحقوق الضرورية للحكم الفعال ، إذا ما تذكرنا كل ذلك لانهجب أن نجد حتى أولئك الذين كانت لديهم خبرة تامة بنظريات السيادة المعروفة وبالعقد الاجتماعى قد رضوا قانعين بصورة من الحكم يتبرها العالم الحديث غير معقولة وليست وطيدة الأركان فى جوهرها .

غير أن الملكية ، مهما كانت نشيطة ومهما كانت ذات روح شعبية ، ظلت عديمة الحيلة ، إلى أن قامت على أسس قوية من الإجراء المنظم ، ومن قضاء ذى خبرة ، ومن مجلس انتخابى فى الواقع إن لم يكن فى الشكل . وليس هناك دولة من دول العصور الوسطى كانت محظوظة على الدوام مثلما كانت ألمانيا محظوظة فى ملوكها ذوى الخلق والموهبة النادرين . ومع ذلك فإن ألمانيا من بداية العصور الوسطى إلى نهايتها كانت محكومة حكما سيئا ، ولم يكن سوء الحكم هذا يعزى فقط إلى أن الملكية الألمانية تقوم على مبدأ الانتخاب . ، حقا إن التاج الألمانى كثيرا ما احتفظ به عن طريق منح امتيازات أساء المستشارون النصيح بها ، ولكن حيز الأباطرة عن الاستفادة بالامتيازات التى بقيت لهم والتى أرادت الدولة أن يمارسوها كان مصدرا كبيرا من مصادر

الضعف ؛ فالقضاء في الامبراطورية كان ينطوي على التسيوف وعدم الكفاية لأن المحكمة الامبراطورية كانت تتبع الامبراطور ، ولأن المحترف من بين القضاة كان عرضة لمناقضة زملائه من العنصر الاقطاعي ، ثم أن القواعد التي تدير عليها الإجراءات كانت غير محددة ، والقرارات كانت لا تقوم على أساس من فقه القانون العلمي ، بل على أساس العرف الإقليمي . وكان مجلس شورى الامبراطورية ضعيف التبصر كما كان ضعيفا باعتباره مجلسا تشريعا ، ذلك لأن المدن وصغار النبلاء لم تكن تحترم قرارات لم تستشر في صياغتها . وكان القائم على التنفيذ عديم الكفاية أو مكروها بالضرورة ، ذلك لأن المناصب العليا كان يطالب بها الأمراء كحق من حقوقهم ، أولئك الأمراء الذين كانوا إما دنيويين مسندين بمرتبتهم لمولدهم لا أكثر ولا أقل ، وإما من رجال الكنيسة لا يستطيعون سوى أن يكونوا خداما مخلصين للدولة وذلك بأن يغدوا خداما تافهين للكنيسة . وكان الامبراطور الذي يضع ثقته في مستشاريه الطبيعيين يلقي المشورة السيئة ؛ وإذا اعتمد على رجال جدد ، مختارين فقط لولائهم ومؤهلاتهم ، جلب على نفسه اللوم واتهم بالاستبداد أو بالخضوع لمحابيب تافهين . ومن ثم فإن الآفات المغروسة في الدستور الألماني كانت موجودة قبل ذلك الحين في فرنسا وفي إنجلترا . وكان استئصال تلك العيوب هو هدف التغيرات الدستورية التي أدخلها البلانتاجتيون (١)

(١) يطلق هذا الاسم على ملوك أسرة انجفين (أنظر هامش ص ١٥٩) ، وعلى -

(Plantagenets) فى إنجـلـتـرا وملوك آل كاييه المتأخرون فى فرنسا . وفى النقطة الجوهرية كان هناك تشابه قوى بين عمل كل من الأسرتين ، غير أنه فى إنجلتـرا اتبعت السياسة الإنشائية قبل فرنسا وسارت بخطى أسرع من فرنسا وأقامت صرحا أكثر ثباتا ومتانة لأنه أقيم على قاعدة وطيدة .

وكانت المرحلة الأولى فى هذه السياسة هى تنظيم الإدارة فى أجزاء كل من المملكتين ، تلك الأجزاء التى لم تكن قد دخلت ضمن الإقطاعات ذات الحصانة فظلت خاضعة للقضاء الملكى وتساهم فى الدخل الملكى . ولبعد نظر ولیم الفاتح كان عدد الإقطاعات ذات الحصانة قليلا فى إنجلتـرا ، إذ لم يكن الملك مقطوعا من الاتصال المباشر برعيته إلا فى مقاطعى درهام وتششر — على حدود ويلز والحدود الشالية — وفى أراضى بعض كبار رجال الكنيسة . وباستثناء هذه كانت أراضى إنجلتـرا مقسمة إلى أقاليم يشرف على إدارتها نواب للحكم . يعينهم الملك ويعزلهم حسب مشيئته . وقد قسمت الأقاليم بنورها إلى أقسام (كان المفروض أن يحتوى كل قسم منها على مائة أسرة) ، يقوم على إدارتها موظفون تابعون لنواب الملك . غير أن نائب الملك كان هو وحده المسئول عن تنفيذ المهام الخطيرة مثل تحصيل الضرائب وقيادة الجيش والسهر على الأمن (Watch and Ward) وتعقب المجرمى — رمين الفارين من وجه العـدالة (Hue and Cry) وهذه هى الألفاظ التى

=الملوك الذين خلفهم على عرش إنجلتـرا من سنة ١٢١٦ الى ١٣٩٩ . المترجم

استعملت في العصور الوسطى للدلالة على واجبات البوليس الآن -
هذا فضلا عن أنه كان يرأس مجلس الإقليم (Shire moot)
الذى كان يجتمع فيه الملاك الأحرار على فترات معينة لتصريف
الشئون القضائية . وكان القضاة المتنقلون (Justices in Eyre)
يقومون من آن لآخر بزيارة تلك الأقاليم (كما كان يفعل
المبعوثون الإمبراطوريون أيام الفرنجة) لسماع الشكاوى
ضد نائب الملك وللتفتيش على الإدارة ومحاكمة المجرمين
ولنظر القضايا المدنية وخاصة قضايا الملكية الهامة التي رؤى
حفظها لإصدار حكمهم فيها . وهؤلاء القضاة المتنقلون
يختارون من بين هيئة محكمة الملك (Curia Regis)
وهي محكمة كانت في القرن الثالث عشر مقسمة إلى ثلاث
محاكم للقانون العام وكان مقرها وستمنستر (Westminster) .
ومحاكم الإقليم مثل المحكمة الملكية كانت مقيدة بالقانون ،
ولكن في معظم أعمالها لم يكن لها ما ينير أمامها الطريق في الأحكام
سوى ما جرى به العرف المحلي كما يفسره رجال محكمة الإقليم ،
والأحكام المسجلة في سجلات المحكمة الملكية . ومن هذا
المصدر الأخير تكونت مواد القانون العام في إنجلترا وهو
مجموعة من السوابق ظلت أثرا ملحوظا من آثار علم القانون
في العصور الوسطى على الرغم مما فيها من ضروب التعقيد
والمهارة الفنية الغريبة . وفي القرن الرابع عشر وما بعده الحق
القانون العسببام بفسير . لروح القانون (Equity) . وهو
قانون محكمة قاضي القضاة يلجأ إليه أولئك المتقاضون الذين

لم يستطع القانون العام أن يعالج شكاواهم، ولكن رؤى أنهم خليقون بأن ينصفهم الملك بوصفه راعى الضعيف وحامى كل من يحتاج إلى دفاع . وأما عمل نواب الملك والقضاة فى الناحية المالية فيشرف عليه ديوان المالية (Exchequer) ، وهو ديوان للمحاسبة تسلم إليه إقرارات نواب الملك التى يقومون بإعدادها كل ستة أشهر، كما تعد فيه المواد التى ستكون موضع تحقيق القضاة المتقنين . وديوان المالية - وهو فى الأصل فرع من المحكمة الملكية وخزينة لأموال الملك - ظل دائما على اتصال وثيق بالنظام القضائى ، طالما أن إحدى محاكم القانون العام الثلاثة تختص أصلا بنظر القضايا التى تتصل بالإيرادات الملكية . هذا هو النظام الإدارى الذى كان قائما فى إنجلترا . وقد قام نظام مماثل فى فرنسا مع بعض التعديلات التى كان لا بد من ادخالها عليه . فى فرنسا كانت الأراضى الملكية صغيرة المساحة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وقد اتسعت اتساعا شاسعا بما أضافه إليها فيليب أجسطس . وملوك آل كاپيه المتأخرون، الذين وضعوا تحت إشرافهم المباشر الجزء الأكبر من الميراث الأنجوى والإقطاعات الكبرى فى تولوز وشمپانيا وعدة مناطق أخرى صغيرة . ولحكم مثل هذه الممتلكات الجديدة أنشئ نظام إدارى فى غضون القرن الثالث عشر يتكون من رؤساء مراكز (Provosts) ، ويقابلون الموظفين الإداريين (Bailiffs) فى أقسام الأقاليم فى إنجلترا (Hundreds) ، ومن صنائجيل (Sénéchaux) وهم

الذين يشبهون النواب الذين يحكمون الأقاليم باسم الملك في إنجلترا (Sheriffs) ، ثم من المحققين (Enquêteurs) الذين يجوبون الدومين ويقومون بالتفتيش ويعقـبـسـون إجتماعات تماما كما كان يفعل القضاة الإنجليز المتنقلون . ومنذ أيام لويس التاسع . يقع جميع هـبـولاء الموظفين تحت إشراف ديوان المحاسبة (Chambre des Comptes) - وهو ديوان يختص بالشئون المالية - وإشراف برلمان باريس وهو - محكمة عليا استئنافية من الدرجة الأولى . وهناك تفرقة في داخل هذا البرلمان بين محاكم القانون العام وديوان الالتماسات (Chambres des Requêtes) الذي يختص بإعادة النظر في القضايا بناء على المواد التفسيرية لروح القانون الملحق بالقانون العام .

وعيوب هذين النظامين كانت واحدة ، فالوظفون المحليون كانوا يتمتعون بسلطة قوية في مجال وظائفهم ، ولم يبرهن المفتشون أو المحققون أو قضاة المحاكم الملكية على أنهم كفء لحماية الشعب ومصلحه من فساد الحكام وسوء استعمال سلطتهم ، الأمر الذي ترتب عليه أن نفشى بيع واستغلال الوظائف بسبب الوسائل المرذولة حتى أضحي عادة قائمة . وفيما عدا ذلك فإن النظام الإنجليزي كان يفوق مثيله في فرنسا وخاصة في الانتفاع بالنواب المحليين في بعض الأغراض المعينة كوسيلة إضافية لمراقبة موظفي التاج . لقد كان الإقليم الإنجليزي في الواقع ويحكم القانون مجتمعاً ذا طابع انتخابي حقيقي

(Communitas) ، وله جمعية عامة تجمع بين وظيفتي المحكمة والبرلمان المحلي. ومع أن المتقاضى العادى لم يكن يهتم اهتماما يذكر ، فقد اهتم ملاك الأراضي الذين كانت تربط بينهم عاطفة المكان والعلاقات الشخصية اهتماما كبيرا بأعمال محكمة الإقليم واشتركوا بنصيب فعال فيها، ثم أنهم وقفوا في وجه نواب الملك والقضاة إذا ما حاولوا تخلى العادة والعرف السارى في الإقليم ، وعملوا كمحلفين وكحراس للأمن وقاموا بتقدير الغرائب . وابتداء من القرن الرابع عشر عمل أولئك النواب كحكام صغار ، وسواء أكانوا منتخبين أو معينين من قبل صاحب التاج فلم يتقاضوا أجرا وكانوا يعتبرون أنفسهم مدافعين عن حرية الإقليم ضد ضروب السلب والنهب التى يقوم بها الموظفون الرسميون .

وفي فرنسا في الإقليم الذى يحكمه نائب الملك (Bailli) بل وفي أقسام الإقليم التى يقوم على شئون كل منها وكيل النائب ('Prévot') لم تكن الحدود تقوم إلا على التحكم والاستبداد بلا مراعاة لوحدة طبيعية أو اشتراك في عاطفة أو في تبادل شعور ، ولذلك لم تكن هناك مقاومة منظمة للسلطة التنفيذية ، ولم يكن هناك سبب يدعو الملك لأن يخاطب ود طبقة الأعيان أصحاب الأراضي . وفي الدرجات الدنيا في نظام آل بلانتاجنت أخذت الطبقة المتوسطة القوية تتلرب على السياسة ، بينما كانت السلطة والمسئولية في فرنسا أيام ملوك آل كاپيه في يد الإداريين المختصين ه وكانت الخطوة التالية في التطور

الدمستورى فى إنجلترا - وهى إضافة طبقة ثالثة للجمعية الوطنية هى طبقة الشعب (Third Estate) - كانت هذه خطوة ناجحة كل النجاس ، وذلك لأن مجالس العموم كان ينتخب أعضاؤه أصلا من العائلات التى سبق لها الاشتراك فى الإدارة المحلية ، بينما يختلف الحال فى فرنسا فالطبقة الثالثة برهنت على قصورها فى الناحية السياسية ولو أنها كانت تدعى للاجتماع على الدوام خلال القرن الرابع عشر .

وفى كل من فرنسا وإنجلترا عقب سنة ١٠٦٦ بدأت الجمعية العامة كمجلس إقطاعى يتكون من كبار رجال الدين والبارونات الذين حصلوا على أراضيهم وألقابهم مباشرة من صاحب التاج . غير أن الجمعية العامة الفرنسية قبل القرن الثانى عشر نادرا ما اجتمعت ، وقل من حضر الاجتماع ، وكان يتجاهلها عادة كبار الإقطاعيين ، وبذلك كانت كوثمر يضم رجال حزب من الأحزاب أكثر مما كانت برلمانا . أما فى إنجلترا فقد كان المجلس الكبير الذى كوئته الأسرة النورماندية والذى ورث مكانة وحقوق مجلس الشورى الانجلوسكسونى (Witenagemot) ، يحتل من البداية مركزا محترما ؛ وحتى الملوك - كالملك وليم الأول وهنرى الثانى - تمسكوا بدقة بمبدأ استشارة أعيان الدولة فى المشروعات التى تتصل بالتشريع والضرائب . وأيام حكم أولاد هنرى الثانى وحفيده ، توسعت الجمعية فى مطالبها وتأكدت تلك المطالب تأكيداً قاطعاً . وكانت المصاعب التى تواجه التاج حينذاك فرضة انتهزتها الكنيسة والبارونات ،

فطالب المجلس الكبير بحق تعيين وعزل وزراء الملك ، وبحق منع العون المالى والخدمة العسكرية حتى ترفع المظالم ويوضع الحق فى نصابه ، كما طالب المجلس أيضا بتحديد الامتياز بل وأن يعهد به إلى لجنة إذا ما تكرر إساءة استعماله . والحقيقة أن النبلاء فى إنجلترا فى تلك الفترة - عندما أحبطت مطالبهم كأفراد فى الحصول على نفوذ وسلطان عن طريق إمتلاك الأراضى - وجدوا بوضعهم كمجموعة وكأعضاء للمعارضة فى المجلس ميدانا جديدا لتحقيق مشروعاتهم ونيل المجد الشخصى . أما فى فرنسا فلم توجد مثل هذه الحركة البرلمانية ، وذلك لأن الافتراض الأساسى للنجاح لم يكن متوفرا ، إذ أنه كان من العبث الالتجاء إلى رأى العام المناصرة جمعية لم توجد مطلقا احترام الشعب لها ، وذلك ضد ملك ناجح ينال احترام الناس . وفى هذه الظروف كان من الطبيعى أن تختلف النتائج فى كل من الدولتين كل الاختلاف عندما اضطلع بحركة إصلاح الجمعية الوطنية فى إنجلترا ادوارد الأول وفى فرنسا معاصره فيليب الجميل . وكانت المشكلة التى يواجهها الملاك واحدة وهى إيجاد جمعية يعترف باختصاصها فى فرض ضرائب على الأمة . وكانت الحلول التى اتبعها كل من الملاكين متماثلة ؛ فانتخب ممثلون عن المدن الحرة لمجلس طبقات الأمة فى فرنسا ، وعن المدن الحرة والأقاليم للبرلمان الإنجليزى ؛ وفى كل من الحالتين طعم المجلس الإقطاعى بالطبقة الثالثة . غير أن النتائج التى نتجت عن التجريبتين اختلفت فى الطابع وفى المصير ، فمجلس

طبقات الأمة في فرنسا وهو الحديث التكوين لم يعرف أى السلطات يطالب بها ولا كيف يناضل دونها، وقد تقلصت سلطته على الشئون المالية وأضحت لا تذكر . ثم أنه أخزى نفسه في عين الأمة بأن قدم الأدلة على ضعفه وتردده في أول أزمة كبرى دعى لمواجهة، وهي الفترة التي شغل فيها العرش فامتلاءت بالفوضى والتآمر بعد أسر الملك حنا عند هواتيه سنة ١٣٥٦ . ولقد كانت النتيجة أن مجلس طبقات الأمة - وقد كان يدعى بين الحين والحين للموافقة على سياسة الملك أو للتصديق على قراراته - ظل ظاهرة صورية في الدستور الفرنسي . أما في إنجلترا - من الناحية الأخرى - فقد قبل أعضاء مجلس العموم شد أزr اللوردات في خلافاتهم مع العرش ، وبذلك اتبع البرلمان الحديد أهداف ومناورات المجلس الكبير القديم (Great Council) ، وتمتع بكل المزايا التي أضفها حقه الخاص في الموافقة على فرض الضرائب . على أن تحالف المجلسين قد غير طابع سياسة الانجليز ، فقبل أن يصبح البرلمان حقيقة واقعة ويظهر في عالم الوجود ، تحكم في السياسة لمدة قرنين من الزمان ، فتسبب في عزل خمسة ملوك ، وأضفى اللقب الملكي على ثلاث أسرات جدد . لقد أرشد الخلف إلى سبل محاربة الملكية المطلقة وهدمها بلا حروب أهلية ، ثم أنه برهن على أن مبدأ الانتخاب في الدستور قد يتغلب على الملكية والارستقراطية معا إذا توفرت لديه الشجاعة لأن يحمل المبادئ المقبولة إلى خاتمتها المنطقية .

وحق في إنجلترا قلما كان البرلمان في العصور الوسطى مجلسا تشريعيا بالمعنى المقصود من الكلمة اليوم ؛ فالتشريع من النوع الدائم كان وسيلة عرضية ، والقوانين الجديدة كانت تصدر عادة تلبية لالتماس الطبقات . غير أن القوانين كانت تشكل بواسطة الملك ورجاله القانونيين ، وغالبا ما أخذت شكلا لا يعبر إطلاقا عن رغبات الملتزمين . أما التغيرات الهامة في قانون الدولة فلم توضع ، ولكنها أخذت تنمو من أثر تكاثر الأحكام القضائية . إن الوظيفة الرئيسية للبرلمانات بعد الاقتراع على الميزانية هي النقد والشكوى وبيان مواضع الضعف في سياسة لم تشترك في وضعها . وبغض النظر عن كون هذه البرلمانات حراسا على الحرية الفردية لا يمكن القول بأنها زادت من كفاءة الحكومة الوسيطة وأرستها على قواعد علمية ؛ ففي القرن الخامس عشر انتقد أعضاء مجلس العموم حكم أسرة لانكستر (١) بمنتهى الحرية ، غير أنه ترك أمر تشخيص العلاج الناجم للدولة للملوك الطغاة من أسرى يورك (٢) (York) وتيودور (Tudor) (٣) ، فالإنجليز والفرنسيون على السواء ، قد أحسنوا صنعا في نهاية العصور الوسطى ، حين عهدوا بمهمة

-
- (١) حكم ملوك هذه الأسرة من سنة ١٣٩٩ الى سنة ١٤٦١ . المترجم
(٢) لم يطل حكم هذه الأسرة لإنجلترا أكثر من أربع وعشرين سنة من سنة ١٤٦١ الى سنة ١٤٨٥ . المترجم
(٣) تولى ملوك وملكات هذه الأسرة عقب أسرة يورك وذلك من سنة ١٤٨٥ الى سنة ١٦٠٣ . المترجم

إعادة بناء الدولتين للوك تجاھلوا النظم البرلمانية أو مكروا بها .
لقد كان البرلمان جديرا بالإعجاب باعتباره ضابطا أو ميزانا
لتوازن القوى، وباعتباره رمزا لسيادة الشعب ، ومدرسة لتعلم
الدكاء السياسى . ، غير أنه لم يكن هناك برلمان تكون فى أى
دولة وسيطة يصلح للهيمنة على تكوين السياسات أو إصلاح
النظم الحكومية .

الفصل الثامن

الاستعمار الأوربي — الحروب الصليبية

ليس من اليسير شرح التطور الداخلى للدولة الوسيطة أو السياسة الدولية لأوروبا العصور الوسطى دون الإشارة المستمرة للفروق الطبقيّة ؛ تلك الفروق التى تتضح حينما نتصور فى كل دولة خطا أفقيا واضح المعالم ، فى أعلاه قلة من الناس تتمتع بامتيازات، وفى أسفله كثرة لا امتيازات لها ، وهذا الخط يفصل أيضا بين الحاكمين والمحكومين . أما الكثرة المحرومة فأصحاب الحرف والصناعات والمشتغلون بفلاحة الأرض ، وأما القلة المتمتعة فلاك الأرض والحكام ورجال الدين . ولا يجافى هذا التقسيم أن يكون المجتمع صناعيا قد فاز باستقلال سياسى كمدن مثل ميلان أو جنّت ، فإن ظاهرة كهذه تعتبر استثناء لا يعتمد به فى ذلك العصر . بل أخطر من هذا وأشد إثارة للدهشة أن يَنفُضَ محض فلاحين كالسويسريين مثلا ما يسمى بولائهم الطبيعى ، فمن الواضح أن مثل تلك الحالات التى قد تنجح فيها الثورة حالات نادرة الوقوع . وحقا كان هناك مدن فى إنجلترا وفرنسا وفى الممالك الإسبانية تحظى بامتيازات وتحصل على حق التمثيل فى الجمعيات الوطنية ، غير أن هذا التنازل لقوة المال كان محدودا للغاية ، فلم يكن يسمح لمثل سكان المدن أن يعبروا عن آرائهم إلا فيما يتعلق بمساهمتهم المالية

أو مساعلتهم العسكرية ، أما الحكم فهو من شأن الملك والطبقات الممتازة .

ونعود إلى تقسيم من نوع آخر داخل الطبقات الممتازة نفسها ، فتصنّف خطأ رأسياً ، على جانبيه رجال الدين والدنيا من مختلف طبقات الأرستقراطيين يواجه كل منهما الآخر ؛ فالأسقف والبارون والقس والفارس بينما يتفوقون كلمة ويتحلون جبهة عندما يكون الموقف متعلقاً بالزام الطبقة المحرومة مكانها ، إذا هم بتنافسهم في الاستئثار بنفوذ اجتماعي أو سلطة سياسية قد قُتِر عليهم أن يمثلوا تضارب النظريات في الحياة بأن يتفقوا حيناً وأن يكونوا على طرفي نقيض حيناً آخر ؛ فرجل الدين الذي درج في نظام مؤلف من سائر الدرجات الاجتماعية ، يستخف بالمنصب والألقاب الدنيوية ويطالب بالسبق على رجل الدنيا ، وهو يعتقد أن الكنيسة إنما هي صاحبة الأمر وعلى الأمراء والحكام السمع والطاعة . أما الإقطاعي من رجال الدنيا والذي ولد وغلّى بلبان قوم توارثوا العسكرية ، فقد كانت الحرب عنده أعلى درجات الحرف لإنسان ذي شرف ومحتد ، وهو يضيق ذرعاً بعجرفة رجل الدين ويعتقد في قرارة نفسه أن الكنيسة لا يحق لها أن تتدخل في السياسة .

ومن الخطأ أن نعتقد أن الطبقتين ذواتي الامتيازات كانتا دائمتي التنازع الواحدة مع الأخرى أو مع من دونهما في الطبقة الاجتماعية ، إلا أن أدوار الصراع الجبار الذي وقع بين البابوات والأباطرة ، والثورات التي قام بها الفلاحون الفرنسيون

والإنجليز في القرن الرابع عشر ، لم يكن كل منهما بالحدث الذى يقع فجأة وعلى غير انتظار ، فكل فورة من تلك الفورات إنما كانت بمثابة البركان تعتمل فى باطنه ثورته ، أو هى ظاهرة إن دلت على شئ ؛ فلنما تدل على وجود قوى كانت دائبة صراع باطنى .

والسلام فى مجتمع العصر الوسيط كان لا يعدو حالة من التوتر ؛ فالتوازن حينذاك لا يعنى أكثر من الاتزان القلق بين القوى المركزية دفعا وجلبا . وهذا هو أحد الأسباب التى من أجلها كان ينظر عقلاء الساسة والمثاليون نظرة الرضاء إلى الحروب بينا هاجمتها الكنيسة مهاجمتها الأدبية .

وبأكثر من سبيل كانت الحرب الظافرة تساعد على التثام أو حسم الخلافات الواقعة بين الطبقات المتنازعة ؛ فتارة كان مثل تلك الحرب بمثابة المنفذ الذى تنبثق منه القوى الإقطاعية باصطراعها الفوضوى ، وتارة كانت تنهى بفتوحات شقت طريق التملك الدائم أمام المعلم ، وطورا كانت تفتح أسواقا جديدة أمام التاجر ، وطورا آخر كانت تبسط أرضا للهجرة أمام الفلاح ، وتفسح مجالا مستحدثا لبسط النفوذ أمام رجل الدين الوطنى . وأفضل من هذا وذاك أنها كانت تستحث المشاعر العامة للوطنية أو الدين ، وتخلق فى كافة الطبقات الإحساس بالالتزامات التى تسمو فوق مجرد المصالح الذاتية .

إن مثل هذه السياسة قد تبدو لنا الآن فنا غشوما وحشيا ، وفكرة الدولة القائمة على نظام الطبقات ، وفكرة الوحدة

القومية باعتبار أنها تحقق تضافر جميع الطبقات لفرض ما لا صلة له بالحياة السائرة للدولة ، كلتاهما قد تبدو من الغرابة على أذهاننا بمكان . فنحن نعتقد أنه بمحاربة الامتيازات الطبقة إنما نكون قد هيأنا بذلك حالة أقل انقساماً وأكثر نظاماً ، ونقول إن الدولة إن قامت فن أجل تحقيق مثل أعلى واضح المعالم، قد نعني به عبارة مثل «الخير الأعظم لأكبر مجموع» ، ولكننا نظل بعيدين جداً عن التوفيق بين الحقائق والنظريات ، حينما نحاول أن نصدر حكماً على موقف العصور الوسطى من الحرب، حتى ليأخذ التردد منا مأخذه . فبدل الطبقات لدينا مصالح ، هذه المصالح من العسير التوفيق بينها ، وغالباً ما تكون متضاربة بعضها مع البعض ، فيوازن ساستنا بين مصلحة وأخرى ، ثم يعتبرون الحرب شرعية إذا ما هيأت ميزات عظيمة للمصالح التي تستأهل التحقيق أكثر من غيرها . ثم أننا لم نفلح بعد في إعطاء المواطن العادي فكرة سامية عن الغرض الذي من أجله توجد الدولة ليستطيع التفكير في سياسة قومية باعتبار أنها شيء يختلف عن الإثارة القومية . إن من الأيسر علينا أن ننقد المتحمسين الذين يحضون الدول الوسيطة على القيام «بعمل نبيل النعمة» بعيداً عن الروتين اليومي ، من أن نكتشف مشروعاً جليلاً وندعو إليه من أجل مثل أعلى أقل خيالاً : ويساعدنا على فهم النظرية الوسيطة — وإن كنا غير مضطرين إلى قبولها — أننا نجد الشعراء والكتاب المحدثين يمجّدون الحرب باعتبارها مدرسة للوطنية أو لبناء الخلق القومي .

إن الحروب التي شنت للغزو كانت أقل حدوثا في العصور الوسطى مما قد نتوقع ، وكانت تشن في الأغلب على نطاق ضيق ، وقلة وقوعها في عصر حرب ينبغي أن تفسر بالرجوع إلى الخلق السائد والأحوال الاقتصادية . وللهجوم على دولة مسيحية كان من الضروري ادعاء سبب تبرره العدالة ، فالرأى العام الذي تعهدته الكنيسة بتعاليمها ، وهى أن ينظر إلى الدول المسيحية في الغرب نظرتة إلى «كومنولث» ، كان يتطلب إظهار شيء من الاحترام للقانون الخلقى السائد حتى في العلاقات الدولية . أضف إلى هذا أن دولة العصور الوسطى - التي لم تكن منسوجة في ذاتها نسجا محبوكا ، وتنتشر في أرجائها الحصون والقلاع المتفرقة - أظهرت في حالة الهزيمة حيوية وتماسكا في أساس بنائهما العضوى ، ولم يكن من اليسير إخضاعها للإخضاع التام دون بذل الأموال الطائلة التي يتكبدها الغازى، ولم يكن للنظم المالية لدولة العصور الوسطى طاقة على تحملها. لقد فشل إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧) في فتح مملكة اسكتلندة الصغيرة ، كما أن المقاطعات الفرنسية التي أعطيت لإدوارد الثالث (١٣٢٧ - ١٣٧٧) أفلتت من قبضته في بضع سنين .

إن الحروب المجزية هي حروب الحدود التي كانت تشن ضد القبائل المتفرقة في شرق أوروبا أو ضد الدول الإسلامية المتداعية في حوض البحر الأبيض المتوسط . ومثل تلك الحروب هى التي كانت شائعة الحلوث ، شنتها أحيانا الدول التي

ساعدها موقعها الجغرافى على تحقيق هذا الغرض، وأحيانا أخرى
شنها مهاجرون نزحوا من ديارهم بحثا وراء موطن جديد..

لقد كان لتعاليم الكنيسة الفضل فى تحويل نسبة كبيرة من
حروب الحدود إلى حروب صليبية لنشر المسيحية أو للقضاء
على غير المسيحيين أو للدفاع عن أماكن مقدسة . وكثيرا
ما كان يتحلل الباعث الدينى بقصد إلقاء قناع خفيف من الاحترام
على العمليات الحربية، ولولا هذا القناع لكان من العسير تبرير الحرب.
على أنه فى بعض الأحوال كان أولئك الذين انخرطوا فى سلك
الجندية للكنيسة يضحون بمصالحهم المادية - على ما كانوا
يعتقدون - من أجل خلاص أرواحهم وتحرير المسيحية جمعاء .
ولم تكن هذه الروح التى استنهضت بذل النفس مسيحية فى
جوهرها، فهى نفس تلك الروح التى كانت منتشرة منذ أمد طويل
فى العالم الإسلامى ، والتى توضح السبب فى ذلك الهجوم الظافر
الذى قام به الإسلام على أوروبا وعلى الإمبراطورية الشرقية .
هذا الباعث إذن أثر فى المسيحية الغربية فترة قصيرة نسبيا ،
اللهم إلا مرة أو مرتين خرج فيهما حركات تضاهى تلك الحركات
التي انبعثت من جزيرة العرب وآسيا الصغرى وإفريقية ، مع
فارق واحد هو أنها لم تؤد إلى أية فتوح تعادل فى العظم تلك الفتوحات
التي قام بها خلفاء بغداد وقرطبة والقاهرة . غير أن الحرب
الصليبية المسيحية كانت أبرز من جهاد المسلمين فى معنى واحد
من حيث التهيئة والاستعاشة ، فلإن غرب أوروبا كان قد جاوز
مرحلة البداوة منذ عهد بعيد ، وحتى الطبقات الحاكمة فى الدول

المسيحية الغربية - والتي قد يبدو لنا أنها لم تنتم إلى وطن معين - كانت تربطها بأوطانها روابط عديدة . فإذا كان الغرب على درجة من الجيشان دون ما كان عليه الشرق ، فذلك لأن الجهاز المادى الذى كان مهياً للعمل كان أكثر عنادا وأقل ميلا للحركة ، كما أن الجزاء الذى وعد به المسيحي كان من النوع الذى لا يدرك باللمس وقد لا يتحقق مثاله . وكانت هناك مغامرات قريبة المدى تستطيع الكنيسة أن تجد لها المتطوعين بغير صعوبة . على أن المغامرات التى عكفت الكنيسة بنوع خاص على التعجيل بها ، كانت بعيدة وخطرة وتكتنفها المشاق الكبار ، وكان معظم الرجال الذين خاضوا الحروب الصليبية من أولئك النفر الذى ليس لهم أى مطمح فى أى مغم دنيوى . ثم أن المشروعات التى أولتها الكنيسة عنايتها الخاصة دلت آخر الأمر على أنها أقل المشروعات جدوى ونجاحا ، ولم تكن حدود المسيحية الغربية لتمتد دوما شرق البحر المتوسط ، بل ترامت إلى ألبانيا وجنوب إيطاليا وأوروبا الوسطى . على أية حال فإن لفشل المشروعات ما لنجاحها من الأهمية لدى المؤرخ سواء بسواء .

ويبدأ عصر حروب الحدود ومستعمراتها قبل انبلاج الروح الصليبية الحقيقية بردح طويل ، وحركة التوسع فى تاريخ ألمانيا يرجع زمانها إلى أيام هنرى الصياد عندما استولى على براندنبرج (Brandenburg) سنة ٩٢٨ وضم إلى مملكته القبائل الوثنية التى كانت تقطن ما بين نهري الإلب

والأودر ، كان قد بدأ في سياسة الاستقرار والاستعمار ، تلك السياسة التي سار على منوالها من بعده أدواق الأطراف (Margraves) الألمان في تلك المناطق يبطء وبانتظام بما يربو على المائتين من السنين . وللصليبيين فضل المساعدة أحيانا على تنفيذ هذه السياسة في مراحلها المتأخرة ، وقد تحول الكثيرون من الوثنيين منذ البداية إلى المسيحية نتيجة لتلك السياسة ، ثم تلا ذلك تأسيس أبرشيات الحدود والكنائس التابعة لروثساء أساقفة همبورج ومجدبورج . غير أن الدين وجهوا هذه السياسة كانوا من الدنيويين ذوى الأنانية ، ومن أعظمهم هنرى الأسد دوق سكسونيا (١١٤٢ - ١١٨٠) وألبرت اللب (Albert the Bear) كونت براندنبورج (١١٣٤ - ١١٧٠) اللذان ركزا نشاطهما في تطور أمارتيهما وتوسيعهما ، واستغلا السلافيين ، ودبرا المكائد الواحد ضد الآخر وضد جيرانهما المسيحيين ، ذلك إلى جانب أنهما أهملتا المصالح القومية واتخذتا من الكنيسة أداة صريحة لتحقيق أطماعهما . على أنهما قد أبديا رجاحة عقل وخاصة في بناء الدولة ، ثم أنهما اتخذتا من تجار البلطيق ومن فلاحي شمال ألمانيا والأراضي الواطئة حلفاء لهم . ونحت حكمهما وحكم فرسان التوتون في بروسيا - وهم أعظم من نجحوا في السير على منوالهما - غدت مدن مثل ليبك (Lübeck) التي أسست سنة ١١٤٣ ودانزج (Dantsic) التي استعمرت سنة ١٣٠٨ ، غدت مراكز للتجارة والثقافة الألمانية ، بينما انتشرت القرى التي استقر فيها المهاجرون الجرمان حينذاك

وغطت الأراضي الزراعية في حوض الإلب والأودر . وقد امتدأ هذا الاستعمار وتجاوز تلك الأراضي إلى مدى بعيد ، كما بقى إلى ما بعد مراحل تاريخ العصور الوسطى ، إذ وضعت تلك المستعمرات الجديدة أسس بروسيا وسكسونيا في العصور الحديثة ، ويعزى لوجودها علاقة بولندا وبوهيميا بنظام الدولة في أوربا الوسيطة وما أعقب ذلك من تقسيم الأقوام السلافية إلى مجموعتين غربية وشرقية : وهولاء الرواد الأوائل الذين يمثلون التأثير الجرمانى والرومانى ، هم الذين وقفوا حجر عثرة في طريق الامبراطورية الروسية وحالوا دون توسعها غربا . وأقل أهمية من ذلك تقدم الجرمان بمحاذاة نهر الدانوب ، من نهر إن (Inn) إلى فينا والحدود الهنغارية ؛ ذلك التقدم الذى كان يقوده الرؤساء المتتابعون لأسرة بابنبرج (٩٧١ - ١٢٤٦ Babenberg) كحكام أول الأمر لأقاليم الحدود ، ثم كأدواق للنمسا . وقد ورث ملوك الهابسبورج (Hapsburg) كاهوهنتسولرن (Hohenzollerns) جزء من سلطانهم عن رجال الحدود الجرمان في العصور الوسطى ، أولئك الذين دقوا إسفيناً في قلب أرض سلافية .

وتاريخ تلك المستعمرات الالمانية يذكرنا أحيانا كثيرة كيف أن الإغارات أصبحت تعتبر نوعا من الحرب الصليبية ؛ ففي سنة ١١٤٧ انضمت جماعة كبيرة من الحجاج الالمان إلى الحملة الصليبية الثانية فسمح لهم بالخدمة في جيوش

سكسونيا وبراندنبورج ضد السلاف وفاء بعهودهم . ولما سئم أدواق
بابنبرج الاستمرار في عملياتهم على نهر الدانوب، تحولوا شرقا
لغزو مصر أو فلسطين ، وغربا للقضاء على الألبجنيين في
إقليم لانجلوك، وعلى العرب في أسبانيا. فإذا ما تحولنا عن ألمانيا
إلى شبه الجزيرة الإسبانية، وجدنا أن الجمع بين الحماس الديني
والمصالح التجارية لا يزال ملحوظا إلى حد كبير .

وقد بدأت حركة إعادة فتح الأقاليم الإسلامية على يد
المسيحيين في أسبانيا والبرتغال قبل مجلس كليرمون بجيلين
أو ثلاثة ، ولكن التقدم جنوبا ضد حكام قرطبة ظل أول
أمره سابقا لعصر الحروب الصليبية . ففي أسبانيا كما في أقاليم
الحدود الجرمانية ، غالبا ما كان الرواد المسيحيون الأوائل
من غوغاء القوم ودائما ما حاربوا وأعينهم حوالم فرصتهم
ورواصد طلبتهم ، ومن بين هؤلاء من كان مجرد مغامر
مثل «سيد كامبادور» المتوفى سنة ١٠٩٩ ، الذى خلم وخان
على التوالى قضايا المسيحيين والعرب ، والذى أسس مقاطعة
على حساب المسيحية والإسلام ، ثم انتهى به الأمر مع ذلك إلى
أن أصبح بطلا مشهورا مجلودا له اعتباره عند مواطنيه أهل
كاستيل ، ومات وهو حليفها . وقد استقر كثير من الفرسان
ذوى السلوك الأكثر استقامة قانعين بين جاليات عربية ،
وتطبعوا بعباعهم الحسنة والسيئة على السواء . غير أن الغيرة
الدينية كانت على الدوام عاملا في زيادة حدة الخلاف العنصرى
بين العرب والمسيحيين في أسبانيا ، وبدت المسيحية فيها مرارا

وهى في خطر من القضاء المبرم عليها . وفي القرن العاشر طارد حاكمان من أعظم حكام قرطبة ، وهما عبد الرحمن الثالث والمنصور ، القشتاليين إلى الجبال الشالية وأغارا على المناطق الداخلية في الأراضى المسيحية ، وأعقب ذلك بفترة ما عبور جموع البربر من المرابطين والموحدين لاغتصاب ممتلكات الأمويين والاستمرار . في الحرب المقدسة بحماس متجدد ، فأثاروا المخاوف من جديد كما أثاروا من التعصب في الممالك المهذبة ما لا يقل عن تعصبهم . وقد طلب الاسبان المسيحيون العون من جيранهم الشاليين ، فهرعت جيوش المتطوعين من نورمانديا وأقطنيا وبرجنديا عبر جبال البرانس لمحاربة المسلمين ، وليغتموا إلى جانب ذلك ثمن المغنم وغاليتها ، ثم لينشثوا مستعمرة لهم . وقد انطوت هذه الحركة في مراحلها الأولى تحت لواء البابوية ، وعرض البابا جريجورى السابع على المهاجرين أن يصحبهم ممثلون بابويون ، بشرط أن تكون الأراضى التي يخضعونها تابعة للبابوية (١٠٧٣) . ومنذ ذلك الحين كان يعد كل مشروع جديد ضد العرب في أسبانيا من الوجهة الرسمية خدمة للكنيسة الكاثوليكية .

وكانت الزعمة - حتى في أسبانيا - لا تزال نزعة نحو المطامح المادية للفوز بالسلطة ، فقد استفادت كافة الطبقات في الممالك المسيحية من انتزاع ولاية جديدة من المسلمين ، فحصل النبلاء على إقطاعات جديدة وأقبل البرجوازيون زرافات على المدن التي أخلاها المسلمون ، أو شجعهم الامتيازات العديدة التي..

مُنحوها على بناء مدن جديدة ، وتجمعت حول المدن جموع من الفلاحين آثروا في سرور أحواض الأنهار بما فيها من مخاطر ونخصب على الأراضي الشالية المرتفعة بما فيها من أمن وقحط .

ولم يكن هناك ملوك أكبر شهرة من أولئك الذين دبروا القيام بتلك المخاطر للصالح العام وأتموها بنجاح . ومن أولئك الحكام جيمس العظيم ملك أرجون الذي ترك لنا في مذكراته تقريرا أميناً أطلعنا فيه على القائلة التي جنتها هو وأتباعه من تحويل الخلافات الداخلية إلى جهود موحدة في حملة من تلك الحملات التي تسمى صليبية . يقول جيمس إنه ارتقى في سن السادسة عرش مملكة منقسمة على نفسها لم يكن للنفوذ الملكي فيها إلا ظله ، وفي سن الرابعة عشرة بدأ جيمس صراعا عنيفا لإخضاع المدن الثائرة وباروناته الخارجيين . وقد استمر هذا الصراع خمسة أعوام وأكسبه حظوة أكثر مما أكسبه نجاحا جوهريا . وفي النهاية عندما طالب الثوار بوقف الحرب اضطر لإجابتهم إلى رغبتهم دون أن يفرض عليهم دفع تعويض ما ، وظل التاج فقيرا بعد الانتصار كما كان من قبله . وبعد ذلك بقليل جال بمخاطر جيمس فكرة الهجوم على العرب في جزر البليار «بقصد تحويلهم إلى المسيحية أو القضاء عليهم» . ولما عرض خطته على البلاط (Cortes) سنة ١٢٢٩ تبدل الخلاف في لحظة إلى اتفاق ، وعدم الاكتراث إلى حماسين وولاء ، وأعرب البارونات عن أن غزو مملكة إسلامية في عرض البحر سيكون أعظم عمل قام به المسيحيون طيلة مائة:

عام ، ووعدوا بتقديم المساعدة وإيجاد القوات ، والخلمة بأنفسهم ، وذلك على اعتبار أن لكل نصيبه فى الغنائم بما يتناسب وحجم قواته . وقد تكلم رئيس أساقفة مدينة تاراجونا بالنيابة عن رجال الدين قائلا إن عينيه بدأتا أخيرا تريان خلاص المسيح ، وأعرب عن أسفه لعدم استطاعته الاشتراك فى الحملة نظرا لتقدم سنه ، ولكن رجاله وأمواله من أجل هذا المشروع المقدس رهن تصرف الملك . ثم أضاف قائلا إنه سيتمنح إذنا لكل من يرغب من الأساقفة والمقلمين بمصاحبة الملك بسرور وارتياح ، وذلك على اعتبار أن ينال الصليبيون من رجال الدين نصيبهم من الغنائم وفق القاعدة التى ينال على أساسها المدنيون نصيبهم . وقد انضمت المدن التجارية لنفس الغرض وب نفس الشروط ، ونجحت الحملة نجاحا باهرا فخضعت جزيرة ماجوركا تحت ضغط الحملة كلها ، وسلمت مينوركا دون قتال ، وغزا رئيس أساقفة تاراجونا بأذن خاص من الملك جزيرة إيفيسا (Iviça) لحسابه . غير أنه لم يقض على العرب نهائيا ولم يتحولوا إلى المسيحية كما كان الهدف من الحملة ، فقد غدا عرب ماجوركا مستأجرين للصليبيين الذين اقتسموا الجزيرة فيما بينهم ، ودفع عرب مينوركا الجزية السنوية للملك . وفى كلتا الجزيرتين ضمن العرب البقاء على دينهم وعاداتهم . ولما استعرض جيمس الحملة الصليبية بعد سنين عديدة من تمامها ، أعرب عن أسفه درجات الرضى عن نتائجها ، فكان يحصل من مينوركا لا على الجزية المتفق عليها فحسب ، بل وماشاء له أن يطلب . أما ماجوركا فقد يارك الله فى محصلها

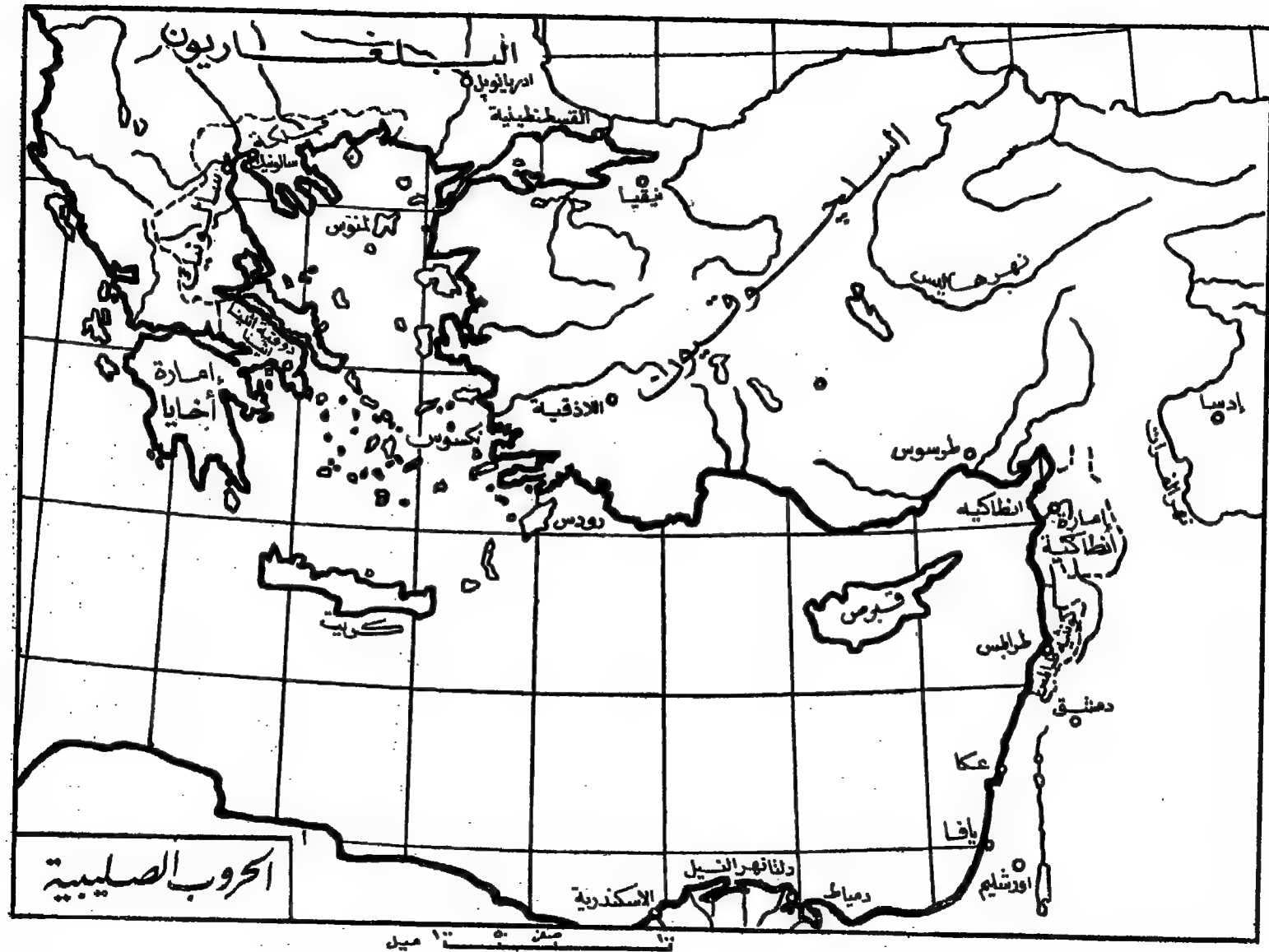
فتضاعف عما كان عليه أيام الحكم العربى .

نحن الآن فى وضع يسمح لنا بتفهم طبيعة الدوافع المعقدة لأولئك الذين اشتركوا فى الحملات الصليبية من دعاة وقادة وجند . ذلك لأن هذه المخاطر أو المشروعات إنما هى تكملة على نطاق أوسع لحروب الغزو التى قام بها الألمان والأسبان والنورمانيون .

والحروب الصليبية كالحروب الأسبانية كان الباعث عليها هو الخوف من تقدم المسلمين ؛ فقد كانت الحملات الموقفة التى قام بها الأتراك السلجوقيون تحت إمرة ألب أرسلان والملك شاه (١٠٧١ - ١٠٩٢) نذر الحرب الصليبية الأولى ، إذ اجتاحت بتلك الحملات قوم متعصبون خشنون اغتصبوا الخلافة العباسية فى بغداد . جميع آسيا الصغرى وأراضى سوريا فى مدى عشرين عاما ، ووجه السلاجقة ضربتهم القاصمة للامبراطورية الشرقية فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ ، وأسسوا سلطنة الروم فى آسيا الصغرى ، وأقاموا إمارات صغيرة فى سوريا ، فلم يكن أمام حكام القسطنطينية إلا استجارة الغرب واستنجاهه المساعدة العاجلة . ثم أن الحجاج الذين رجعوا من الأراضى المقدسة جأروا بالشكوى من الإهانات والاعتقالات التى عبر بها الغزاة عن عداوتهم للدين المسيحى . وهكذا أخذ جريجورى السابع عقب انتخابه لكرسى البابوية ، فى إعداد الخطة لإرسال حملة للدفاع عن الامبراطورية الشرقية التى كان يعتبرها بحق خط الدفاع عن أوروبا ضد الإسلام ، فأصدر

نداء عاما إلى حكام أوروبا لبذل المساعدة وللإشتراك بأنفسهم في الحملة ، وذهب في نداءه إلى حد الاقتراح بمصاحبة جيش النجدة. على أن جريجورى - وإن كان لا يعوزه الخيال - كانت تعوزه القدرة على إثارة الحماس العام ، فلم ينجح إلا في إثارة الشك بالإفصاح عن نيته في استخدام الحملة. بادئ ذي بدء ضد النورمانين بجنوب إيطاليا . تقدم على أية حال بعض المتطوعين ، غير أن مجهودات جريجورى قد انصرفت إلى نواح أخرى باندلاع لهيب الصراع بينه وبين هنرى الرابع بصدد مشكلة التقليد العلماني ، فترك مشروعه ليعتبه إربان الثانى في صورة أخرى أكثر إثارة للشعور في لحظة بدا فيها هنرى الرابع مهضوما مهيب الجناح . وكانت قوة السلجوقيين ووحدتهم بدورهما قد أصابهما الفتور والتصدع بوفاة عاهلهم الملك شاه ، والواقع إن خطر الأتراك المسلط كان قد انقضى عهده في ذلك الحين . غير أنه حتى وإن كان إربان قد أخبر صوابا بضعفهم فالإمامة اليسيرة بالتاريخ كانت تكفى لتتذر بأن حركة هجومية للإسلام قد همدت لتتبعها أخرى .

لقد رغب إربان - كما كان يرغب جريجورى - في تقوية الامبراطورية الشرقية ، ولكن خطته كانت من نوع جديد . إذ أراد تأسيس دولة لاتينية في فلسطين للدفاع عن بيت المقدس والجنوب الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . وكما كانت الحملة الصليبية الأولى رد فعل لانتصارات مستحدثة



كان قد أحرزها أمراء المسلمين ، كذلك كانت الحملتان الثانية والثالثة .

. لقد أعلن قيام الحملة الثانية في سنة ١١٤٧ نتيجة لسقوط الرها (Edessa) مركز الدفاع الشمالى الشرقى للمملكة اللاتينية ، أما الحملة الثالثة فقد أعدت سنة ١١٨٩ لاسترجاع بيت المقدس وشل قوة السلطنة المصرية التي بدت أيام صلاح الدين على وشك التهام سوريا وآسيا الصغرى ووادي الفرات . ولقد ترك فشل هذه الحملة التي اشترك في إعدادها الامبراطور فردريك بربروسا وملكا إنجلترا وفرنسا وكثير من الأمراء - قوة مصر موضعا لمهابة عظمى تكاد تبلغ جد الخرافة . ثم أن الحملتين الخامسة (١٢١٧) والسابعة (١٢٤٨) ذهبتا أدراج الرياح في هجمات غير مجدية على دلتا النيل ، وانتهتا إلى أشنع النتائج .

إن النظرة إلى الحروب الصليبية على اعتبار أنها عمل سياسى له أهميته الكبرى ، كان يعتنقها بإخلاص خير العامين الذين قادوا الجيوش المسيحية ، والكثير غيرهم ممن لا يقلون عنهم إخلاصا ، إلا أنهم - تحركهم العاطفة أكثر مما يسيطر عليهم العقل - اندفعوا وراء رغبتهم في رؤية الأماكن المقدسة وجعلها ملكا عاما للمسيحية . غير أن أشد القواد عنادا وأعظمهم نجاحا ، اتجهوا شرقا - كما أتجه بنو جلدتهم عبر نهر الإلب أو جبال الألب أو البرانس - لينشثوا إمارات جديدة لهم على حساب البيزنطيين أو العرب بصرف النظر عن كليهما . وطبيعى أن الحكام الأمراء الذين وكتلوا الإيمان أن يخلطوا الأرض

المقدسة لا ينطوون في تلك الفئة، إذ أن الحملة بالنسبة إليهم قد لا تملأ أكثر من مغامرة أو وفاء بكفارة أو ثمنا يشترطون به تقدير أتباعهم . ولكن غالبا ما كانت الحملة تضحية واعية للمصالح الذاتية والقومية معا في سبيل واجب أسمى . على أية حال مهما كانت دوافع هؤلاء من الانحطاط فلم يكن من صالحهم أن يتساعسوا عن واجب قد فرضه عليهم الرأي العام الأوروبي . وحتى فردريك الثاني - أقل الصليبيين استمساكا بأهداب الدين ، والذي وقى بما قطعه على نفسه من عهد ليظهر غريمه البابا بمظهر الخاطئ - نجده قد أنجز مشروعه الإنجاز التام قبل أن يجرؤ على الرجوع . ولكن حملة صليبية تسيطر عليها فئة من ذوى المراتب الدنيا لن تلبث أن تغدو شركة يساهم فيها نفر من القرصان ، فلقد كان البابا هو المسئول - إلى حد ما - عن كل حملة صليبية ؛ فهو الذى كان يصدر النداء من أجلها ويخطب من فوق المنابر داعيا الناس إلى المساهمة بأموالهم ، وهو الذى كان يحبر الناس على أداء القسم والتعهد بالاشتراك فى الحملات الصليبية خشية العقوبات الدينية ، كما كان يطالب أن يؤخذ رأيه فى اختيار الزعماء وعقد المجالس التمهيدية للحرب ، وكان طبعيا أن يصحب الجيوش الزاحفة مندوب أو أكثر عنه . على أنه متى تعمد القادة تجاهل تعليماته وتخطى مثليه ، بعد أن تبدأ الحملة سيرها ، أسمى البابا ولا حيلة له . حقا لقد كانت آراؤه تروق نظير الخاص والعام من الذين كانوا براء من الوان الإغراء المزجاة للزعماء . غير

أن عامة الجند لم تكن تستطيع أن تتخلف عن الجموع حين الأوبة إلا إذا وجدوا نفقات تعيينهم على العودة إلى أوطانهم . وكثيرا ما أهربوا عن سحقهم على الأغراض الخفية للحملة ، ولكن شد ما كانوا عليه من عجز عن فرض إرادتهم على الزعماء ردعا لسياستهم .

وقد لا يعوزنا المثل لما تقدم ببعض ما وقع خلال الحملتين الأولى والرابعة من أن جودفرى بويون ورفاقه من قادة الحملة حين مروا خلال القسطنطينية سنة ١٠٩٧ - أقسموا للإمبراطور الكسيوس (Alexius) اليمين على أن تكون جميع الأراضي التي قد يستولون عليها من المسلمين ، تبعا له . ومن الجائز أن القادة لم تكن لهم الخيرة من أمرهم وهم يحلفون هذه اليمين التي تقاضاها الكسيوس ثمنا لتأمين سلامتهم أثناء اجتيازهم الأراضي البيزنطية . على أن الحوادث التي تلت ذلك برهنت على حنث الزعماء بيمينهم وعزمهم على إبقاء المناطق التي غزوها في أيديهم بمثابة اقطاعات لهم من البابوية ، التي كانوا يحاربون في ظاهر الأمر من أجلها . وكلما ازداد اقترابهم من الأراضي المقدسة كلما ازداد وضوحا أن إنقاذهم للكنيسة المقدسة ليس إلا اعتبارا ثانويا؛ فعند تارسس (Tarsus) وعند أنطاكية (Antioch) وقعت مشاحنات عنيفة بين القادة بصدد الأراضي المفتوحة ، انفصل إزاءها بلدوين عن الجيش الرئيسي ليؤسس دوقية له في الرها ، بينما تخلف بوهمند (Bohemund) عن رفاقه بمجرد منحـه

أنطاكية ، وذلك خشية أن يسلبه أباهما أحد منافسيه . وقد يم
رايموند التسولوزى (Raymond of Toulouse) صوب
طرابلس ولم يرضخ للاستمرار فى التقدم إلا بالجهد الجهد .
وكانت النتيجة النهائية للحرب التى راح ضحيتها عشرات
الآلاف من الأرواح هى تأسيس الممالك الأربعة بيت المقدس
والرها وأنطاكية وطرابلس ، وكان شغل الحكام الشاغل
فى الثمانين سنة التى أعقبت ذلك هو توسيع حدود تلك المستعمرات
وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس . وقد عد هؤلاء الأمراء
بمثابة أبطال النود عن الصليب ، وأسست الهيئات الداوية
والاستبارية بموافقة الكنيسة لمساعدتهم على الدفاع عن أراضيهم .
وبصرف النظر عن الحملات المتعاقبة التى قصد شد أزهرم بها ،
كانت الأساطيل المحملة بحجاج الجند تأتى كل عام للاشتراك
فى عمليات الحول . وتعوزنا الأدلة على أن ملوك بيت المقدس
أو فياصلهم العظام قد زكوا مراكزهم باتباع سياسة لا تنطوى
على الأنانية . ولا يمكن أن يقع اللوم عليهم فى ذلك ما دامت
الممتلكات التى حكموها كانت بعيدة عما يجب أن يكون عليه
استعمارها ، فالفرسان والتجار هم الذين عثروا على ما يجذبهم
إلى الأراضي المقدسة وفيما عدا ذلك كان ضعف الممالك الفرنجية
محتوما ويزداد سوءا بمشاحنات القوم وسوء النية المتبادل
فيما بينهم .

ولقد انقضى ما يربو على المائة عام قبل أن تبدأ حملة أخرى
مسيرها صوب الشرق ، فالحملة الثانية التى ناجى بها القديس

برنارد بتكليف من البابوية ، كان يعوزها النظام وحسن التوجيه ، فما كان إلا أن باءت بالفشل الذريع إلى درجة أعقبتها رد فعل محسوس مضاد للسياسة المثالية التي كانت الحملة نتيجة لها ؛ فقد أظهرت لأوروبا عدم كفاية القوات التي جندت نظرا إلى أن المجندين قد روعيت فيهم دوافع التقوى أكثر مما روعيت كفاءتهم الحربية ؛ ذلك بالإضافة إلى إمالة النقاب عن وجه الأناثية التي اتسمت بها الإمارات اللاتينية . على أن الزعماء الأساسيين كلويس السابع ملك فرنسا والامبراطور كونراد الثاني ، من المسير توجيه الاتهام إليهم بعدم الإخلاص ؛ لقد ارتكب كل من هذين الزعيمين أخطاء زكراء ولكنهما كانا من الإخلاص للقضية التي أقلعا من أجلها إلى حد البراء من نقيضه .

وبالمثل في الحملة الصليبية الثالثة ؛ فعلى الرغم من أن نصيبا من الفشل يمكن أن نعزوه مباشرة لضروب الغيرة القومية التي أظهرتها الجيوش المشتركة في الحملة ، وللمشاحنات التي وقعت بين رتشارد ورفقائه ، فقد بقي استرداد بيت المقدس الهدف الأساسي للجيش منذ البداية حتى النهاية . وكانت هناك حالات من الحماسة وقعت نتيجة للتدخل الذي لا داعي له من الجيش في المنازعات التي اضطربت بين المستوطنين اللاتين ، وملابسات أخرى كان فيها الصليبيون على استعداد لمغادرة الأراضي المقدسة بمجرد أن يلوح في الأفق العذر المقبول . على أنه لم يكن هناك ميل إلى جعل الحج مشروعا تجاريا إلا .

فى سنة ١٢٠٣ عندما أقلع جنود الحملة الصليبية الرابعة من البندقية تاركين وراءهم المنسوب البابوى ومتخدين علانية وصايا انوسنت الثالث وتعليقاته ، وهو الذى كان نداؤه إلى الدول المسيحية المبرر لقيام الحملة بمغامرتها .

لم يبحر مع الحملة ملوك ، فالحركة من أول أمرها كانت فى أيدي مشاغبى الاقطاعيين ، وكانت الفروسية لا الدين هى الحافز عليها ، وكان زعيمها هو بونيفاس منتفرات (Boniface of Montferrat) ولى نعمة التروبادور ، وفرسان الجنوب ، والصدى الصدوق لفيليب دوق سوايا شقيق الامبراطور هنرى السادس وخليفته على العرش وأعدى أعداء البابا . انتخب بونيفاس لقيادة الحملة بدون موافقة البابا . وكان قد سبق له الاتساق مع فيليب على تغيير إلى اتجاه الحملة إلى القسطنطينية ، وبقي هذا الاتفاق حينما طى الكتمان عن الجيش الذى كانت غالبيته من عامة الجند تميل إلى استرجاع بيت المقدس ، بينما كان النبلاء أولو الكلمة الأخيرة على استعداد للإقدام على أية مجازفة يوحى بها مجرى الحوادث .

ولقد كان أملهم الأثيل هو غزو مصر التى كانت فريسة أشد اغراء من فلسطين ، وسنجد أن البقية الباقية من الحامية تطالب بأطيب الثمار التى يتمخض عنها أى نجاح للحملة . وللحصول على السفن من البندقية أخذ الصليبيون على عاتقهم حصار زارا (Zara) ، وبذلك كان أول عمل حربى لهم هو غزو مدينة مسيحية كل ما جنته هو أنها نافست البندقية على سيادة بحر الأدرياتيك

وفى زارا دعاهم رسل فيليب إلى مهاجمة القسطنطينية وخلع
ألكسيوس الثالث عن العرش وإحلال ألكسيوس آخر مكانه ،
وألكسيوس الأخير هو ابن إسحاق ^{الخطير} أنجيليوس المخلوع وصهر
فيليب . وقد لقي هذا الاقتراح كل التحيز من البنادقة نظراً
للتعصب الذى كان يواجه مصالحهم التجارية فى العاصمة
البيزنطية . وكان مفتاح الموقف فى أيدي البنادقة طالما كان الجيش
لا يستطيع التقدم ولا التقهقر سالماً إذا انسحبوا بسفهم عنه ، وكان
فى استطاعة النبلاء - وهم ليسوا فى حاجة إلى الاستمالة - أن يقنعوا
الحجاج الأكثر تلهفاً على الذهاب للأراضى المقدسة ، بضرورة
قبولهم عرض فيليب ، ذلك العرض الذى يتنافى مع الحالة
التي كان عليها ألكسيوس الثالث من الحسن والوفاق مع البابا
منتظراً منه مساعدته للحملة . ولتلطيف شناعة الخيانة
توصلوا إلى وعد يقطعه مغتصب العرش على نفسه وهو أنه
بمجرد اعتلائه عرش الإمبراطورية فستكون مساعدته للصليبيين
على غزو مصر بالأموال والموتن والرجال أمراً مقضياً .

١ وفى السابع عشر من يوليو سنة ١٢٠٣ دخل الجيش
القسطنطينية بعد حصار قصير الأمد أعقبه فرار ألكسيوس
الثالث وتربع ألكسيوس الرابع على العرش ، وكان الصليبيون
لا يزالون يتلکأون فى المدينة التى بهرهم رواؤها الخارجى ،
واجتذبت خيالهم وجشعهم جميعاً . ولما كان الشتاء قريباً
على الأبواب ، ولم يكن مرشحهم لعرش الإمبراطورية قد
أمن على مركزه بعد ، فقد رأوا أن من الخير أن ينتظروا حتى

الربيع . وقبل موعدهم المضروب ، وعلى الرغم من تأييدهم له ، هوى مرشحهم عن العرش فى يناير سنة ١٢٠٤ أمام أحد الثوار الوطنيين . وقد رحب الجيش بفرصة اتحاد الكنيسة الشرقية مع روما وتقسيم الإمبراطورية الشرقية بين رجاله ، وعقد اتفاق مع البنادقة لانتخاب إمبراطور لاثنى يُمنح ربع الولايات ، أما غنائمهم من القسطنطينية وفائض أراضي الإمبراطورية فتقسم بالتساوى بين البنادقة وباقي قواد الحملة . ومرة أخرى تُهاجم القسطنطينية وتأتى النيران على جانب كبير من المدينة ويتم الصليبيون عملية التدمير بالنهب وإراقة الدماء كيفما اتفق طيلة أيام ثلاثة ، ولم تنج من هذا المصير كنوز الكنائس والآثار وتماثيل الأماكن العامة التى لا تقدر بشئ . وكان المعتقد أن الغنائم فى مجموعها توازى ثروة أوروبا الغربية جمعاء ، ولكن حينما جاءت عملية التوزيع الرسمية ، كان كل نصيب الفارس لا يعدو ثلاثة وعشرين ماركا ، وأصحاب القس عشرة ، وحاز الجندى من المشاة خمسة . أما باقى نصوص الاتفاق التى أجل تنفيذها شكلا حين تصديق البابا ، فقد نفذت بغير انتظار لرده . وقد انتخب مرشح البنادقة ، بولوين كونت الفلاندرز ، لعرش الإمبراطورية وأعطيت له الولايات الأسبوية . أما يونيفاس مونفترات فقد حصل على مملكة سالونيك ، وتشمل على وجه التقريب ولايتى تساليا ومقدونيا ، وذلك على سبيل الرضى له ، وسمح لأتباعه بالاستيطان تدريجاً فيما بين بلاد اليونان وشبه جزيرة المورة .

واستولى البنادقة على جزر بحر أيونيا وجزر السكلاديز وأيچينا والجيل الأسود، وعلى ولايات البانيا وأكارنانيا وأيتوليا ومدينة أدرنه والأراضى المحيطة بها بالإضافة إلى بعض الممتلكات الأخرى الأقل أهمية .

أما البابا ، الذى اضطر للاعتراف بالوضع الراهن ، فقد طالب بإجابة مطالب ثلاثة : الأول هو أن تكون المسيحية الكاثوليكية هى الدين الرسمى للإمبراطورية . والثانى وجوب تسلم رجال الدين التابعين لروما ممتلكات الكنيسة البيزنطية . والثالث أن يواصل الصليبيون حجهم إلى انتهاء العام . ولم يجب الصليبيون غير المطلب الأول منها .

وقد انتهت حملة إنوسنت الثالث - كما انتهت حملة إربان الثانى- بتأسيس سلسلة من الولايات الإقطاعية والمراكز التجارية . ولم تقع فى سنة ١٢٠٤ إلا محاولات طفيفة لتبرير ما أتساه الصليبيون باسم الدين ، فقد سلك البنادقة من البداية إلى النهاية مسلك التجار القراصنة واتسموا هم وشركاؤهم من ذوى الحسب والنسب بتفاهة المطمع وتقابه أكثر من اتسامهم بالخصّة المتعمدة والدناءة المقصودة . وكان من البين أن تلك الخصائص هى الصفات الوحيدة الممكنة التخلق بها للاشتراك فى حملة صليبية ، وذلك لأن السياسة الصليبية كانت وشيكة الانهيار . ولدينا من القصص ما يلقى شعاعاً على تلك الحويلات التى مرت بالإمبراطورية اللاتينية مهددة من الداخل بالنزاع والتنافس بين البيوتات البارونية ، ومن الخارج بالبلغاريين

وحكام ابيروس المستبدين ، وأباطرة نيقية الإغريق . ومن هذا القصص قصة هنرى الفلاندرز ، ثانى الأباطرة اللاتين (١٢٠٥ - ١٢١٦) وهو السياسى البنائى الوحيد الذى انجته الحملة الصليبية ، وقصة وليم شامبلت (William of Champlitte) الذى اجتاحت شبه جزيرة المورة بما لا يزيد عن المائة فارس وقد نادى به الإغريق محرراً لهم من الظلم ، وأسس إمارة أخايا (Achaea) (١٢٠٥ - ١٢٠٩) ثم فقدوها بسبب خيانة أحد ضباطه ، وقصة نيقولا أشيولى (Niccolo Acciajuoli) المتوفى سنة ١٣٦٥ وهو المالى الفلورنسى الذى ارتفع إلى أن صار سيد كورنثا وكونت مالطة والحاكم الإدارى لأخايا . وقد كان من الممكن أن يأتى أولئك الرجال بأعمال ذات شهرة باقية لو أتيح لهم ميدان فسيح . ولكن كان من المقدر ألا يصبح الإغريق المغلوبون على أمرهم لاتينيين على يد حفنة من الحكام والتجار النشطين ، فما أن سنحت الفرصة لذلك حتى أخذت ولايات الإمبراطورية اللاتينية الواحدة تلو الأخرى فى الانضمام إلى جانب نيقية ، إذ فقد اللاتينيون أدرنة وسالونيكاً فى سنة ١٢٢٢ ، ثم فقدوا الأقاليم الأسيوية سنة ١٢٢٨ ، واسترد ميخائيل باليولوج (Michael Palaeologus) القسطنطينية سنة ١٢٦١ ، وبقيت تحت حكم أسرته منذ ذلك الحين حتى الفتح العثمانى سنة ١٤٥٢ .

أما فى بلاد اليونان والجزر فقد ظل المستعمرون على ما

هم عليه من توطيد أقدامهم بعد سقوط الإمبراطورية اللاتينية بأمَد طويل . على أن آخر أدواق أثينا من الفرنجة قد قتل سنة ١٣١١ وهو يحارب العصبة القطلانية ، وهى من جنس المرتزة وتتألف من مسيحيين وأتراك . وفى سنة ١٣٨٠ لقيت أخايا نفس المصير بأن غزتها العصبة النافارية بعد أن ظلت سنين طويلة خاضعة خضوعاً شائئاً لأسرة انجفين النابولية . وقد بقيت الولايتان فى حالة من العجز عقب تلك الذكبات ، ولكن البيزنطيين والبنادقة قد تمكنوا من امتصاص أغنى أجزاء شبه الجزيرة ، وجاء الأتراك الغزاة فى القرن الخامس عشر فحوا ما رتبى من آثار الفرنجة ونظمهم . وقبل قدوم أولئك الغزاة القساة جلا البنادقة وفرسان الاسبتارية - وهم آخر من كان يمثل سلطان غرب أوربا وقوته - جلوا رويداً عن شرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد اختتمت تلك القصة الرائعة والحلقة الخاطفة من حلقات التوسع الأوربى بالمعاهدة التى عقدها البنادقة مع السلطان سنة ١٤٧٩ ، وبسقوط جزيرة رودس معقل فرسان الاسبتارية فى أيدي الاتراك سنة ١٥٢٢ . ولكننا قد نلاحظ فى مألظة إلى مطلع القرن التاسع عشر وجود هيئة صليبية غربية تحررت من العهود والالتزامات القديمة ، وكان لا يزال مسموحاً لها بممارسة دكتاتورية وسيطة تخليداً لذكرى الخدمات التى أداها أسلافهم للمسيحية . أما الهيئات الأخرى فقد اختفت فى أزمنة سابقة ؛ وفرسان الداوية الذين أجلوا عن سوريا

ليعيشوا في أملاكهم بأوروبا ويزاولوا أعمال المصارف ،
اتهموا بالهرطقة ، وقضى البابا كليمنت الخامس على هيتهم سنة
١٣١٢ إرضاء لجشع ملك فرنسا . أما الفرسان التيوتونيون ،
فقد بحثوا عن ميدان جديد للاستعمار تبعاً لمشورة رائدهم
هرمان زالتسا (١٢١٠-١٢٣٩) ووجدوه في حوض نهر الميستولا
الأدنى حيث استقروا بتأييد البابا والإمبراطور وملك بولندا
لإخضاع السلافيين الوثنيين . غير أنه لما وقع الشقاق
بينهم وبين ملك بولندا بسبب أطاعهم الإقليمية ألزموا بالاعتصار
على حدود ضيقة في شرق بروسيا بعد سنة ١٤٦٦ ، ولم
يرتفع صوت بالدفاع عنهم حين تحول آخر رئيس لهم - وهو
من أسرة هوهنسلورن - إلى المذهب البروتستانتي وخلف كل
أملاك الهيئة لعائلته سنة ١٥٢٥ .

والآن وقد انتهينا من الكلام عن مغامرات أولئك المخاطرين
من الفرنجة ، نتحول عن ذلك لنلاحظ انطفاء الجذوات
الأخيرة من حماس الجيوش التي أعدت لإمداد الصليبيين في
الأراضي المقدسة . لقد أظهر الألمان والهنغارويون في الحملة
الصليبية الخامسة إخلاصاً جاوز الحكمة بإستاد القيادة العليا
للحملة لندوب بابوى ، وبتنفيذ خطته الطائشة إلى نهايتها المريعة.
اندفعت الحملة بأمل القضاء على الإسلام واستتصاله من شرق
البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن ليقتنع زعماء الحملة أن تبقى
دمياط بأيديهم ، بعد أن استولوا عليها ، أو الأراضي المقدسة

التي عرضها عليهم السلطان مقابل تخليهم عن دمياط ؛ فقد كانوا يرغبون الحصول على كل شيء أو يفقدون كل شيء فكان أن فقلوا حتى دمياط في النهاية ! لقد ألحق بهم فيضان النيل الذي لم يكن في حسابهم هزيمة المضحكات المبنيات في آن ، وهكذا انتهت الحملة إلى عقبي كفرت فيها الجسارة النادرة عن الجشع والخلاف .

وقام القديس لويس بحملتيه الصليبيتين في سنتي ١٢٤٨ و ١٢٧٠ ولم يكن فيها إلا متحدياً للمنطق السديد ، حتى اعتقد الناس أنه تقي أحق ، وشاركهم في هذا الاعتقاد البارونات الذين اشتد ولاؤهم له إلى الحد الذي لم يجسروا معه على خذلان ندائه . ولكن حماقات هذا شأنها تجعل التاريخ شيئاً أفضل من مجرد سجل للجرائم التي تجافي الذوق العام . لم يكن القديس لويس قائداً حريياً ، وكان هجومه على مصر مقدراً له الفشل ، وزاد من النكبة إهمال اتخاذ الحيلة العادية ، فقد كانت حملته على نونس تحت وطأة لفح الشمس في صيف إفريقيا، وانتهت - كما كان متوقفاً لها - بموته وفناء جيشه بالوباء .

هذه الحملات ، حتى لو أخذت كمثل يحتذى ، لم تكن ذات جدوى ومع ذلك ، فحينما رमित الحروب الصليبية وقادتها بأَمْضِ النقد ، لم يخل المجال من لحظات في حياة القديس لويس الخيالية تلج بالخطر إعجاباً به ، منها ما حدث من أنه رفض - وهو أسير سلطان مصر - أن يشتري حريته بإحدى القلاع المسيحية رغم التهديد والوعيد بتعذيبه ، ومنها سهره وحيداً بفلسطين يترقب

فى صبر طيلة سنوات ثلاث وصول الإمدادات التى لم يقدر لها أن ترسل أبداً ، ومنها لحظاته الأخيرة وهو على فراش الموت يصلى ليمنحه الله القوة والعون . قد تبلى المثل العليا وتنقضى على حين تبنى ذكرى أولئك الذين حققوها ملكاً للعالم لا يبلى ولا ينقضى .

ولو سألنا أنفسنا عن النتائج المحسوسة التى تمخضت عنها الحروب الصليبية ، حين أضحت الصلاة فى الكنيسة المقدسة أسطورة من الأساطير ، وحين أضحى اسم الحرب الصليبية مثلاً لأى مشروع وهمى ، لكان الجواب هو أن الحروب الصليبية قد أثرت فى أوروبا بوجه خاص تأثيراً سلبياً ، وبطرق غير مباشرة ؛ فقد برهنت على خطأ الاعتقاد فى نظرية الكنيسة التى تروم تحقيق أهدافها عن طريق الحرب ، ثم أنها خلصت أوروبا من فائض شعوبها من ذوى المغامرات الإقطاعية. أضف إلى هذا أنها عجلت بإفقار تلك الأسرات الإقطاعية الأخرى التى ساهمت بنصيب بين الحين والحين فى الحرب الصليبية . على أنه من المتعذر إثبات أن الحروب الصليبية قد أدت إلى تحرير القن تحريراً إجمالياً أو أدت إلى حصول المدن على حريتها حصولاً تاماً ؛ ولو أن مثل تلك الحملات كان يعنى حقاً الغرض المادى وازدياد الطلب على جمع المال. أما عن تقدم الحضارة الغربية فلم تساهم الحملات الصليبية إلا بالقليل فى ذلك ، إذ لم يكن هناك إلا اليسير ليتعلمه الغرب من المسلمين فى سوريا ؛ لقد كان تسرب علوم العرب وفلسفهم

إلى أوروبا عن طريق بالرمو وطليلة حيث اختلط المسيحيون بالمسلمين ، وقامت الصلة بينهم على أساس سلمى . أما الحرب الصليبية الرابعة فقد كان لها شلوذها عن القاعدة العامة ؛ إذ لم يكن من قبيل الصدفة أن الفن وهندسة البناء فى البندقية قد تطورا تطورا سريعا حين قامت علاقات الصداقة الوثيقة بين الجمهورية والقسطنطينية ، فعن طريق تلك العلاقات وعن طريق دراسة الآيات الفنية التى جلبها الصليبيون معهم إلى ديارهم عاود فنانو البنادقة تأثرهم القديم العهد بالطبيعة من حيث هى ، وأسسوا مدرسة كلاسيكية فى روحها ، مسيحية فقط فى مظاهرها الخارجية لا الجوهرية. أما ضروب المعرفة والأدب التى ورثها الإمبراطورية الشرقية عن روما وأثينا فلم تكن تروق فى نظر أمراء البنادقة التجار . على أن القرن الثالث عشر شهد فى شمال جبال الألب وخاصة باريس اهتماما متزايدا باللغة والمؤلفات اليونانية من حيث فائدتها للمشتغلين بالإلهيات أو مجادلى المدرسين . ومن الناحية السياسية فللحملة الصليبية الرابعة أهميتها من حيث أثرها على توازن القوى فى إيطاليا ، ففضلها أحرزت البندقية قصب السبق على منافستها التجاريتين فيزا وجنوا ، ولم تفقد البندقية هذه الأسبقية أبدا ، وقد جعلتها أيضا فى مركز فريد باعتبارها وسطا بين الشرق والغرب ، ثم أنها وضعتها على رأس إمبراطورية تقارن بإمبراطوريتى أثينا وقرطاجنة ، وهما القوتان البحرىتان فى العصر القديم . أما دول شمال أوروبا

التي حمات عبّ الحروب الصليبية واصطلت بنارها ، فكان
تأثرها بتلك الحروب - سواء أكان من الناحية السياسية أم
من غيرها - أقل من تأثر المدن الإيطالية .

الفصل التاسع

المدن الحرة

انتشرت المدن الحرة وتناثرت في كل دول العصور الوسطى ، وهذه المدن كانت تتمتع بامتيازات خاصة ، ويقوم على حكمها موظفون إداريون . وبعض هذه المدن - وخاصة في إيطاليا وجنوب فرنسا وأراضي الراين - يقوم على مواقع بل وداخل أسوار المدن القديمة الحرة (municipia) وهي التي أسستها المهارة السياسية للإمبراطورية الرومانية على نمط مصغر لروما ، وكانت بمثابة مقر للحكم ومدارس للثقافة . غير أنه - حتى في إيطاليا - لا تدين المدنية الوسيطة للعصور القديمة بشئ يعدو أسوارها وقنواتها ومدرجاتها وكنائسها ؛ فالحرمانيون الذين أغاروا على أوروبا تجاهلوا النظم الرومانية التي قامت في تلك المدن الحرة ، ولو أنهم كثيراً ما اتخذوا منها معاقل لهم أو مقراً ملكياً أو مركزاً للإدارة . أما السكان فقد أنزلهم البرابرة إلى مستوى الأفنان ، فأضحوا ملكاً للملك أو لأسقف أو لتكونت ، وكان يقوم على حكمهم نائب عن الحاكم الذي كان يرأس أيضاً محكمة السيد الإقطاعي . وحتى أواخر العصور المظلمة لم تكن هناك ضرورة تدعو للفرقة بين المدينة والقرية الإقطاعية التي بها مقر صاحب الضيعة ، إلا عندما تطورت الحسرة والصناعات وتكونت طبقة من أصحاب المهن التجارية وظلت

المدينة الصغيرة بعد ذلك بزمان طويل محتفظة بخصائصها كمجتمع زراعى . وكثير من سكان تلك المدن كان يضيف إلى أرباحه من حرفته أرباحاً جديدة باشتغاله بالفلاحة في الحقول العامة ورعى الماشية في المراعى العامة . وكانت الخنازير والدواجن تتغذى بما تلتقطه من الطرقات ، ومن ثم كانت الدور المؤجرة لسكان المدينة ملحقة عادة بساحات ، وسواء أكانت المدينة صغيرة أم كبيرة فإنها كانت ظاهرة غير مألوفة تجافى العادة التيوتونية ؛ فقانونيو التيوتون أدركوا أنهم أمام شكل جديد من أنواع المجتمع ، ولكنهم لم يشاعوا وضع تعريف يحدد هذا المجتمع ، أو وضع قاعدة عامة بشأنه ، مفضلين تناول كل مدينة على حدة باعتبار أن لها خصائصها التي تفرد بها .

حقاً إن التحديد لم يكن أمراً يسيراً لأن المدن الوسيطة اختلفت اختلافاً كبيراً في الحجم وفي نوع الحكم وفي العناصر المكونة لسكانها . على أن المدن تتفق جميعاً في وجه واحد وهو أن أعظم السكان نشاطاً وأكثرهم أثراً في حياة المدينة هم طوائف التجار وأرباب الحرف والصناعات . وليس معنى هذا أن تلك الطوائف تكون الغالبية العظمى من السكان ، فإلى جانب المجتمع الصناعي كانت هناك فئة من أصحاب المصالح الأخرى ، تلك المصالح التي كثيراً ما تناضل ضد سيطرة رأس المال ونفوذه . في المدينة أو بالقرب منها قد يكون هناك دير أو قلعة أو كاتدرائية أو قصر ملكى يدين له مجتمع المدينة بكيانه . ثم أن

سكان المدينة قد اغتنوا وأصبحوا مستقلين بالاستفادة بالعرف وبالحماية التي أسبغها الإقطاعي الكبير عليهم ، فاشترى الامتياز أو اغتصبوه اغتصاباً . ولكن كان مكانهم لا يزال يعتبر في مستوى خدام وأتباع وأنصار الإقطاعي الكبير الذي كان يتيح الفرصة دائماً لاسترداد ما فقد من حقوق الملكية والسلطة القضائية . ثم أنه إذا كانت المدينة تقع على حدود دولة أو في أرض تم غزوها حديثاً فهي بمثابة حصن بقدر ما هي سوق ، إذا أصبح عدد من سكانها فرساناً أو جنداً مسلحين يحوزون أراضيهم بشرط الدفاع عن المدينة ، وهذه الطائفة من السكان لا تكثر طبعاً بمصالح أرباب المهن والتجار . أما المدن في أقاليم البحر الأبيض المتوسط بما لها من تقاليد عريقة في المجتمع الحضاري ، فقد انتقل إليها النبلاء من البقاع المجاورة وشيدوا لأنفسهم الدور في قلبها ، وكثيراً ما تأمروا فيما بينهم لتكون لهم السيطرة على حكومة المدينة . وغالباً ما يمر وقت طويل قبل أن تتمكن طبقة من الناس أدركت فكرة الحرية المدنية من التغلب على هذه القوى المعادية . ثم أن الامتيازات التي تحصل عليها المدينة بمشقة ، كثيراً ما انتزعت من أولئك الذين قصد بهم التمتع بها ، وكثيراً ما ألغيت أو أوقفت وقفاً على فئة قليلة من الحكام .

ومع ذلك ، فإن أهداف المواطنين الأحرار في مدن العصور الوسطى واحدة لا تتغير من مكان إلى آخر أو من جيل لآخر ، وهي أكثر تجانساً مما قد نقدر لها في عصور كانت الأخبار فيها تنتقل

من مكان إلى مكان يبطئ. غير أن علاقات كل مدينة بسيدها كانت تسوى والأوضاع تستقر باتفاقية تختلف في كل مدينة عن الأخرى . إن الحال تختلف الآن في أوروبا الحديثة حيث المدينة لإقليم إدارى من الدولة وتنظم على نمط واحد ، بينما نجد أن براءة المدينة وإعفاءاتها (Town-charter) في أوروبا الوسيطة كثيراً ما كانت تنطوى أيضاً على التسليم بنزوات إقطاعى صغير ورغباته ومصالحه ؛ بل إن الملوك كانوا يميلون إلى معاملة المدن التى تقع داخل نطاق الدومين الملكى معاملة تسودها روح النفعية الصريحة . هذا بالإضافة إلى أن اللوردات جميعاً كانوا لا يميلون إلى التدخل فى شئون المواطنين الأحرار أكثر مما كان ضرورياً لضمان تصريف كافة الأعمال ودفع الضرائب بانتظام تام ، وطالما أنهم ضمنوا ذلك فإن الشئون الداخلية للمدينة كانت تترك لسكانها يتصرفون فيها على الوجه الذى يروقهم . ولكن ، فيما يتعلق بالشروط الأساسية فى الاتفاقات ، كان لكل طرف من طرفى التعاقد آراءه التى لا حيدة فيها ولا تردد ؛ فقد اتفق اللوردات على أن امتيازات التجارة وحقوق الحياة تمنح بأمان إذا كان الموظفون الإداريون يعينون بمعرفتهم ويكونون مسئولين أمامهم . وافترض سكان المدينة - من الناحية الأخرى - أن الوعد بحقوق الحياة الحرة والتجارة الحرة لن يساوى شيئاً إلا إذا كان مشفوعاً بحق انتخساب كافة الموظفين وأعضاء المجالس .

وكان الانتصار فى جانب اللورد حيناً وفى جانب سكان

المدن أحياناً ، وتبعاً لذلك كان هناك نوعان من المدن ذات الجهود والبراءات الإعفائية : النوع الأول ويشمل الجزء الأكبر من المجتمعات التي تتمتع بامتيازات معينة تحت حكم موظفين إداريين يعينهم اللورد ؛ والنوع الثاني ويتكون من تلك المدن التي لا تتمتع فقط بامتيازات ، بل وبحريتها أيضاً ؛ بمعنى أن فئات منها تتعاون على القيام بالحكم الذاتي . والفرق بين النوعين ليس واضح المعالم وضوحاً يكفي لإرضاء القانوني في العصر الحاضر ؛ فكثيراً ما تضطر مثلاً مدينة حرة لأن تميز اللورد أن يشترك في تعيين الموظفين الإداريين ، بينما نجد من الناحية الأخرى أن فئة متواضعة من سكان مدينة أخرى قد تتمتع بسلطة قضائية للحكم في القضايا والمخالفات التي تعرض على المحكمة الخاصة بالمدينة بدون تدخل نائب الحاكم . والنوعان من المدن تتلاشى الفروق بينها لولا أن « الحرية » لا تحوزها المدينة ذات الامتيازات عادة إلا بعملية مساومة طويلة أو بالاغتصاب آخر الأمر . والنوع الذي يتمتع بالحرية والامتيازات لم يوجد إلا في مرحلة متأخرة من مراحل تطور الحكومات البلدية .

وإذا حللنا امتيازات تلك المدن التي تظل تحركها أصابع النبلاء نجد أن أولى الامتيازات في الترتيب الزمني وفي الأهمية هو أمن المدينة الذي يملك الملك وحده أو نائبه أن يمنحها إياه ، وتصبح المدينة بهذا الامتياز محراباً نحميه ضروب خاصة من القصاص والعقاب ينزل بمعكري صفو هذا الأمن ، ومثل المدينة في ذلك كمثل القصر الملكي أو هيكل أحد القديسين .

ومواطن المدينة يقف من الملك موقف اليتيم من أمه الثكلى ، فإذا أساء إليه أحد عدت الإساءة ذنباً أرتكب ضد الملك . ويأتى بعد ذلك حق المتاجرة ، فيسمح لمواطنى المدينة بأن يستبدلوا ما يستحق عليهم من ضرائب والتزامات بصفتهم أقتاناً بإيجار مالى محدد لكى يصبحوا أحراراً فى مزاولة ما يدر عليهم أرباحاً تفوق دخلهم من الزراعة . وهم يتسلمون رخصة تبيع لهم إقامة سوق أسبوعية ، ومن الجائز أيضاً أن يقيموا معرضاً سنوياً . وقد اتفق على أن يفصل فى جميع الخلافات التى تحدث بين التجار فى المعرض أو السوق حسب القانون التجارى السارى فى عالم التجارة . هذا ويمنح جواز أمان لكافة الغرباء الذين يريدون الانضمام لأمى جانب من الجانبين لأغراض لا يجرمها القانون . وكانت الضرائب المفروضة على المعرض أو السوق يحصلها اللورد فى بادئ الأمر ، وكان القانون التجارى يطبق فى محكمة اللورد . غير أن الأمر انتهى باللورد فيما بعد إلى تأجير حق جمع الضرائب وحق نظر القضايا التجارية إلى سكان المدينة . وإذا سمح اللورد للسكان بتكوين نقابة للتجار كما حدث فى إقليم الفلاندرز وفى إنجلترا ، تتولى هذه النقابة عقد الاتفاقات مع اللورد . ثم أن النقابة كانت تشتري عادة من اللورد مجموعة أخرى من الامتيازات ، مثل احتكار الأسواق التجارية والصناعية فى المدينة وضواحيها ، وحقوق الاستيلاء على كافة السلع والبضائع المستوردة ، وسلطة سن اللوائح التى تحدد الأجور والأسعار وتنظم ساعات العمل وتحافظ على مستوى جودة البضائع المصنوعة .

وإذا كان اللورد أميراً من الأسرة المالكة ، فكثيراً ما يضطر للتنازل عن امتيازات ذات مجال أوسع كالإعفاء من ضرائب الطرق والجسور ومن الضرائب الجمركية في الموانئ ؛ وكحق شن إغارات للأخذ بالتأثر على العدو الداخلى والخارجى الذى يسلب التجار أو ينتهك حرمة امتيازات المدينة ، وكالحصانة فى القضايا المدنية من أى سلطة قضائية إلا سلطة محكمة المدينة.

إن من اليسير على المرء أن يسوق أمثلة عديدة من هذا الطراز من المدن ، غير أننا لا نستطيع أن نذكر هنا إلا بعض المدن التى يزيد تاريخها وعاداتها من معلوماتنا . ومن أقدم المدن مدينة سانت ركوويه (St . Requier) فى إقليم پونتييه (Ponthieu) بالفلاندرز وهى مثل ملحوظ للمجتمع الصناعى يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الكارولنجية، وقام على تشجيعها سياسة بيت كبير من البيوتات الدينية . ويعتبر النصف الثانى من القرن الحادى عشر فترة ملحوظة نظراً للذكاء وبعد النظر اللذين أظهرهما اللوردات الدينيون والدينيون فى تشجيع نمو مراكز تجارية جديدة كمدينة بريتي (Breteuil) النورمانية، التى أسسها أحد صناعيل وليم الفاتح فى سنة ١٠٦٠ ، والتى تستحق منا عناية خاصة باعتبارها نموذجاً قلد على نطاق واسع فى إنجلترا وويلز وأيرلندا ، وكالمدن السوابية ألنزباخ (Allensbach) ورادولفتسل (Radolfzell) التى منحت براءاتها الإعفاية على يد الدير الكبير فى رايشناو (Reichenau) بعد ذلك ببضع سنين ؛ وليست هاتان المدينتان إلا شاهدا على الملكية الإنشائية التى تتمتع بها نبلاء الألمان . وفى فرنسا حصلت مدينة لورى

ان جاتينيه (Lorris en Gâtinais) — وهى مدينة تقع
فى دومين ملك فرنسا — حصلت هذه المدينة من لويس السادس
على جملة امتيازات غدت بعدها مقياساً للمدن البورجوازية
التي تأسست تحت حكم أسرة كاييه المباشر .

غير أن البراءات الإعفاية التي قبلها شاكرا المدن الجديدة
أو النواة التي تمخضت عنها مراكز الأسواق التجارية فيما بعد،
لم تكن كافية لإرضاء مطامح كبريات المدن القديمة . وفى
نفس الوقت الذى أخذ فيه النبلاء البعيدو النظر يوزعون
الامتيازات التجارية يميناً وشمالاً ، بدأت بين الطبقات الحضرية
فى شمال فرنسا وفى إقليم الفلاندرز وفى بعض الولايات الإيطالية،
حركة تطالب بحقوق على نطاق أوسع ، أى بلمساتير بلدية «حرة»
من النوع الثانى الذى سبق ذكره . لقد كانت الصيحة العامة فى
تلك المناطق هى الرغبة فى التمتع بنظام «القومون» (Commune)، وقد
اختلطت هذه الصيحة بضروب الشكوى من الدكتاتورية
الإقطاعية وهى الشكوى التي كثيراً ما تتطور إلى شكوى
ضد الكنيسة ما دام أن سيد المدينة فى العادة هو أسقف أو مقدم.
إن القومون هو نوع من التحالف (Conjuratio) ، يقسم
بالتزامه المتحالفون ويحمل بعض أوجه الشبه بالتآخي السدى
قام لفرض هدنة الله (١)، وبالتنقيات التجارية (Merchant guilds)،
ولكن هذا التحالف له أيضاً بعض المظاهر الهامة ، فهو يقوم

(١) أنظر ما سبق صفحة ١٠٢ .

على تحدى أصحاب النفوذ ، ويهدف كذلك إلى اغتصاب حقوق تكون من الناحية القانونية مخولة للسيد اللورد أو للتاج . والتحالف أيضاً معاد للطبقات الحاكمة في المجتمع ، وهدف الأعضاء من هذا التحالف هو إقامة شكل من النظام الجمهورى للحكم في مدينتهم . ومعظم هؤلاء الأعضاء من التجار وأرباب المهن والحرف ، غير أنهم اهتموا بنواح أوسع نطاقاً من نواحى التجارة ، وكثيراً ما صمموا على علم السماح لأى رجل مها كانت وظيفته أو مهنته أن يبقى في المدينة ما لم ينضم إلى القومون .

أما أصحاب تلك النفوس الجريئة التى وجهت الحركة القومية في هذه المرحلة المبكرة ، فقد أفرعوا معاصريهم بتطرفهم ، ويلاحظ سلوكهم فكرتنا السابقة عن أن المدني هو رجل سلام . لقد اعتاد سكان المدن الأحرار في العصور الوسطى الدفاع عن حقوقهم بالقوة ، وليس من الغرابة في شئ أن تقرر نقابة التجار في مدينة فالنسيين (Valenciennes) أن الأعضاء يجب أن يحملوا أسلحتهم إذا ما حضروا إلى السوق ، كما ينبغى أن يركبوا جماعات إذا ما ذهبوا إلى الأسواق البعيدة . وسكان مدينتى ميلان وجنت هم طراز واحد في أطماعهم الإمبراطورية وفي استعدادهم لإنزال الضربات القاضية لمصلحتهم كلما شبت حرب في البلاد . وإذا كان سادة تلك المدن قد أظهروا سخطهم وعدم رضائهم عن هذه الحركة ، فقد تبنوا أنهم بعملهم هذا قد أثاروا على أنفسهم حفاظ

سكان المدن . فى النضال من أجل الحريات ، أظهر الحزب القومونى روحاً وشجاعة عاليتين بعيدتين كل البعد عن أن تلحقها الهزيمة ، ولو أن هذه الروح فى ساعة النصر كثيراً ما لوئت نفسها بجرائم وحشية انتقامية . ثم أنهم دفعوا بأنفسهم بنشاط وذكاء وسط عداوات قائمة بين طبقات أخرى ذات مصالح مختلفة مساندين الكنيسة فى صراعها مع الدولة ومساندين الدولة ضد البارونية ، أو اللورد الضعيف ضد منافسة اللورد القوى . إن سياسة المدن كثيراً ما كانت ذات وجهين ، فهى مادية وانفصالية ولكنها انطوت أيضاً على مثل عليا للعدالة وللحقوق المدنية التى قدر لها أن تسود فى الصراع من أجل البقاء ، وأن تتمخض عن إصلاح سليم فى بناء المجتمع . ولم يتحقق البرنامج القومونى بين عشية وضحاها ، فالنضال الذى بدأ فى القرن الحادى عشر من أجل الحكومات الحرة ، استمر إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وكانت قوى الحركة قد أضناها الصراع فى شمال فرنسا وإيطاليا قبل أن تبلغ هدفاً فى جنوب فرنسا أو فى المانيا . وفى صراع يضطرم أواره فوق مثل تلك المساحة الشاسعة لعدة مئات من السنين كان من الطبيعى أن تعدل المبادئ ، وأن يبتكر كثيراً من النماذج المختلفة لحكومة المدينة . وقد كانت الحركة فى أواخر مراحلها سلمية ، وكان المال حجة أقوى من السلاح ، ولم تعد الأحزاب القومونية أحزاباً ديمقراطية ولو أنها لم تحدد لحظة عن أن تكون أحزاباً جمهورية ، وقد احتكر السلطة

عملياً - إن لم يكن نظرياً - طبقة نبلاء المدينة . وأما الاجتماعات العامة لسكان المدن الأحرار - تلك الاجتماعات التي كانت قوية في الأيام التي كان فيها القومون ثورة منظمة - فقد فقدت أهميتها تدريجياً في القومونات القديمة ، ولم يعترف بها على الإطلاق في كثير من القومونات المتأخرة ، إذ وزعت سلطاتها بين نقابات المهن والحرف التي كانت تعقد اجتماعاتها كل منها على حدة . ولد صاحب هذا التقليل من أهمية ساكن المدينة العادي نزعة إلى قصر الحقوق المدنية على المرشحين من ذوى الأهلية والخبرة الفالاية . وفي الواقع تدهورت القومون وكادت تصل إلى مستوى نلابة للحرف والصناعات أو جمعية تعاونية ، وقلدت عضويتها أساساً باعتبارها لقباً يخول صاحبه حقوقاً خاصة للانتخاب والحصول على إعانة في حالة الفقر . وقد كاد الجانب السياسى ل نظام القومونات ينسى في الممالك حيث يتغلب سلطان للدولة على القوى المركزية المطردة في المجتمع . وفي تلك القومونات التي لها من العزة والسلطان ما للدول يقوم صراع عنيف بين الأغنياء والفقراء وبين الطبقة الحاكمة والمحكومة ويغلب هذا الصراع عادة طابع سياستها الداخلية .

وعلى الرغم من هذه التغيرات في المبادئ وفي الروح ، فإن أجهزة الحكومة القومونية تكاد تكون واحدة في الجميع ، فالسلطة التنفيذية مخولة لمجلس أو لجنة ، يسمى في إيطاليا مجلس القناصل (Consules) ، وفي فرنسا يسمى المجلس بأسماء متعددة مثل (Echevins) أو (jurati) أو (Syndics) ، وفي ألمانيا

يطلق على المجلس (Rath) أى المجلس ، وهذا المجلس يرأسه عمدة يعرف فى كل من فرنسا وإنجلترا باسم (Mayor) وفى ألمانيا (Burgomaster) ، وهو يمثل المجلس فى كافة المفاوضات التى تجرى مع السيد اللورد أو الملك أو قومونات أخرى . ثم أنه كان هناك مجلس استشارى أو أكثر يمد المجلس التنفيذى بالمشورة ؛ وتلعب الجمعية العمومية فى الأنواع القديمة من القومونات دوراً هاماً ، فهى التى تنتخب الموظفين الإداريين والمجالس ، وتقرر الضرائب ، وتراجع حساب المصروفات وتبت فى كل الأمور ذات الأهمية الخاصة . وحيث لا توجد جمعية عمومية أو تكون فى دور الاحتضار ، تشغل الوظائف بطريقة التعيين أو بطريقة الانتخاب الذى يجرى فى نقابات أرباب المهن والحرف ، بل ويجوز أن تكون تلك الوظائف إرثاً بحقه الميراث الشرعى . وبينما يضمحل الإشراف العام على السلطة التنفيذية تشتد الغيرة والتنافس بين القائمين بأمور السلطة التنفيذية وتؤدى إلى بعض التغيرات الوخيمة العاقبة مثل الإكثار من الوظائف ، وتقصير أمد الوظيفة ، وإجراء عدد لا يحصى من مراجعات الحساب وتسوياته ، وتنظيم هذا الحزب القوى أو ذاك كدولة داخل دولة . ولكن أمراض وعلل القومونات فى مرحلتها الأخيرة من الاضمحلال موضوع لن نعالجه هنا . إن تلك الأمور المعقدة التى تتمثل فى دستور فلورنسا فى القرن الرابع عشر قد أضعفت الحكومة ، ولكنها لم تجعل حكومة أكثر

حيدة وأشد اعتدالا من حكومة فلورنسا . وما أن وافت العصور الوسطى على نهايتها حتى وجدنا مواطن المدينة الحر على استعداد للترحيب بمقدم نائب الحاكم الملكي (Bailiff) أو طاغية يقيم نفسه حاكماً باعتباره الوسيلة الوحيدة لعلاج الاضطراب المستعصى الذى يأتى فى أذيال الحرية .

ولنعد الآن إلى دراسة القومون فى فترة نشأته ونموه ، عندما كان لا يخرج غيره أمام الطبقات الصناعية من الفوضى والاضطهاد ، وعندما كان الأقنان المتحررون لا يزالون مفتونين بحلم الحرية . ومن الغريب أن الثورة القومونية بدأت بهلواء تام فى نفس المناطق التى صارت فيما بعد مسرحاً لأعنف صراع ، وكانت القومونات هى صاحبة المسؤولية الأخيرة عنه .

لقد غنمت مدن شمال إيطاليا النسمات الأولى للحرية على فترات متفرقة من القرن الحادى عشر ، وذلك عن طريق المساومات أو بالاغتصاب قسراً ، وقد وصلتنا بعض الوثائق التى تتعلق بهذا الشأن . وفى پيزا نسمع باتفاق بين الأسقف والمواطنين (١٠٨٠ - ١٠٨٥) سمح بمقتضاه للمواطنين بتكوين جمعيات للأمن ، وبعقد اجتماعات على نطاق واسع ، وبانتخاب القناصل الذين يتعاونون مع الأسقف فى الحكم ، بينما نجد فى جنوا - من الناحية الأخرى - أن القومون يظهر إلى الوجود سنة ١١٢٢ بعد أن فشلت عدة محاولات لإقامة تحالف . ومن المحتمل أن تكون حالة پيزا هى الأكثر اضطراباً من حالة جنوا . وذلك لأننا فى العادة نسمع لأول مرة بقومون عندما يكون

النظام قد نما وتطور تطوراً كاملاً . وفي أغلب مدن شمال إيطاليا قام القومون على حساب الأسقف ، وكان يعنى التغيير - من الناحية القانونية - أن السلطات التى يستمدّها الأسقف أو أى سيد كانت تفويضاً من الإمبراطورية وتنتقل من يد هذا الأسقف أو السيد إلى المدينة . وهذا التغيير كان يحدث فى أثناء النزاع على حق التقليد العلمانى بين الإمبراطورية والبابوية ، عندما كان الأساقفة على علم بأنهم يرتكبون السيمونية وبعض المخالفات الدينية الأخرى التى جعلت مركزهم مزعزعا فاشتدت عنايتهم باقناع مواطنيهم بعدم الانحياز إلى الحزب الذى كان ينادى بالإصلاح الدينى ، أكثر مما اهتموا بأداء واجباتهم باعتبارهم موظفين تابعين للإمبراطورية . أما الأباطرة أنفسهم الذين كانوا يحسون بوطأة النزاع مع الإمبراطورية ، فقد كانوا حريصين على التعضيد بأى ثمن ، ولذلك ساهموا فى نجاح الحركة القومية بمنحهم بعض المدن الهامة عهداً وبراءات إعفائية .

أما فى شمال فرنسا فلم يكن الموقف فى جانب المدن كما كان فى شمال إيطاليا . حقاً لقد لام سياسة آل كاپيه فى كثير من الأحيان أن يضعفوا نبيلاً جباراً من النبلاء وذلك بأن يصفوا حمايتهم على أقدانه الثائرين . غير أن الأساقفة والسادة الدنيويين وقفوا موقفاً عنيداً فى وجه كافة المطالبين بالحقوق المدنية . وكان الملك حليفاً خائراً متقلباً ، يعتمد دائماً إلى التنحى عن تعضيد سكان المدن نظير رشوة ، كما كان ينحسب دائماً أن

تمتد الحركة إلى أملاكه . وأياً كان الجانب الذى ينال عطفه فلم يكن فى استطاعة الملك أن يفعل الكثير . أما عندما يصل الأمر إلى حد التشاحن ، لا يستطيع الملك إلا أن يقف بمنأى عن الفريقين ويشاهد المعركة . وسنسوق هنا مثلين لبيان المظاهر العامة لتلك العداوات بين البلديات والوردات .

أولاً : فى سنة ١٠٧٠ اضطرت الناس فى مدينة ليان (Le Mans) إلى القيام بثورة على حالة الفوضى التى نشرتها البارونية المحلية، وعلى ضروب الاضطهاد التى أنزلها بهم الحاكم الذى عينه الكونت الغائب عن المدينة . كون هؤلاء الناس قومونا واضطروا أعداءهم الجبناء إلى حلف يمين بالاعتراف بالقهرون ، أما أعداءهم الآخرون فقد شتقوهم أو سملوا أعينهم . ثم أنهم قاموا بحرب منظمة على القلاع المجاورة واستطاعوا الاستيلاء عليها الواحدة بعد الأخرى وأحرقوها عن آخرها . وعلى قول أحد مؤرخى العصر فى حويلته، حدث هذا فى فترة الصوم الكبير، بل وفى الجمعة الحزينة ! ولم يعتقد السكان أنفسهم أن هناك موسماً مهما كانت قدسيته يمنع من القيام بمثل هذه الحرب الصليبية ضد الفوضى . وذات مرة عندما ذهبت جنودهم للمهاجمة إحدى القلاع ، حملوا الأسقف ورجال الدين على السير فى الطليعة حاملين الصليبان والأعلام والرايات المقدسة. غير أنه بعد مضي فترة انقلب الحظ ضد القومون فهزمت جنوده ، وتمكن قائد جنود الكونت من استرجاع القلعة التى تتحكم فى مدينة ليان ، وقد عرض المواطنون ولاعهم لكونت

أنجو إذا خلصهم من مأزقهم ، فحفر الكونت لنجدتهم ولاذ الحاكم بالفرار وسلمت الحامية ودمرت القلعة مباشرة . ولكن قبل أن يسوى المواطنون علاقاتهم المستقبلية بكونت أنجو ، ظهر جيش انجليزى يقوده وليم الفاتح صاحب السلطة الشرعية ، فانسحب الأنجويون واضطر المواطنون تحت ضغط الموقف إلى فتح الأبواب للملك . ولما لم يشأ الملك أن يؤيد إلا الحريات القديمة ، فقد انتهى وجود القومون انتهاء مفاجئاً سنة ١٠٧٣ .

ثانياً: قامت فى لاعون (Laon) بشمال فرنسا فى الجيل التالى ثورة أشد توحشاً وأقسى وبالا ضد سوء حكم الأسقف . كان اسم هذا الأسقف والدريك (Waldric) ، وكان وزيراً من وزراء هنرى الأول ملك انجلترا ، وقد انتخبه مجمع لاعون الدينى سنة ١١٠٦ من أجل الثروة العظيمة التى جمعها بطرق غير شرعية خلال فترة قصيرة من حياته الإدارية . ولقد أنفق قلداً كبيراً من ثروته الخاصة فى الحصول على موافقة البابا على انتخابه الذى تم بطريقة غير مألوفة . أما البقية الباقية فقد بعثها فى حياة بلذخ وصخب ، وعندئذ عكف الأسقف على استغلال حقوقه باعتباره سيد لاعون، وكانت الضرائب الفاحشة التى فرضها والدريك مثار الضجر والتبرم بين السكان وخاصة مع انعدام الأمن والنظام . وكانت ضواحي المدينة مكتظة بقطاع الطرق واللصوص ، ولم يمنع الخطافين مانع من دخول المدينة وعمل ما يحلو لهم

بداخلها . وفي النهاية اغتتم المواطنون فرصة غياب الأسقف بإنجلترا وأعلنوا قيام قومون في مدينتهم . ولما عاد الأسقف اضطر لقبول الوضع الراهن والاعتراف بالقومون في مقابل مبلغ كبير من المال . غير أنه ، ليعوض نفسه عما فقدته ، خفض قيمة العملة المحلية حتى غدت لا تساوى شيئاً . ثم أنه تشفى من المواطنين بأن ارتكب جريمة شنيعة ، إذ ادعى أنه اكتشف مؤامرة على حياته ، فقبض على رئيس المجلس البلدى وسلط على الرجل البائس عبده الأسود ليسمل عينيه . وهذا العبد يتخذ منه الأسقف حارساً خاصاً وجلاداً في نفس الوقت . وقد رفع أصدقاء العملة الأمر إلى البابا ، ولكن الأسقف كان أسرع منهم بالذهاب إلى هناك حيث قص على البابا الرواية على طريقته ، فتمكن من تبرئة نفسه بالرشوة . وبنفس الطريقة حض الأسقف الملك على القضاء على براءة المدينة الإغاثية ، وبذلك بدا أن الأسقف سيد الموقف . ولكن تأمر مواطنو مدينة لاون على قتله بينما كان موكبه متجهاً نحو الكاتدرائية ، لولا أن تمكن الفرسان من انقاذه بصعوبة ، ومن ثم رأى أن من الضروري أن ترابط جماعات جلبها من ضياعه لحراسة قصر الأسقفية . وقد ظل الأسقف على عجرفته وأخذ يتباهى بقوته وسطوته وبفداحة الترضية التي سيكرههم على دفعها ، بل تهادى بقوله إن الوقت قد حان لعبده الأسود أن يجمع أنوف معظم المواطنين المحترمين ، وبذلك لن يجرؤ السكان على التلمز وإظهار ألمهم .

ولم يطل الأمر بالأسقف حتى صبوا عليه جام غضبهم ، فهجم رعاي المدينة على قصره وقتلوا حراسه ودخلوا القصر فوجدوا أن الأسقف قد لجأ إلى «بلروم» القصر ، متخفياً في زى فلاح ومختبئاً في أحد البراميل الفارغة ، فجروه من شعر رأسه وقطعوه إرباً في الطريق سنة ١١١٢ . ولما هدأت الحالة ارتاع المواطنون من غضب الملك المنتظر لإزاله بهم ، ففر أولئك الذين شعروا بجرمهم من المدينة التي لم يبق فيها إلا نصف سكانها ، وانقض البارونات والأقنان من القرى المجاورة على مدينة لاون كالغريان ونهبوا المنازل الحالية من سكانها وقاتل بعضهم البعض الآخر من أجل الغنائم . ولمدة ستة عشر عاماً عاشت البقية الباقية من السكان حياة تعسة كمجرد أقنان لخلفاء الأسقف والدريك (Waldric) . وفي سنة ١١٢٨ سمح الملك لهم بالاتحاد تحت حكم عمدة ، وذلك من أجل المحافظة على الأمن العام ، غير أنه رفض أن تسمى المدينة «قومونا» وبذلك ظلوا خاضعين لسلطة الأسقف القضائية .

ومن حسن الحظ أن مثل تلك المآسى من الاضطهاد والانتقام كانت نادرة في شمال فرنسا ، ولو أنها كانت ظاهرة تكشف عن أسوأ الأخطار وأحسن الأعداء لقيام الحركة القومونية . ولم تكن ترجع ندرة هذه المآسى إلى أن الاضطهاد كان نادر الوقوع ، ولكن لأن الثورات لم تكن تحقق الأهداف التي تقوم من أجلها ، فبدون تصديق الملك لم يكن أى امتياز يمنحه سيد المدينة يساوى القصاصات التي يكتب عليها ، ولم يكن

من مصلحة الملك أن يغتفر انتهاك الحرمات ، أو يرضى عن
الاثمار العلني ضد اللوردات الإقطاعيين ، ومن ثم فضل
مؤسسو القومونات في شمال فرنسا ألا تخرج فورهم عن نطاق
القانون ، فقد استنجدوا بالملك الذي حطم - لاعتبار مناسب -
حقوق السيادة التي بيد اللورد بوضع جرات من قلمه . ولم
يكن هذا مستبعداً منه بعد أن صاغ مستشاروه القانونيون النظرية
التي تقول إن أهل القومونات إن هم إلا مستأجرون لدى التاج ،
عرضة للخدمة وللضرائب حسب مشيئة الملك . ومنذ أواخر
القرن الثاني عشر كان هناك ولاء متين الروابط بين الطبقة
الثالثة (العامة) والملكية الفرنسية ، الأمر الذي كانت فيه
فائدة للملك بوجه عام أكبر مما كان فيه للقومونات . وأيام
حكم لويس التاسع وخلفائه من بعده حينما قضى على شوكة الإقطاعيين ،
قام القومون عقبه في سبيل الحكم المركزي . وبمحجة أو بأخرى
كتطاحن الأحزاب حيناً وسوء الإدارة المالية للقومون حيناً آخر ،
فقدت المدن براءاتها الإعفائية ودخلت تحت حكم نائب الملك.
وكان حصول الطبقة الثالثة على حق إرسال نواب عنهم إلى
مجلس طبقات الأمة تعويضاً زهيداً ، فقد جر عليهم التمثيل
النيابي واجبات جديدة بدون أن ينالوا أى حقوق في مقابلها ؛
فالطبقة الثالثة التي نأت والحسد يأكل قلبها عن طبقتي النبلاء
ورجال الدين ، لم يكن لها حول ولا قوة لإزاء تصميم الملك .
إن القومون على النمط الفرنسي - في الواقع - كان وسيلة
خاصة لعلاج شر هو في سبيل الزوال ؛ فالنظم القومية

في فرنسا كانت نظما غريبة عنها لا تتفق مع تقاليدھا القومية ولم تكن ترحب بها إلا الطبقات التي كانت تفتقر إلى الوعي السياسي وليس لديها الموارد المادية للمحافظة على مثلها العليا في وجه معارضة عنيدة . ومما له دلالة أن البراءات الإعفاية للقومونات الفرنسية كثيراً ما ألغيت بموافقة الجمعيات العامة للمواطنين .

أما في إقليم الفلاندرز وشمال إيطاليا فقد كان الموقف يختلف عن شمال فرنسا، فهناك كانت المدينة هي الوحدة الطبيعية في المجتمع ، وكانت طبقة السكان غنية عن طريق تجارتها الخارجية ، وكانت من القوة بحيث تستطيع التفاوض مع سادتها الإسميين مفاوضة الند للند . ومدن مثل جنت (Ghent) وميلان لم تكن متصلة لا بالملكية الفرنسية ولا بالإمبراطورية ، ولذلك تأصلت في السكان عادة الحكم الذاتي . وفي آخر الأمر عندما ووجهت هذه المدن بدعوى الحكم المطلق لأسرة كاپيه أو أسرة الهوهنشتاوفن ، لم تتورع هذه المدن عن الالتجاء إلى السلاح ، والحروب التي خاضتها دفاعاً عن استقلالها تكون فصلاً لا يخلو من الأهمية في تاريخ العصور الوسطى .

لقد واجهت مدن إقليم الفلاندرز مشكلة ازدحام السكان ؛ تلك المشكلة التي لم تجد لها هذه المدن حلاً دائماً لا في الهجرة المستمرة للسكان، ولا في التجفيف المنظم لأراضي المستنقعات . وقبل ذلك بحين من الزمان اكتشفت الطبقة الوسطى في تلك المدن مبدأ عظيماً للصناعات الحديثة ، وذلك بالإنتاج للأسواق الخارجية، وبذلك تجنى من الأموال ما لا حصر له ، وتستطيع

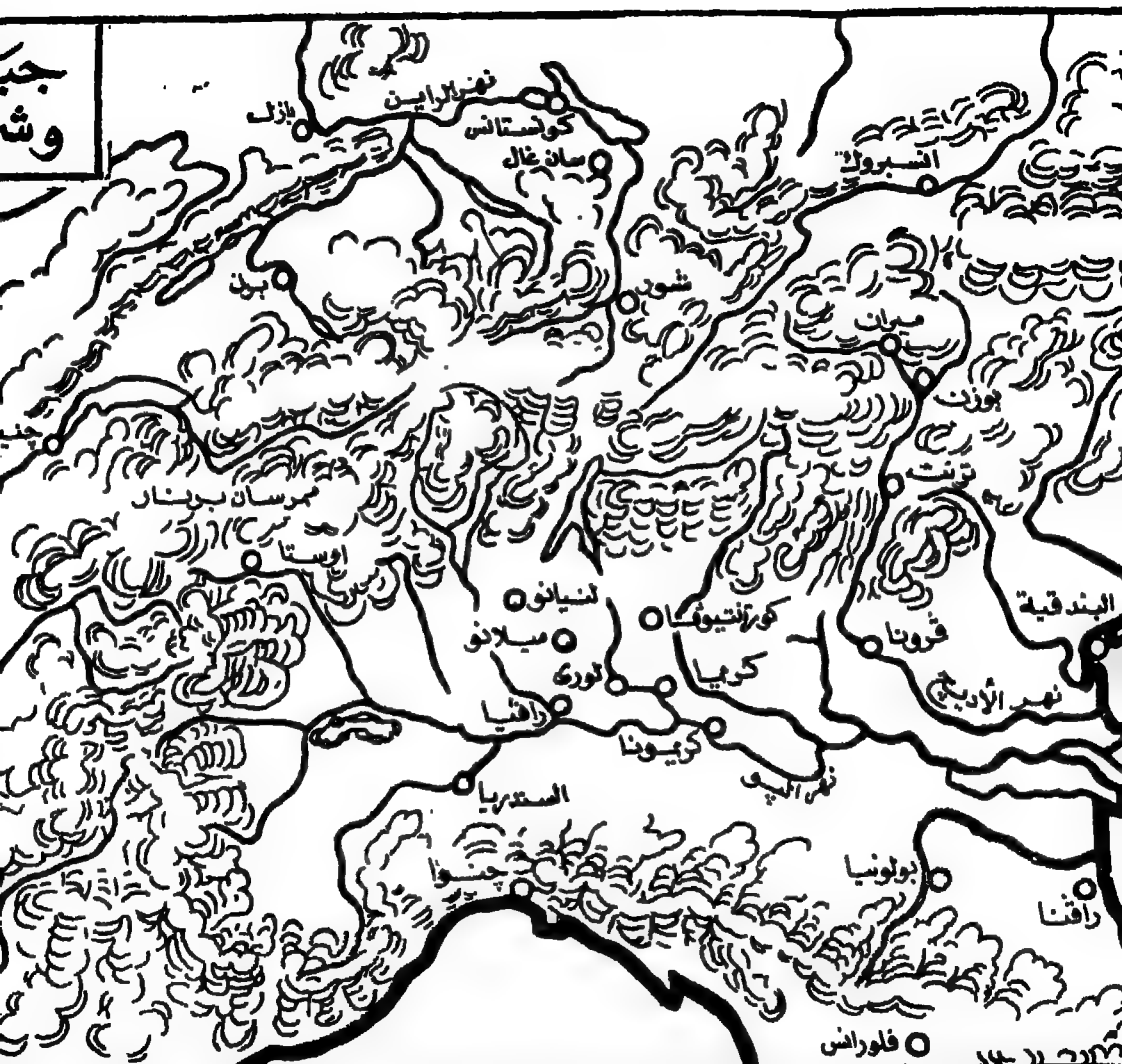
عن هذا الطريق أن تبقى الجماعات ذات النسل الخصب في
رغد من العيش رغم جلب الإقليم وعدم اتساع مساحته .
وقد تدفق العمال الزائدون عن الحاجة في الأرياف إلى المدن
الفلمنكية تلبية لإشارة أصحاب رؤس الأموال ، ووجلوا أعمالا
مجدية في صناعة النسيج . ومن سنة ١١٢٧ فصاعداً كانت
هذه المدن تساو كونتات الفلاندرز لشراء حرياتها، وكانت
بروج (Bruges) وإيپر (Ypres) وليل (Lille) وجنت
(Ghent) هي الوحيدة التي حققت أكبر قسط من النجاح
من بين أربعين مدينة مزدهرة تمتعت في نهاية القرن الثاني
عشر بقسط كبير من الحكم الذاتي ، ولكنها وجدت أن ملك
فرنسا يهدد حرياتها . ولمواجهة الخطر أقبلت القومونات
الفلمنكية في بحر السياسة العاصف ، فحاربت الملك بادىء
الأمر باسم الكونت ، وكان أول ظهورها كقوة حربية في
ساحة موقعة بوفين (Bouvines) سنة ١٢١٤ ، تلك الموقعة
المشئومة التي كلفت كونت فران (Ferrand) حريته كما كلفت
القومونات زهرة جنودها . أما خلفاء الكونت فران فقد ترددوا
في الاعتماد على آل كاييه حتى اضطرت القومونات أن تضطلع
بشئونها الهامة وذلك دفاعاً عن نفسها . وفي موقعة كورترية
(Courtrai) سنة ١٣٠٢ قلبت القومونات ظهر المحن للتاج، وانتقموا
لأنفسهم من هزيمة بوفين بالقضاء على الفرسان والجنود الفرنسيين،
مظهرين لأوروبا التي أصابها الدهشة أن فن الحرب الإقطاعي
قد عني عليه الزمن وأصبح عديم الجدوى ، وأن المشاة المزودين

بالحراب لا يقلون شأناً أو كفاءة عن أحسن الفرسان المدرعة . ولما وجدت القومونات الفلمنكية أنها وقعت فريسة لكونت خائن حرمها ثمرة انتصارها التي استحققتها ، أخذت تزيد نار استيائها اشتعالا في انتظار فرص أخرى ، بينما واست نفسها باضطهاد النبلاء ورجال الدين وكل أولئك الذين شككت في أن لهم ميولا فرنسية، وكان اضطهادها لجميع هؤلاء اضطهاداً وحشياً . وقد هب إدوارد الثالث الطموح لمعونة القومونات الفلمنكية ؛ فزعامة چاك فان أرتفيلده (Jacque van Artevelde) - وهو زعيم شعبي من جنت وأمير يشتغل بالتجارة - وقعت القومونات معاهدة مع ملك إنجلترا سنة ١٣٣٩ لغزو فرنسا وقهرها . على أن هذا التحالف القصير المدى والسيّء الطالع لم يجر إلا الحزب على التجارة الفلمنكية ، إذ انتهى فجأة سنة ١٣٤٥ بموت أرتفيلده الذي مزقه مواطنوه لإرباً وهم على اعتقاد أنه كان يهدف إلى تنصيب نفسه طاغية على مدينتهم : غير أن الأحداث سرعان ما بررت الاقتراحات الجريئة التي كان قد تقدم بها أرتفيلده ؛ ففي سنة ١٣٦٩ تزوجت وريثة كونتية الفلاندرز من أمير من أمراء العائلة المالكة الفرنسية ، فعقد الحزب الفرنسي في الفلاندرز الآمال على هذا الزواج ، وانضمت بروچ (Bruges) سوا الذعر والغضب يتملكان الوطنيين - إلى بجانب الفرنسيين وذلك للغيرة والتنافس بينها وبين جنت . وقد كانت الغلبة لقوات جنت بقيادة فيليب بن چاك فان أرتفيلده ، وعقب هذه الموقعة طارد الجنتيون الجيش المهزم إلى بروچ ، وأعملوا التقتيل في الحزب

إلى لفرنسا وأخلوا في تخريب المدينة . ولم يجرؤ أى قومون
آخر على أن يحدو حلو بروج في سياستها ، أو ينازع جنت
السيادة في الفلاندرز . وقد استمر أرتفله الابن - كما كان
أبوه من قبل - دكتاتوراً لفترة قصيرة على مجموعة من المدن
الحرّة في الفلاندرز ، ولكن قواد فرنسا كانوا قد أفادوا من
تجاربهم في حروبهم الشاقة مع إنجلترا ، فعند مدينة روزبيكه
(Roosebeke) بإقليم الفلاندرز هاجم الجنود الجنيون سنة ١٣٨٢
علم الفرسان الفرنسيين « كما تفعل الخنازير البرية » ، ولكنهم
وجدوا أنفسهم محاطين بالعدو الذى سحقهم بأعداده الغفيرة
وبتفوقه في الفن الحربى ؛ وحارب الجنيون في سورة غضبهم
باسماتة الياقوس الذى لا ينتظر رحمة من عدوه . وفي هذه الموقعة
سقط ما يزيد عن العشرين ألفاً من سكان جنت وتركت جنتهم
بغير دفن في ساحة الموقعة وذلك بأمر الملك ، وقد علق
جثة أرتفله في مشنقة لتكون عبرة لكل زعماء الشعب . وبموت
أرتفله زال حلم مدن الفلاندرز في الاستقلال . ومع أن تلك
المدن قد ظلت على حالها من الازدهار فقد قلّ عليها أن تخضع
على التوالى للبرجنديين والإسبان والنمسيين ، ولم يصبح لإقليم
الفلاندرز ولاية من ولايات مملكة تقوم على الجنسية الوالونية (١)
إلا في سنة ١٨٣١ .

(١) يطلق لفظ الوالون (Walloon) للدلالة على ذلك الجزء من سكان بلجيكا
الذين يرجعون إلى أصل روماني - كلتي ويتكلمون اللغة الفرنسية . المترجم

إن القومونات الإيطالية لتشبه في صروف الدهر التي مرت بها .
مشهداً في مسرحية حافلاً بالحياة والحركة ، ولكن
القومونات تفوق ذلك في الأهمية بالنسبة لتاريخ أوروبا العام ،
ففي إيطاليا اعترت المثل الأعلى للحرية المدنية غشاوة كما حدث
في إقليم الفلاندرز ، بل وشوه أيضاً بالعداوات الحزبية والمطامع
الشخصية وتقلبات العامة ونزواتهم ، وشهوة الغزو وغيره الجمهوريات
المجاورة وتنافسها . وكان من أثر ذلك المثل الأعلى أن أصبحت المدن
الإيطالية متضامنة ونمت العبقريات الفردية نمواً كبيراً . لقد كانت
النهضة الإيطالية هي وقت الحصاد في إيطاليا الوسيطة ، وكانت أمسية
رائعة ليوم كان قد أشرق بالحملة الصليبية الرابعة ، وانتصف في حياة
دانتي (Dante) وجوتو (Giotto) . وفي القرن الخامس عشر تركزت
الكفايات - التي كانت قد أينعت بالحياة العنيفة المليئة بأنواع النشاط
في الجمهوريات المضطربة - تركزت في الفن والأدب . لقد
أمكن الحصول على الأمن والحياة اليسيرة اللذين يتطلبهما
الفنان ، وذلك بنبد أحلام الماضي بالمدينة الفاضلة . غير أن
نمو المهارة الفنية كان تعويضاً زهيداً عن انكماش ضروب الاهتمام
بأنواع الأخرى ، فقد ذهب الفرد ضحية خلق الفنان ، وعانى الفن
أيضاً من جراء انفصاله عن الشؤون العملية . ومع ذلك فنحن إذا
دفعنا إلى نقاد الصبر بضياح الحياة والنشاط اللذين تنطوي عليهما
الاضطرابات في إيطاليا العصور الوسطى ، يجب أن نتذكر
أنه لولا هذا الجو المشحون بالكهرباء ، لما نضجت ضروب
الطاقة القومية بهذه السرعة ، ولما تكلست الأعمال الفنية بهذه



السرعة اللاهثة .

إن المدينة الإيطالية التي كانت منذ قديم الأزل ساحة لاجتماع خيرة العناصر في المجتمع الإيطالي قد أوضحت في العصور الوسطى الحصن الوحيد بين الطبقات الوسطى الإيطالية ، ونوعاً خاصاً من الإقطاع الذي لا يرضى لحرمة القانون ، وقد خلعت المدينة هذا الغرض أجل خدمة . وكان عدد تلك المدن ، وسكانها ومواردها ، وترف السكان وفخامة القصور والمباني العامة ، كانت كل هذه محل إعجاب كل أوروبا في وقت كان لا يزال فيه سكان المدن الفلمنكية يعيشون في بيوت خشبية ، وكانت طريقة حماية المدن لا تزال بدائية تعتمد على الأسوار الخشبية وعلى المتاريس المصنوعة من الطين . إن الطبيعة قد فعلت الكثير لإيطاليا ؛ فبفضل موقع شبه الجزيرة المتوسط التقت التجارة بين شمال أوروبا والبحر الأبيض المتوسط في موانئها لتحمل عبر ممرات جبال الألب التي تقع شمال وادي نهر الپو . وجعلت الجهود المتواصلة التي لا تكل والتي بذلها أصحاب رؤس الأموال والعمال من مدن لمبارديا وتسكانيا مقرأً لصناعة الغزل والنسيج وتقدم العلوم ، وللأعمال المصرفية والمالية ؛ ففي كل ميناء من موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه والبحر الأسود ، سعى رجال السفن وتجار البندقية وچنوا وبيزا وراء القنص التجاري شأن كلاب الصيد وراء فريستها ، وكانوا يقتتلون اقتتال الذئب من أجل الحصول على أمسية أو اجتكار . ، وكان قانون الحياة الذي يسود البر

والبحر هو التنافس على الأرض وعلى التجارة ، وكانت الحرب أمراً عادياً ، رحب بها الإيطاليون في بحثهم عن الثروة ، واعتقد الكثيرون منهم أن الغزو والفتح أقصر الطرق إلى الثراء وأن التجارة تتبع العلم ، وأن غنيمة مجتمع هي خسارة آخر. وفي داخل أسوار المدينة تطاحت الطبقة من السكان مع الطبقة الأخرى والأسرة مع الأسرة ؛ فقد كان الشغب والمجازر والإعدام ، الأدوات العادية للحروب الحزبية ، وتآمرت الأقليات خوفاً من الإعدام ، بينما حكمت الأغليات بالإعدام لمنع التآمر . حقاً كانت حيوية الجمهوريات لا حدود لها ؛ تلك الجمهوريات التي - في مثل تلك الظروف - لم تنجح وتزدهر فحسب ، بل وأبعدت عنها أقدر حكام أوروبا وأعظم قواتها بأساً .

إن مقاومة المدن اللومباردية لفردريك برباروسا لتبين لنا في صورة واضحة خير مظاهر النظام القومي وأسوأها في نفس الوقت . وفردريك هذا هو أول إمبراطور كون نظاماً للحكم المطلق وطبقه على إيطاليا . وبين سنة ١١٥٤ و ١١٧٦ غير اللومبارديون مجرى التاريخ ، فهدوا الطريق أمام إنوسنت الثالث ليضع قدمه فوق أعناق الملوك ، وأمام إنوسنت الرابع ليضئ على بيت الهوهنشتاوفن ، ولم يكن في مقدور اللومبارديين ولا الأحزاب الأخرى المشتركة في النزاع التكهّن بأن سيطرة البابوات على الملوك ستكون هي النتيجة التي تتمخض عنها وقفهم من أجل حريتهم . ولكن شعر الفريكان أن أخطر

القضايا موضع الخلاف رهن بنتيجة هذا النزاع ؛ هل تقبل إيطاليا أن تقع على اللوام تحت حكم الألمان؟ هل تصبح البابوية بطريركية ألمانية؟ هل تلغى النظم الحرة في كل من البابوية والإمبراطورية لتحل محلها حكومة بيروقراطية تتركز في يدها كل السلطة ؟ .

إن المسألة لم تأخذ هذا الشكل منذ البداية ؛ فعندما بدأ فردريك في التدخل في لومبارديا ، كان يقصد حماية المدن الصغيرة من مطامع ميلان في التوسع ، وإعادة الأمن العام إلى نصابه ، وفحص شكاوى لا تحصى من استعمال القوة والغش . وقد استجار به كثير من المدن كخلص لها من ربقة ميلان ، ولم تقف ضده إلا المدن العميلة لميلان أو تلك المدن التي كانت تتطلع إلى مجارة ميلان على نطاق متواضع في سياستها . وبالرغم من هذا لم تكن مسألة عقاب القومونات التي أعلنت تمردها - حتى أقلها شأنًا - بالمسألة البسيرة ، بل ولم يكن من السهل مهاجمة ميلان التي رفضت رفضاً باتاً أن تقدم ترضية عن أعمالها الممجية وعدوانها على المدن الصغيرة ، أو حتى أن تتنازل عما كسبته .

لقد كانت هناك صعوبتان تواجهان الإمبراطور :

الأولى : أن أى حرب ضد المدن اللومباردية لابد وأن تكون حرب حصار ، وكان الفن الحربي في ذلك العصر أكثر تقدماً من حيث الدفاع عنه في الهجوم .

والثانية : أنه لا يمكن القيام بحرب والسير بها إلى نهاية ناجحة بدون معونة إيطاليا ، وذلك لأنه كان من المستحيل

لإثارة إهتمام الأمراء الألمان للمشاركة في حروب إيطاليا أو الحصول على معونة كبيرة منهم .

أما الصعوبة الأولى من هاتين الصعوبتين فلم يستطع فردريك برباروسا التغلب عليها ، ولكنه نجح في التغلب على الثانية في الفترة المتوسطة للنزاع (١١٥٨ - ١١٦٢) . وفي ذلك الحين كاد فردريك أن ينتصر على العصبة اللومباردية التي تطالب بالاستقلال ، ففي سنة ١١٥٨ رجع فردريك من ألمانيا لحصار ميلان بعد أن أخذ الحيلة لنفسه بأن أبرم معاهدات مع منافسات ميلان في إقليم لومبارديا ، وهي المدن التي تقع في إقليم فيرونا وفي إميليا (Emilia) وأقاليم الحدود ، وأمكنه بمساعدة تلك المدن من حصار مدينة ميلان المنيعه ، ومنع المؤن عنها فسلمت تحت ضغط الجوع بشروط أملاها عليها فردريك . ولم يكن في تلك الشروط ما يثير الشكوك أو يدعو إلى الحيلة والخلل . لقد كان الأمر المسلم به هو أن يقسم أهل ميلان بيمين الولاء لفردريك وأن يحرروا المدن التي كانت تحت سيطرتهم ، هذا وقد اشترط فردريك أيضا أن يكون له قصر في المدينة ، وأن تعاد جميع الحقوق الملكية (Regalia) التي اغتصبها القنصل . ولكن فعوى الشروط الأخيرة لم تظهر واضحة إلا بعد ذلك بشهرين حين أعلن «سياسته المستقبلية» في مجلس عقد في سهل رونكاليا (Roncaglia) . لقد نى فردريك أنه ينوى أن يجعل حكمه استبدادياً ، ولكنه طالب باحترام حقوقه الشرعية ؛ فباعباره حارساً علي الأمن العام ، لن يسمح بقيام

حروب خاصة أو تكوين اتحادات بين المدن ، وباعتباره سيداً على البلاد ، وبمقتضى حقوقه الملكية عليها طالب بقائمة طويلة من الحقوق والمكوس أعد لها قانونيو بولونيا نتيجة لكثير من الأبحاث التاريخية . وقد اشتملت هذه القائمة على حق تعيين أكبر موظف في كل مدينة ، والسلطة القضائية العليا المختصة بنظر القضايا الاستثنائية والجنائية ، والإشراف على دورسك النقود والأسواق والطرق العامة ، وحقوق التموين والضرائب . وكان بعض هذه الحقوق غير معمول بها من زمن بعيد ، ومعظمها باشرته المدن نفسها منذ أكثر من خمسين عاماً . وقد تمسك فردريك بأنه لا جدوى من المطالبة بأى حق يقوم على مجرد العرف ضد مشيئة صاحب التاج . ثم إذا بدا أن هذا الموقف يليق بإمبراطور كچستنيان أكثر مما يليق بملك اللومباردين ، كان لا يزال هناك ما يمكن قوله دفاعاً عن مطالبه بصدد السياسة العامة . فإلى أن تعود ملكية قوية إلى حكم إيطاليا ، فستضطهد المدينة الأخرى ، وسينهب القوى الضعيف . ولكن مثل تلك الملكية القوية لا يمكن أن تدعم إلا إذا كان هناك دخل كاف مضمون وقضى على السلطات التي ادعها القومونات لنفسها .

لقد رفضت المدن اللومباردية هذه الشروط ، بل لقد بدأت تتردد حتى تلك المدن التي كانت تعضد فردريك منذ البداية لما رأت النتائج المنطقية لسياسته . ولم تكن هذه المدن تميل إلى الاعتراض على أية إجراءات قد يتخذها فردريك ضد ميلان ، ولكن اعتبرته تلك المدن أن معاملة الصديق والعدو على أساس واحد ليس من العدالة في شيء . وإذا كان من

السيء أن تفقد المدينة حريتها على يد جارة لها ، فن الأسوأ أن تفقد المدينة إلى الأبد أملها في استعباد المدن الأخرى ثم ما من مدينة كانت تضمن أن الحكم المطلق الذى يريد فرضه فردريك - إذا ما تمكن من البلاد - سيكون على الدوام حكماً صالحاً ، أو أن الموظفين الذين سيمثلونه سيكونون دائماً من العدل والنزاهة بمكان . إن مطالب الإمبراطور قد تكون إحياء لمطالب قديمة العهد بمعنى من المعاني ، ولكن المدن كانت تعلم - إذا هو لم يكن يعلم - أن ما سعى إحياء الحقوق الملكية كان فى الحقيقة معناه ثورة . لقد كان الوقت قد حان تقريباً للتمرد العام ؛ فالولاء قد أعتصر للدرجة القطع حين أخذ فردريك فى تعيين حاكم مقيم لكل مدينة ، ذا سلطة لممارسة الحقوق الملكية ، ولجمع الدخل الآتى منها . ولكن ميلان كانت لا تزال مرهوبة الجانب ومكروهة . ولما ادعت أن شروط التسليم فى المعاهدة التى أبرمت حديثاً قد نقضت بقرارات رونكاليا ، ولما طردت المبعوثين الذين أرسلهم فردريك لتنصيب الحاكم ، انضمت المدن الأخرى إلى جانب الإمبراطور فيما عدا مدينة واحدة . لقد أصدر فردريك أمراً لمدينة كريميا (Crema) - وهى قومون صغير - بتدمير أسوارها فأبّت وانضمت إلى جارتها العتيدة ميلان . عند ذلك أصدر الإمبراطور بياناً ضد كلتا المدينتين فى أبريل سنة ١١٥٩ . واستدعيت القوات على عجل من المانيا ، وقد حصل فردريك على قوات أخرى من حلفائه الإيطاليين حتى قدرت قواته بمائة ألف محارب ، ورغم هذا فقد أوقفته

مقاومة كريما ستة أشهر ؛ تلك المدينة التي كان قسـد بني
خطته على أن تخضعها قوة صغيرة ، بينما تتجمع القوات الرئيسية.
لحصار ميلان . وقد أيد الهجوم على كريما سكان مدينة كريمونا
(Cremona) المجاورة ، الذين قدموا مساعدتهم لفرديريك بتعطيل
مجرى الماء الذى يخترق المدينة ، وأمدوه بأشهر مهندسى ذلك
العصر على الإطلاق ليصنع له آلات الحصار . وكانت النتيجة
أن حوصرت كريما تماماً واستخدمت كل الطرق المعروفة
حتى ذلك الوقت في الهجوم ، فلى الخندق بالشدات وأحضرت
إلى الأسوار قلاع متحركة مبنية من الخشب يزيد ارتفاعها
على ارتفاع حصون كريما ، هذا فضلاً عن استخدام المنجنيق
في الهجوم على الأسوار التي كان المتسللون يقوضونها وهم
تحت حماية وقايات ضخمة . ومع ذلك فسرعان ما كانت ترأب
الصدوع التي كانت تحدث في الأسوار وترد على أعقابها الجماعات
المتسلقة . وكان المدافعون يسخرون من الإمبراطور بأغنياتهم المشينة ،
فخرج الإمبراطور عن طوره لأول مرة في حياته وانحدر إلى
الصباح والضجيج ، وأقدم على أعمال تنسم بالقسوة والوحشية .
لقد أقسم فرديريك أنه لن ييجر أحداً ، وأصدر أمراً بإعدام الأسرى
على مرمى البصر من الأسوار ، ثم أنه أمر بوضع الرهائن
في سلال وتعليقهم في الأجزاء المعرضة لقلاع الحصار . ومن
حسن الحظ ، أن تراخي فرديريك عندما اضطر أهل كريما لطلب
شروط التسليم تحت ضغط الجوع وحين تحلى عنهم كبير مهندسيهم .
لقد سمح لهم فرديريك بالرحيل عن المدينة مع الإذن لكل

من السكان يحمل ما يستطيع حمله على ظهره ، أما الباقي فقد وقع من نصيب الجيش الإمبراطورى . وقد كلف فردريك سكان كريمونا بتلميز المدينسة ، الأمر الذى فعلوه عن طيب خاطر . ولما جاء دور ميلان بعد ذلك ، رجع الإمبراطور - الذى عجمته التجربة - إلى طريقة الحصار ، وهى وإن كانت بطيئة وكثيرة التكاليف إلا أنها لا تقاوم . وفى نهاية فترة من الحصار دامت ثمانية أشهر (من مايو سنة ١١٦١ إلى فبراير سنة ١١٦٢) سلمت المدينة وأُخليت من سكانها وقضى عليها بالتدمير . وبينما كان يبدو أن الأمر محال تنفيذه لشدة صلابة الحصون والمتاريس وضخامة الأبنية التى تحيط بها ، إذا بكل مقاومة قد انتهت ، وأمكن حينئذ تنفيذ السياسة التى رسمها فردريك فى رونكاليا لكافة مدن لبارديا . وعلى ذلك رحل فردريك إلى ألمانيا بعد أن ترك بعض الضباط الذين يثق بهم لإتمام تثبيت حقوقه على المدن الإيطالية . وبقي فقط محاولة الوصول إلى نتائج مع البابا الذى اتخذ موقفاً عنيداً من الإمبراطور ، ومع الثورمان الماكربين فى الجنوب . لقد تصور الإمبراطور نفسه بعينى خياله سيداً على إيطاليا ، بل وعلى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط .

مرت خمس سنوات طوال دون أن يصل فردريك إلى هدفه ، وعندئذ رجع إلى إيطاليا لينقل طرد البابا إسكندر الثالث من روما ، وذلك فى أغسطس سنة ١١٦٧ . لقد كان هذا أقصى حد ارتفع إليه حظه ، بينما اللنكبات التى أعقبت ذلك كانت

قاسية ولم تحظر على بال للدرجة أن المعاصرين اعتبروها انتقاماً من الله ؛ ففي الوقت الذى كان فيه فردريك فى روما انتشر وباء كلفه ألفين من فرسانه إلى جانب خيرة مستشاريه ، فاضطر فردريك إلى المسارعة بالهروب من المدينة الموبوءة . وفى طريقه إلى الشمال وجد أن اتحاداً قوياً تكون حديثاً بين مدن لومبارديا يسد عليه الطريق ، وبذلك ظهرت العصبة اللومباردية إلى الوجود . وهذه العصبة هى حلف نظمته مدينة كريمونا التى كانت حتى ذلك الحين أقوى المدن ثباتاً على ولائها للإمبراطور ، وهذا الحلف متصل اتصالاً وثيقاً بالبندقية التى كان فردريك يعتبرها كية مهمة . أما عن مرامى العصبة فلم يكن هناك أى شك فى ماهيتها ، فالأعضاء قد انهمكوا فى إعادة بناء ميلان ، وأدخلوا مندوب إسكندر الثالث لحضور مجالسهم السرية ، ثم أعلنوا أنهم لن يؤدوا للإمبراطور إلا حقوقه القديمة التى لا جدال فيها .

ولما كان فردريك لا يأمن على نفسه من عاديتهم إذا شعروا أنه بالقرب منهم ، فقد اضطجح حفنة من فرسانه ولاذ بالفرار إلى الشمال متخذاً طريقاً دائرياً يخترق سافوى ، ولم يهتم أعضاء العصبة بعد ذلك بإخفاء حقيقة نواياهم ، وكرمز لاتحادهم عكفوا على بناء مدينة ألساندرىا (Alessandria) نسبة إلى ألد أعداء فردريك — إسكندر البابا الشرعى . أضف إلى هذا أنهم نبذوا رسمياً سنة ١١٦٨ سلطة المحاكم الإمبراطورية لنظر القضايا الاستثنائية .

ومرت ست سنوات قبل أن يستطيع فردريك الرجوع لطلب

ترضية ، وحتى ذلك الحين لم يكن في مقلوره أن يجمع أكثر من ثمانية آلاف رجل . ومن أكتوبر سنة ١١٧٤ إلى أبريل سنة ١١٧٥ شغل فردريك في البداية بمحاصرة مدينة الساندريا ، ثم في بذل جهود غير مثمرة تنطوي على اقتراحات للراضى مع العصبة اللومباردية . وما أن وافت سنة ١١٧٥ نهايتها حتى كان فردريك محاصراً في بافيا ومعه بقية من جيشه أخذت هي الأخرى في التناقص . ولما وصلته إمدادات في الربيع قام بهجوم سريع على ميلان على أمل أخذ مقر قيادة العصبة على غرة ، ولكن كان قد وصل اللومبارديين تحذير سابق فقابلوه عند لنيانو (Legnano) في ٢٩ مايو سنة ١١٧٦ ومعهم قوة تفوق قواته بنسبة رجلين لرجل ، واحتدمت الموقعة بين الفريقين .

تفرقت طليعة الجيش اللومباردى المكونة من الفرسان قبل هجوم الألمان ، فاندفع الإمبراطور مختزلاً الصفوف إلى قلب موقع العدو حيث كان يخفق علم ميلان محمولا على عربة النصر (Carroccio) وفي حراسته فئة مختارة من سكان المدينة أقسموا على الدفاع عن وديعتهم حتى الموت ، وقد اضطرم القتال حولهم لمدة ساعات طويلة . على أن الألمان لم يظهر لهم أثر على صفوف أعدائهم . وأخذت القوات اللومباردية التي كانت قد تفرقت في الرجوع تدريجياً إلى ساحة الموقعة للاشتراك في القتال من جديد . وفي النهاية سقط حامل العلم الإمبراطورى صريعا ووقع فردريك عن حصانه . أما قوات الإمبراطور فقد سادها الارتباك ظناً منها أن كل شيء قد انتهى ، ففرت نحو بافيا ووصلتها

بعد أن تحملت خسائر فادحة في الفرار تفوق خسائرها في الموقعة ، ولم ينج فردريك - الذى خلفه أتباعه وراءهم - من الوقوع في الأسر إلا بالاختباء عدة أيام حتى خلا الطريق إلى بافيا .

لم تكن كارثة لنيانو بالطامة الكبرى ، ولكنها كانت نذير شوم بأن جموعاً من المواطنين هزمت الفرسان الألمان في قتال متكافئ . وقد رأى مستشارو فردريك أنه من التهور متابعة القتال بلا توقف ، في حين أن النفوذ البابوي قد يصبح له اليد العليا في ألمانيا في أية لحظة ، فالصلح بأى ثمن مع إسكندر لا بد منه ، وهو لن يقبل صلحاً لا يشمل اللومباردين . وقد قبل فردريك عن طيب خاطر التسليم بما لا مفر منه فأبرمت معاهدة في نفس السنة (نوفمبر ١١٧٦) مع البابا ، وبعد ذلك ببضعة أشهر عقدت هدنة مدتها ست سنوات مع اللومباردين في البندقية ، ثم تحولت هذه الهدنة إلى سلام دائم في كونستانس (Constance) في سنة ١١٨٣ .

لقد كانت هناك ترضية للطرفين شكلاً ، فالملدين اعترفت بالولاء للإمبراطور ، كما اعترفت بالسلطة القضائية الاستثنائية للمحاكم الإمبراطورية ، بينما استبقت لنفسها حقوق الملك الأخرى وحتى انتخاب القناصل . وفي الحق لقد سلم الإمبراطور بكل شيء ذى قيمة ، وقد تجاهلت المدن أى اشتراطات ليست في جانبها في المعاهدة التى أبرمت مع فردريك . وهكذا ظلت الأمور على ماهى عليه إلى أن جاء فردريك

حفيد برباروسا الذى عرف بفردريك الثانى ، فورث مملكة الصقليتين (The two Sicilies) عن أمه. وبعد أن استقر له الأمر هناك عكف على التفكير فى وسيلة لتوثيق عرى الاتحاد بين ممتلكاته شمال جبال الألب وجنوبها . ولكى يحفظ مواصلاته بألمانيا على أحسن وجه ، استعد فردريك لفرض حقوق الإمبراطورية على المدن اللومباردية ، وكان ذلك فى مدينة كونستانس سنة ١٢٢٦ ، فاستيقظت على التو العصابة اللومباردية من سباتها ، وبدأت بضرب حصار على الطرق المؤدية إلى ممرات جبال الألب حصاراً فعالاً حتى أن فردريك لم يكن أمامه إلا أن يعتمد كل الاعتماد على قواته الصقلية . وقد تمكن فى النهاية من اختراق جناح العصابة بعقد محالفة مع إزيلين دا رومانو (Ezzelin da Romano) طاغية فيرونا ، الأمر الذى مهد له سبيل المرور من ممر برنر (Brenner) . وكان رد العصابة على هذا هو شد أزر هنرى ملك ألمانيا فى ثورته على أبيه ، وهكذا بدأت حرب أخرى فى لمبارديا . وقد أخذ فردريك بثأر موقعة لنيانو بانتصاره الرائع فى موقعة كورتنوفا (Cortenuova) فى سنة ١٢٣٧ حيث هزم ميلان ، واستولى على عربة النصر رمز استقلالهم .

غير أن فردريك - كجده فردريك برباروسا - كان مجهداً أشد الجهد من جراء صعوبات حرب الحصار ، ومع ذلك فقد قفل راجعاً نحو الجنوب فى سنة ١٢٤٠ لإخضاع الولايات البابوية ، ثم قام بهجوم آخر على لمبارديا فى شتاء ١٢٤٧ - ١٢٤٨ ، غير أنه منى بفشل ذريع أطاح بآماله وأصحاب هيئته بضربة قاضية .

ولدة خمسة شهور استمر في حصار مدينة پارما (Parma) وكانت المدينة في آخر رفق لما عندما تصرف فردريك بحماقة بتسريح جزء من جنوده ، فانتهزت حامية المدينة الفرصة وقامت بهجوم اليائس محاولة فك الحصار ، بينما كان الإمبراطور متغيباً في رحلة صيد ، وقد باغتت بعملها هذا معسكر فردريك القوى التحصين وأضرمت فيه النيران ، ذلك المعسكر الذى كان يطلق عليه «معسكر النصر» .

استولت حامية پارما على أمتعة فردريك ، بل وعلى مجوهرات التاج ، وذبح أو أسر ما يزيد على نصف جيشه ، وسرى الارتباك في البقية الباقية ففرت إلى مدينة كريمونا في ١٨ فبراير سنة ١٢٤٨ ، وكان حتماً على فردريك أن ينسحب ، ولم يظهر بعد ذلك في المبارديا . أما ابنه إنزيو (Enzo) الذى تركه ليثله هناك فقد أخذ أسيراً في العام التالى ، وقضى عليه البولونيون بالاستمرار في الأسر .

توفي فردريك في سنة ١٢٥٠ ومن هذه السنة يجوز لنا أن نؤرخ تفكك الإمبراطورية واضمحلال القومونات الإيطالية الحرة. إن ما فشل فردريك في تحقيقه رغم ما توفر له من سند وسلطان في الهيمنة على كل من صقلية والمانيا قد نجح في الإتيان به عشرون أسرة من الأسرات المحلية الصغيرة ، ففي ميلان أتمت أسرة فيسكونتى (Visconti) إخضاع المدن الأخرى تحت سيطرتها ، الأمر الذى كانت أسرة ديلا توري (Della Torre) أول من وضع خطته ، وفي فيرونا كانت أسرة سكاليجيرى

(Scaligeri) هى التى تولت أمر المسيراث الإمبراطورى ،
وفى فيرارا (Ferrara) قامت أسرة إستى (Este) ، وفى بادوا
(Padua) أسرة كارارا (Carrara) ، وفى مانتوا (Mantua)
أسرة جونزاجا (Gonzaga) . وهكذا أخذت تغطي موجة
المد فى الحكم الاستبدادى تدريجياً إلى القرن الخامس
عشر ، حين بقيت البندقية وحدها تذكر إيطاليا بإمكان التحرر .

وإذا أردنا أن نلم بالمرحلة الأخيرة وأكثرها إثارة من مراحل
تطور الحياة فى المدن الوسيطة ، تعين علينا أن نوجه أنظارنا لا إلى
إيطاليا أو لإقليم الفلاندرز بل إلى ألمانيا ؛ إذ أن النظم الحرة
حصلت عليها المدن الألمانية فى وقت متأخر نسبياً . ومع أن
تلك المدن قد تطلعت إلى القومونات اللومباردية لتتخذ منها
نموذجاً تحذى به ، فإنها لم تنجح أبداً فى الحصول على مثل ذلك
المقدار الكبير من السلطة والحرية ، ولا فى جعل نفسها عواصم
لولايات أو إمارات صغيرة . إن ملوك أسرة الهوهنشتاوفن
مثلهم فى ذلك مثل ملوك بيت آل كاپيه الأوائل فى فرنسا ،
كانوا يشعرون بالملزاية والفوائد التى تعود عليهم من وراء التحالف
مع الطبقة الثالثة (الشعب) . غير أن فردريك الثانى اضطر إلى
التنازل عن حقه فى تكوين مدن إمبراطورية حرة داخل إقطاعات
الأمراء الكبار ، وتركت غالبية المدن للمساومة وحدها مع
أسيادها المباشرين من اللوردات . وإلى جانب حرمان المدن
من أى مطمح فى سيادتها الإقليمية — حتى تلك المدن التى كانت
تستمد حقوقها من الإمبراطورية — كانت مستبعدة من المجلس

النيابى حتى نهاية القرن الخامس عشر . إن التجارة فقط هي التي هيأت لتلك المدن منفذاً لتصريف أوجه نشاطها ، ولقد انهمكت في التجارة بنجاح كبير حتى أن أوجزبورج (Augsburg) في نهاية العصور الوسطى كانت تنافس فلورنسا كمرکز دولي لشئون المال . ثم أن مدن بحر البلطيق قد نمت تجارتها حتى أصبحت تقارن بتجارة البحر الأبيض المتوسط . لقد كانت تجارة بحر البلطيق هي السبب في ظهور نوع جديد من الاتحاد بين مدن تخضع لنظام البلديات عرفت باسم العصبة الهنسية (Hanseatic League) ، وكانت نواة هذا الاتحاد حلفاً تكون بين الفجرين الألمانين لييك (Lübeck) وهامبورج (Hamburg) لحماية الحركة التجارية في نهر الإلب (Elbe) . وهناك بعض المدن الأخرى التي أغريت بالانضمام للحلف . وفي سنة ١٢٩٩ امتصت العصبة الهنسية عصبة جوتلاند (Gothland) القديمة التي كان مركزها مدينة وسبي (Wisby) . وإلى سنة ١٤٠٠ كان هناك ثمانون مدينة في العصبة الهنسية ، يقع معظمها في الجزء الأدنى من وادي السراين (Rhineland) وفي سكسونيا (Saxony) وفي براندنبورج (Brandenburg) وعلى امتداد ساحل بحر البلطيق . ولكن مجال العصبة التجاري كان يمتد من إنجلترا إلى روسيا ومن النرويج إلى مدينة كراكاو (Cracow) في بولندا . وكانت المدن الهنسية تحت حكم عدة ملوك مختلفين ، وقام الاتحاد بينها لمجرد حماية تجارتها ، غير أن مدن العصبة لم تكن وثيقة الصلة فيما بينها فلم تكن تتصل إلا عن طريق هيئة تشمل هذه المدن ، وتجتمع في فترات غير منتظمة بمدينة لييك ،

ولم يكن للمتلوبين سلطة تلتزم بها المدن التي يمثلونها . وقد اقتصر الأمر على وجود دخل قليل للعصبة يشترك فيه كل عضو بنصيب ، ولم يكن لها أسطول ولا جيش قائم ، كما لم تكن هناك وسائل لإجبار الأعضاء الذين يختلفون في الرأي مع الأغلبية سوى استبعادهم من الانتفاع بالامتيازات التجارية . غير أن هذا الاتحاد الذي لم يكن اتحاداً تاماً بمعنى الكلمة ، كان يعد قوة مستقلة لتحقيق أغراض معينة ؛ فالعصبة كانت تنظم الحراسة في بحر البلطيق والمحاري المائية الأخرى والطرق في شمال ألمانيا ، وكانت تملك المصانع لصناعة الموازين في لندن وبروج (Bruges) وبرجن (Bergen) ونوفجورود (Novgorod) ، وكانت تبرم المعاهدات التجارية وتشن الحروب إذا دعت الحال ، وقد احتكرت التجارة في بحر البلطيق في القرن الرابع عشر وخطب ودها كافة الشعوب التي لها مصالح في ذلك البحر . وفي القرن الخامس عشر بدأت العصبة في الانحلال ، وفقدت أهميتها في عصر الإصلاح الديني ، وقامت دول بحرية جديدة أخذت تنافس العصبة الهندية مثل إنجلترا والأراضي المنخفضة والسويد والدانيمرك . ولما نمت الحركة الإقليمية في ألمانيا ، امتصت استقلال المدن الكبرى الأعضاء في العصبة ، وأضحت تجارة بحر البلطيق - كتجارة البحر الأبيض المتوسط - في مقام ثانوي حين اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ، وحين فتحت أعمال كولومبس (Colombus) وكورتيز (Cortes) وپتزارو (Pizarro) عالماً جديداً في نصف الكرة الغربي .

١ — قائمة بأسماء البوابات في العصور الوسطى.

٢ — مراجع متعلقة بتاريخ العصور الوسطى.

٣ — فهرس عام.

قائمة بأسماء البابوات من مطلع القرن الخامس إلى أواخر القرن الخامس عشر

Innocent I	٤٠١ - ٤١٧	إنوسنت الأول
Zosimus	٤١٧ - ٤١٨	زوسيموس
Boniface I	٤١٨ - ٤٢٢	بونيفاس الأول
(Eulalius)	٤١٨ - ٤١٩	ليولا ليوس «غير شرعي»
Celestine I	٤٢٢ - ٤٣٢	سلستين الأول
Sixtus III	٤٣٢ - ٤٤٠	سكستوس الثالث
Leo I	٤٤٠ - ٤٦١	ليو الأول
Hilarus	٤٦١ - ٤٦٨	هيلاروس
Simplicius	٤٦٨ - ٤٨٣	سمبلكيوس
Felix III	٤٨٣ - ٤٩٢	فيلكس الثالث
Gelasius I	٤٩٢ - ٤٩٦	جلاسيوس الأول
Anastasius II	٤٩٦ - ٤٩٨	أنستاسيوس الثاني
Symmachus	٤٩٨ - ٥١٤	سيمماخوس
(Laurentius)	٤٩٨ - ٥٠٥	لورنتيوس «غير شرعي»
Hormisdas	٥١٤ - ٥٢٣	هورمسداس
John I	٥٢٣ - ٥٢٦	حنا الأول
Felix IV	٥٢٦ - ٥٣٠	فيلكس الرابع
Boniface II	٥٣٠ - ٥٣٢	بونيفاس الثاني
(Dioscorus)	٥٣٠	ديوسكوروس «غير شرعي»
John II	٥٣٣ - ٥٣٥	حنا الثاني
Agapitus I	٥٣٥ - ٥٣٦	أجابتوس الأول
Silverius	٥٣٦ - ٥٣٧	سيلفريوس

Vigilius	٥٥٥ - ٥٣٧	فيجيليوس
Pelagius I	٥٦١ - ٥٥٦	پلا جيوس الأول
John III	٥٧٤ - ٥٦١	حنا الثالث
Benedict I	٥٧٩ - ٥٧٥	بندكت الأول
Pelagius II	٥٩٠ - ٥٧٩	پلا جيوس الثاني
Gregory I	٦٠٤ - ٥٩٠	جريجوري الأول
Gabinianus	٦٠٦ - ٦٠٤	سابينيانوس
Boniface III	٦٠٧	بونيفاس الثالث
Boniface IV	٦١٥ - ٦٠٨	بونيفاس الرابع
Deusdedit I	٦١٨ - ٦١٥	ديوسديدت الأول
Boniface V	٦٢٥ - ٦١٩	بونيفاس الخامس
Honorius I	٦٢٨ - ٦٢٥	هونوريوس الأول
Severinus	٦٤٠	سفرينوس
John IV	٦٤٢ - ٦٤٠	حنا الرابع
Theodore I	٦٤٩ - ٦٤٢	تيودور الأول
Martin I	٦٥٥ - ٦٤٩	مارتين الأول
Eugenius I	٦٥٧ - ٦٥٤	إيوجينيوس الأول
Vitalian	٦٧٢ - ٦٥٧	فيتاليان
Deusdedit II	٦٧٦ - ٦٧٢	ديوسديدت الثاني
Donus	٦٧٨ - ٦٧٦	دونوس
Agatho	٦٨١ - ٦٧٨	أجاثو
Leo II	٦٨٣ - ٦٨٢	ليو الثاني
Benedict II	٦٨٥ - ٦٨٤	بندكت الثاني
John V	٦٨٦ - ٦٨٥	حنا الخامس
Cono	٦٨٧ - ٦٨٦	كونو
(Theodore)	٦٨٧	تيودور «غير شرعي»
(Paschal)	٦٨٧	پاسكال «غير شرعي»
Sergius I	٧٠١ - ٦٨٧	مرجيوس الأول

John VI	٧٠٥ - ٧٠١	حننا السادس
John VII	٧٠٧ - ٧٠٥	حننا السابع
Sisinnius	٧٠٨	سيسينيوس
Constantine	٧١٥ - ٧٠٨	قسطنطين
Gregory II	٧٣١ - ٧١٥	جرميحورى الثانى
Gregory III	٧٤١ - ٧٣١	جرميحورى الثالث
Zachary	٧٥٢ - ٧٤١	زخارى
Stephen II (III)	٧٥٧ - ٧٥٢	ستيفن الثانى (الثالث)
Paul I	٧٦٧ - ٧٥٧	بولس الاول
(Constantine)	٧٦٩ - ٧٦٧	قسطنطين «غير شرعى»
(Philip)	٧٦٨	فيليب «غير شرعى»
Stephen III (IV)	٧٧٢ - ٧٦٨	ستيفن الثالث (الرابع)
Adrian I	٧٩٥ - ٧٧٢	أدريان الاول
Leo III	٨١٦ - ٧٩٥	ليو الثالث
Stephen IV (V)	٨١٧ - ٨١٦	ستيفن الرابع (الخامس)
Paschal I	٨٢٤ - ٨١٧	ساپكال الاول
Eugenius II	٨٢٧ - ٨٢٤	إيوجينيوس الثانى
Valentine	٨٢٧	فالتين
Gregore IV	٨٤٤ - ٨٢٧	جرميحورى الرابع
(John)	٨٤٤	حننا «غير شرعى»
Sergius II	٨٤٧ - ٨٤٤	سرجيوس الثانى
Leo IV	٨٥٥ - ٨٤٧	ليو الرابع
Benedict III	٨٥٨ - ٨٥٥	بندكت الثالث
(Anastasius)	٨٥٥	أناستاسيوس «غير شرعى»
Nicholas I	٨٦٧ - ٨٥٨	نيقولا الاول
Adrian II	٨٧٢ - ٨٦٧	أدريان الثانى
John VIII	٨٨٢ - ٨٧٢	حننا الثامن

Marinus I	٨٨٤ - ٨٨٢	مارينوس الأول
Adrian III	٨٨٥ - ٨٨٤	أدريان الثالث
Stephen V (VI)	٨٩١ - ٨٨٥	ستيفن الخامس (السادس)
Formosus	٨٩٦ - ٨٩١	فورموزوس
Boniface VI	٨٩٦	بونيفاس السادس
Stephen VI (VII)	٨٩٧ - ٨٩٦	ستيفن السادس (السابع)
Romanus	٨٩٧	رومانوس
Theodore II	٨٩٧	ثيودور الثاني
John IXII	٩٠٠ - ٨٩٨	حنا التاسع
Benedict IV	٩٠٣ - ٩٠٠	بندكت الرابع
Leo V	٩٠٣	ليو الخامس
(Christopher)	٩٠٤ - ٩٠٣	كريستوفر «غير شرعي»
Sergius III	٩١١ - ٩٠٤	سرجيوس الثالث
Anastasius III	٩١٣ - ٩١١	أناستاسيوس
Lando	٩١٤ - ٩١٣	لاندو
John X	٩٢٨ - ٩١٤	حنا العاشر
Leo VI	٩٢٨	ليو السادس
Stephen VII (VIII)	٩٣١ - ٩٢٨	ستيفن السابع (الثامن)
John XI	٩٣٥ - ٩٣١	حنا الحادي عشر
Leo VII	٩٣٩ - ٩٣٦	ليو السابع
Stephen VIII (IX)	٩٤٢ - ٩٣٩	ستيفن الثامن (التاسع)
Marinus II	٩٤٦ - ٩٤٢	مارينوس الثاني
Agapitus II	٩٥٥ - ٩٤٦	أجابينوس الثاني
John XII	٩٦٣ - ٩٥٥	حنا الثاني عشر
Leo VIII	٩٦٥ - ٩٦٣	ليو الثامن
Benedict V	٩٦٥	بندكت الخامس
John XIII	٩٧٢ - ٩٦٥	حنا الثالث عشر
Benedict VI	٩٧٤ - ٩٧٣	بندكت السادس

(Boniface VII)	٩٧٤	بونييفاس «غير شرعى»
Benedict VII	٩٨٣ - ٩٧٤	بندكت السابع
John XIV	٩٨٤ - ٩٨٣	حنا الرابع عشر
Boniface VII	٩٨٥ - ٩٨٤	بونييفاس السابع
John XV	٩٩٦ - ٩٨٥	حنا الخامس عشر
Gregory V	٩٩٩ - ٩٩٦	جرىجورى الخامس
(John XVI)	٩٩٨ - ٩٩٧	حنا السادس عشر «غير شرعى»
Silvester II	١٠٠٣ - ٩٩٩	سيلفستر الثانى
John XVII	١٠٠٣	حنا السابع عشر
John XVIII	١٠٠٩ - ١٠٠٤	حنا الثامن عشر
Sergius IV	١٠١٢ - ١٠٠٩	سرجيوس الرابع
Benedict VIII	١٠٢٤ - ١٠١٢	بندكت الثامن
John XIX	١٠٣٢ - ١٠٢٤	حنا التاسع عشر
Benedict IX	١٠٤٤ - ١٠٣٢	بندكت التاسع
Silvester III	١٠٤٥ - ١٠٤٤	سيلفستر الثالث
Benedict IX (Second time)	١٠٤٥	بندكت التاسع «للمرة الثانية»
Gregory VI	١٠٤٦ - ١٠٤٥	جرىجورى السادس
Clement II	١٠٤٧ - ١٠٤٦	كليمنت الثانى
Benedict IX (third time)	١٠٤٨ - ١٠٤٧	بندكت التاسع «للمرة الثالثة»
Damasus II	١٠٤٨	دمازوس الثانى
Leo IX	١٠٥٤ - ١٠٤٩	ليو التاسع
Victor II	١٠٥٧ - ١٠٥٥	فيكتور الثانى
Stephen IX (X)	١٠٥٨ - ١٠٥٧	ستيفن التاسع (العاشر)
(Benedict X)	١٠٥٩ - ١٠٥٨	بندكت العاشر «غير شرعى»
Nicholas II	١٠٦١ - ١٠٥٩	نيقولا الثانى
Alexander II	١٠٧٣ - ١٠٦١	إسكندر الثانى
(Honorius II)	١٠٧٢ - ١٠٦١	هونوريوس الثانى «غير شرعى»
Gregory VII	١٠٨٥ - ١٠٧٣	جرىجورى السابع

(Clement III)	١١٠٠ - ١٠٨٠	كليمنت الثالث «غير شرعى»
Victor III	١٠٨٧ - ١٠٨٦	فيكتور الثالث
Urban II	١٠٩٩ - ١٠٨٨	إربان الثانى
Paschal II	١١١٨ - ١٠٩٩	باسكال الثانى
(Theodoric)	١١٠٠	ثيودريك «غير شرعى»
(Albert)	١١٠٢	ألبرت «غير شرعى»
(Silvester IV)	١١١١ - ١١٠٥	سيلفستر الرابع «غير شرعى»
Galasius II	١١١٩ - ١١١٨	جلاسايوس الثانى
(Gregory VIII)	١١٢١ - ١١١٨	جريجورى الثامن «غير شرعى»
Calixtus II	١١٢٤ - ١١١٩	كاليكستوس الثانى
Honorius II	١١٣٠ - ١١٢٤	هونوريوس الثانى
(Celestine II)	١١٢٤	سيلستين الثانى «غير شرعى»
Innocent II	١١٤٣ - ١١٣٠	إنوسنت الثانى
(Anacletus II)	١١٣٨ - ١١٣٠	أناكلتس الثانى «غير شرعى»
(Victor IV)	١١٣٨	فيكتور الرابع «غير شرعى»
Celestine II	١١٤٤ - ١١٤٣	سيلستين الثانى
Lucius II	١١٤٥ - ١١٤٤	لوسيوس الثانى
Eugenius III	١١٥٣ - ١١٤٥	ليوجينيوس الثالث
Anastasius IV	١١٥٤ - ١١٥٣	أناستاسيوس الرابع
Adrian IV	١١٥٩ - ١١٥٤	أدريان الرابع
Alexander III	١١٨١ - ١١٥٩	إسكندر الثالث
(Victor IV)	١١٦٤ - ١١٥٩	فيكتور الرابع «غير شرعى»
(Paschal III)	١١٦٨ - ١١٦٤	باسكال الثالث «غير شرعى»
(Calixtus III)	١١٧٨ - ١١٦٨	كاليكستوس الثالث «غير شرعى»
(Innocent III)	١١٨٠ - ١١٧٩	إنوسنت الثالث «غير شرعى»
Lucius III	١١٨٥ - ١١٨١	لوسيوس الثالث
Urban III	١١٨٧ - ١١٨٥	إربان الثالث

Gregory VIII	١١٨٧	جرىجورى الثامن
Clement III	١١٩١ - ١١٨٧	كليمنت الثالث
Celestine III	١١٩٨ - ١١٩١	سلستين الثالث
Innocent III	١٢١٦ - ١١٩٨	إنوسنت الثالث
Honorius III	١٢٢٧ - ١٢١٦	هونوريوس الثالث
Gregory IX	١٢٤١ - ١٢٢٧	جرىجورى التاسع
Celestine IV	١٢٤١	سلستين الرابع
Innocent IV	١٢٥٤ - ١٢٤٣	إنوسنت الرابع
Alexander IV	١٢٦١ - ١٢٥٤	إسكندر الرابع
Urban IV	١٢٦٤ - ١٢٦١	إربان الرابع
Clement IV	١٢٦٨ - ١٢٦٥	كليمنت الرابع
Gregory X	١٢٧٦ - ١٢٧٢	جرىجورى العاشر
Innocent V	١٢٧٦	إنوسنت الخامس
Adrian V	١٢٧٦	أدريان الخامس
John XXI	١٢٧٧ - ١٢٧٦	حنا الحادى والعشرون
Nicholas III	١٢٨٠ - ١٢٧٧	نيقولا الثالث
Martin IV	١٢٨٥ - ١٢٨١	مارتين الرابع
Honorius IV	١٢٨٧ - ١٢٨٥	هونوريوس الرابع
Nicholas IV	١٢٩٢ - ١٢٨٨	نيقولا الرابع
Celestine V	١٢٩٤	سلستين الخامس
Boniface VIII	١٣٠٣ - ١٢٩٤	بونيفاس الثامن
Benedict IX	١٣٠٤ - ١٣٠٣	بندكت التاسع
Clement V	١٣١٤ - ١٣٠٥	كليمنت الخامس
John XXII	١٣٣٤ - ١٣١٦	حنا الثانى والعشرون
(Nicholas V)	١٣٣٠ - ١٣٢٨	نيقولا الخامس «غير شرعى»
Benedict XII	١٣٤٢ - ١٣٣٤	بندكت الثانى عشر
Clement VI	١٣٥٢ - ١٣٤٢	كليمنت السادس
Innocent VI	١٣٦٢ - ١٣٥٢	إنوسنت السادس

Urban V	١٣٧٠ - ١٣٦٢	إربان الخامس
Gregory XI	١٣٧٨ - ١٣٧٠	جريجورى الحادى عشر
Urban VI	١٣٨٩ - ١٣٧٨	إربان السادس
(Clement VII)	١٣٩٤ - ١٣٧٨	كليمنت السابع «غير شرعى»
Boniface IX	١٤٠٤ - ١٣٨٩	بونيفاس التاسع
(Benedict XIII)	١٤٢٤ - ١٣٩٤	بندكت الثالث عشر «غير شرعى»
Innocent VII	١٤٠٦ - ١٤٠٤	إنوسنت السابع
Gregory XII	١٤١٥ - ١٤٠٦	جريجورى الثانى عشر
Alexander V	١٤١٠ - ١٤٠٩	إسكندر الخامس
John XXIII	١٤١٥ - ١٤١٠	حنا الثالث والعشرون
Martin V	١٤٣١ - ١٤١٧	مارتين الخامس
(Clement VIII)	١٤٢٩ - ١٤٢٤	كليمنت الثامن «غير شرعى»
(Benedict XIV)	١٤٢٤	بندكت الرابع عشر «غير شرعى»
Eugene IV	١٤٤٧ - ١٤٣١	إيوجين الرابع
(Felix V)	١٤٤٩ - ١٤٣٩	فيلكس الخامس «غير شرعى»
Nicholas V	١٤٥٥ - ١٤٤٧	نيقولا الخامس
Calixtus III	١٤٥٨ - ١٤٥٥	كالكستوس الثالث
Pius II	١٤٦٤ - ١٤٥٨	بيوس الثانى
Paul II	١٤٧١ - ١٤٦٤	بولس الثانى
Sixtus IV	١٤٨٤ - ١٤٧١	سكستوس الرابع
Innocent VIII	١٤٩٢ - ١٤٨٤	إنوسنت الثامن
Alexander VI	١٥٠٣ - ١٤٩٢	إسكندر السادس

مراجع متعلقة بتاريخ العصور الوسطى

- Atiya (A.S.), *The Crusade in the Later Middle Ages*.
— , *The Crusade of Nicopolis*.
Barker (E.), *The Crusades*.
Barlow (Frank), *The Feudal Kingdom of England*.
Barraclough (G.), *Factors in German History*.
— , *Medieval Germany*, 2 vols :
— , I. *Introduction*.
— , II. *Essays by German Historians*, translated by G. Barraclough.
— , *Origins of Modern Germany*.
Baynes (N.H.), *The Byzantine Empire* (H.U.L.).
Beazley (R.), *Dawn of Modern Geography*.
Berlière (Dom U.), *L'Ordre Monastique*.
Bloch (Marc), *La Société Feodale*, 2 vols.
Boissonade (P.), *Life and Work in Medieval Europe*, tr. E. Power.
Bréhier (L.), *Les Croisades*.
Brentano (F. Funck), *The National History of France*, vols I & II.
Brooke (Z.N.), *History of Europe (911-1198)*.
Brown (Horatio), *Venice*.
Bryce (J.), *The Holy Roman Empire*.
Butler (W.F.), *Lombard Communes*.
Cambridge Medieval History, 6 vols.
Coulton (G.G.), *From St. Francis to Dante*.
— , *The Life of St. Bernard*.
— , *The Medieval Scene*.
— , *Studies in Medieval Thought*.
— , *Life in the Middle Ages*.

- Coulton (G.G.), *Five Centuries of Religion*.
 — , *Europe's Apprenticeship*.
 Crump (C.G.) & Jacob (E.F.) editors, *Legacy of the Middle Ages*.
 Deansley (M.), *History of Early Medieval Europe (476-911)*.
 Diehl (Ch.), *History of the Byzantine Empire*, tr. G.B. Ives.
 Dvornik (Francis), *The Photian Schism*.
 Fisher (H.A.L.), *The Medieval Empire*.
 — , *A History of Europe*.
 Fliche (A.), *Les Prégrégoriens et Grégoire VII*.
 Ganshof (F.L.), *Feudalism*.
 — , *Histoire des Relations Internationales - Le Moyen Âge*.
 Gibbon (E.), *Decline and Fall of the Roman Empire*, (ed. Bury)
 7 vols.
 Gierke (Otto), *Political Theories of the Middle Ages*, tr. F.W.
 Maitland.
 Gregorovius (F.), *History of the City of Rome in the Middle Ages*
 tr. Hamilton.
 Halphen (L.), *Charlemagne et L'Empire Carolingien*.
 — , *Einhard's Vie de Charlemagne*.
 Hampe (K.), *Deutsche Kaisergeschichte in der Zeit der Salier und
 Staufer*.
 Haskins (C.H.), *The Normans in European History*.
 — , *The Twelfth-Century Renaissance*.
 Hay (Denys), *From Roman Empire to Renaissance Europe*.
 'Heroes of the Nations' contains lives of :

1. — Constantine.
2. — Theodoric.
3. — Charlemagne.
4. — The Cid.
5. — Saladin.
6. — William the Conqueror.
7. — Edward I.
8. — St. Louis.

- Hodgkin (T.), Italy and her Invaders.
Huizinga (J.), Waning of the Middle Ages.
Kern (F.), Kingship and Law, tr. S.B. Chrimes.
Laistner (M.L.W.), Christianity and Pagan Culture.
La Monte (J.L.), The World of the Middle Ages.
Lavissee (E.), editor, Histoire de la France, 4 vols.
Lea (H.C.), History of the Inquisition in the Middle Ages.
Lewis (A.R.), Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100.
Lot (F.), The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages.
Luchaire (A.), Social France at the Time of Philip Augustus.
— , The Life of Innocent III.
Moss (H.St.L.B.), The Birth of the Middle Ages.
Myers (A.R.), England in the Late Middle Ages.
Oman (Ch.), Art of War in the Middle Ages.
Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, tr. Joan Hussey Painter (Sidney), Medieval Society.
— , A History of the Middle Ages (284-1500).
Petit-Dutaillis (Ch.), The Feudal Monarchy in France and England.
Pirenne (H.), A History of Europe from the Invasions to the XVIth Century, tr. Bernard Miall.
— , Medieval Cities, tr. Frank D. Halsey.
— , Economic and Social History of Medieval Europe, tr. I.E. Clegg.
— , Mahomet et Charlemagne.
— , Histoire de Belgique, vols. I, II, III.
Poole (R.L.), Illustrations of the Medieval Thought and Learning.
Power (Eileen), Medieval People.
Powicke (F.M.), Medieval England (H.U.L.).
Previté-Orton (C.W.), Outlines of Medieval History.

- , History of Europe (1198-1878).
- , The Shorter Cambridge Medieval History, 2 vols.
- Rashdall (H.), The Universities of Europe in the Middle Ages.
- Runciman (S.), History of the Crusades, 3 vols.
- , Byzantine Civilisation.
- Sabatier (P.), The Life of St. Francis.
- Southern (R.W.), The Making of the Middle Ages.
- Stenton (Doris Mary), English Society in the Early Middle Ages .
- Stephenson (Carl), Medieval History.
- , Medieval Feudalism.
- Tellenbach (G.), Church State and Christian Society, tr. R.F. Bennett.
- Thorndike (L.), University Records and Life in the Middle Ages.
- Ullmann (Walter), Medieval Papalism.
- , The Growth of Papal Government in the Middle Ages.
- Ure (P.N.), Justinian and his Age.
- Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine Empire, 2 vols.
- Villari (P.), The Two First Centuries of Florentine History, English translation.
- Vinogradoff (Sir Paul), Roman Law in Medieval Europe.
- Waddell (Helen), The Wandering Scholars.
- Walbank (F.W.), The Decline of the Roman Empire in the West.
- Wallace-Hadrill (J.M.), The Barbarian West (400-1000).
- Waugh (W.T.), History of Europe (1378-1494).
- Webb (C.C.J.), The Life of John of Salisbury.
- Whitelock (Dorothy), The Beginnings of English Society.
- Whitney (J.P.), Hildebrandine Essays.

مراجع عربية

- أومان (ش.) الإمبراطورية البيزنطية
تعريب مصطفى طه بلر .
- بينز (نورمان) الإمبراطورية البيزنطية
تعريب حسين مؤنس
ومحمود يوسف زايد
- پاور (أيلين) نماذج بشرية من العصور الوسطى
ترجمة محمد توفيق حسين .
- ديل (شارل) البندقية جمهورية أرستقراطية
تعريب أحمد عزت عبد الكريم
وتوفيق اسكنلر
- ديورانت (ول) قصصة الحضارة
ترجمة محمد بلران
- المجلد الرابع «عصر الإيمان» الأجزاء
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وهي الأجزاء
التي ظهرت حتى الآن .
- راوس (ا. ل.) التاريخ الإنجليزى
نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة

رستوقزف (م. ٠) تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى

ترجمة ومراجعة زكي على ومحمد سليم سالم

سعيد عبدالفتاح عاشور قبرس والحروب الصليبية

سعيد عبدالفتاح عاشور النهضة الأوربية فى العصور الوسطى ومحمد أنيس وبداية الحديثة .

فشر (ه. أ. ل.) تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

نقله إلى العربية فى قسمين

محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى وإبراهيم أحمد العدوى .

يوسف كرم تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط

كوپلاند (ج. و.) الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا

نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة

كولتون (ج. ج.) الديريه أسبابها ونتائجها

ترجمة جمال الدين الشيال «المجلد الحادى

عشر (ديسمبر سنة ١٩٥٧) من مجلة

كلية الآداب جامعة الإسكندرية» .

فہرس عام

(١)

- الإيرو (نهر) ٥٦
أبلارد ١٤٥ ، ١٤٦
أبن رشد ١٤٥
إيروس (حكاهم) ٢٠٢
أبوليا ٧٩ ، ٨٤
الأتراك ١٦١
الأتراك السلجوقيون ١٩١ ، ١٩٢
أتولف ٣٠ ، ٣٣ ، ٦٣
أتيلا ٣٣ ، ٣٥
أثلبرت ٣٢
أثينا ٢٠٣ ، ٢٠٧
إجبرت ٣٢ ، ٥٩ ، ٨٧
أجسطس ١٦ ، ٢٠ ، ٦٣
أجسطين (القديس) ٢٣ ، ٣٢ ، ١١٤ ، ١٢٦
آخن ٨٦
أخايا (إمارة) ٢٠٢ ، ٢٠٣
الأدرياتيك (بحر) ١٦٢
أدالبرت (القديس) ٨٦ ، ١٢٧
أدليد ٧٧ ، ٨١
ادواكر ١٥ ، ٣٥
ادوين ٣٢
ادوارد (الأمير الأسود) ١٠٦ ، ١٥٨
ادوارد الأول ١٥٥ ، ١٧٤ ، ١٨٢
ادوارد الثالث ١٠٦ ، ١٥٨ ، ١٨٢ ، ٢٣٠
أدرقة (مدينة) ٢٠١ ، ٢٠٢
أرازموس ١١
أربان الثاني ١٠٧ ، ٢٠١
أرسطو ٨٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦
أركاديوس ١٧
أريجيس ٥٥
أرنولف ٦٨
الأرمينياك (حزب) ١٥٨

- أريوس ١٢٢
 الأريوسية ١٢٣ ، ١٢٦
 الأريوسيون ٤٢ ، ٤٣
 أرنولد برشيا ١٤٥
 أراجون ١٥٨ ، ١٥٩
 أرتغلده ١٥٥
 أرجون ١٨٩
 إزيلين دا رومانو ٢٤٤
 أسترازيا ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤
 اسقى (أسرة) ٢٤٦
 اسكندر الثالث (بابا) ١٣٨ ، ١٤٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣
 الإسبترية ١٩٦ ، ٢٠٣
 الاسكندر ٢٢
 الاسكندرية ١٢١ ، ١٢٢
 الإغريق ٥٧
 الآفار ٥٥ ، ٥٦
 أفنتين (تل) ٨٦
 إفيسا (جزيرة) ١٩٠
 أقطانيا ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٩٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٨
 القاهرة ١٨٣
 أكويلا ٧٧ ، ١٢٦
 أكارنانيا (ولاية) ٢٠١
 الإلب (نهر) ٥٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٣
 ألب (جبال) ١٩٣ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤
 ألب أرسلان ١٩١
 الألبجسيون ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٨٧
 البانيا (ولاية) ٢٠١
 البرت اللب ١٨٥
 ألبرك ٧٨ ، ٧٩
 البرتوس ماجنوس ١٤٦
 الساندريا (مدينة) ٢٤١ ، ٢٤٢
 ألفرد ٣٢ ، ٧١
 ألكسيوس (امبراطور) ١٩٥
 الثالث ١٩٩

- ألكسيوس الرابع ١٩٩
 • (ابن اسحاق أنجيلوس) ١٩٩
 إليوثيروس ١١٧
 أمانى ٧١
 الإمارات الروسية ١٦٠
 الإمارات الاسكتلندية ١٦٠
 الأمويون ١٨٨
 إمبليا ٣٩ ، ٢٣٦
 إن (نهر) ١٨٦
 أداستاسيوس ٤٣
 انا نبي (معاهدة) ١٣٨
 أنجفين (أسرة) ١٥٩ ، ٢٠٣
 أنجليا الشرقية ٣٢
 أنجو ١٠٠ ، ١٥٧ ، ١٩٧
 أنجو (كوت) ٢٢٤
 الانجلز ٣٢
 أنزيو ٤٥
 أنشروت (موقعة) ٧٤
 أطلاكية ١٢١ ، ١٢٢
 إلفولت الأول ١٢٤ ، ١٢٥
 إلفولت الثالث ١١١ ، ١٤٨ ، ٢٠١ ، ٢٣٤
 إلفولت الرابع ١٤٥
 أوتوالاول (المعظم) ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١
 ٨٦ ، ١٠٢
 أوتو الثاني ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧
 أوتو الثالث ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٧ ، ١٣٠ ، ١٣١
 أوتوكار الثاني ١٦٢
 أودو (القديس) ٧٣
 الأودر (نهر) ١٨٥ ، ١٨٦
 أوجزبورج ٢٤٧
 إيبير (مدينة) ٢٢٩
 أيتيوس ٤١
 أيتوليا (ولاية) ٢٠١
 بحسنة (بحر) ٢٤٣

أيجينا (جزر) ٢٠١
 إيرنايوس ١١٧ ، ١١٨
 إيزيلور ١٣٠
 إيستولف ٤٩
 إيود ٦٨
 إيوجنيوس الثالث ١٤١
 أيوليا (بحر) ٢٠١

(پ)

بابنبرج (أسرة) ١٨٦ ، ١٨٧
 پارما (مدينة) ٢٤٥
 پادوا ٢٤٦
 پاری ٨٤
 پاريس ٦٨
 پارسپال (ملحة) ١٠٩
 پافاريا ٩٩
 البافاريون ٣٠ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٦٦ ، ٧٥
 پافوس ٣٩ ، ٥٣ ، ٧٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 پالرمو ٢٠٧
 پالئولف آيرنه ٨٤
 پين ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣
 پين القصير ١٢٧ ، ١٢٨
 پيرارك ١٠٦
 پتاليا ٤١
 پيرالد نبورج ٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٧
 البرانس (جبال) ١٨٨ ، ١٩٣
 بريتي (مدينة) ٢١٥
 برتراند دجيلين ١٥٨
 بروج (مدينة) ٢٤٨
 برجانديا ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٨٨ ،
 البرجنديون ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ،
 ١٢٦ ، ٢٣١
 برمن ٧٠
 برنار (القليس) ١١ ، ١٠٧ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

- برنج ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩
 برنج التوری ١٤٥ ، ١٤٦
 برنر (مر) ٢٤٤
 بروج (مدينة) ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٨
 بروبوس ٤١
 بروفانس ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ١٠٩ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠
 البریتون ٥٧
 البروسیون ١٢٧
 بریتانی ١٠٥
 بطرس الرسول ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٩
 بغداد ٦٤ ، ١٨٣ ، ١٩١
 پلاتیا (موقعة) ٢٢
 الپلاتاجنتیون ١٦٧ ، ١٧٢
 بلزار یوس ٣٨
 البلطیق (بحر) ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
 البلغاریون ٢٠١
 البلیار (جزر) ١٨٩
 بنفتو ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧
 البنقیة ٣٩ ، ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦
 البنادقة ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣
 بندکت (القديس) ١٤٢
 البور (نهر) ١٥ ، ٢٢٣
 بوئیشوس ٣٦ ، ٣٧
 پواتو ١٥٨
 پواتیه (موقعة) ٤٦ ، ١٧٥
 بوقین (موقعة) ١٥٧ ، ٢٢٩ ،
 بون ٤١
 پوتیه (إقليم) ٢١٥
 بونیفاس (القديس) ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٦ ، ١٢٧
 بونیفاس الثامن ١٣٣
 بونیفاس مونترفرات ٢٠٠
 بولس ١٤٧
 بولنوین ١٩٥

بولوين (كونت الفلانز) ٢٠٠
 پولندا ٨٠ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٦
 بولونيا ٣٩ ، ٢٣٧
 بوهمنه ١٩٥
 بوهيميا ٧٤ ، ٨٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٦
 بياتريس ١٠٦
 بيت المقدس ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦
 بيزا (مدينة) ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢٣٣
 بيزلطة ٣٩ ، ٥٠
 البيزنطيون ٢٠٣

(ت)

تارانتو ٨٥
 تاراجونا ١٩٠
 تارسس ١٩٥
 تارنتوس ٣١ ، ٥٤ ، ٩٧
 تاسيلو ٥٥
 ترسبارة (أسرة) ١٥٨
 تروا (موقعة) ٣٣ ، ٤١
 التروبادور (شعراء) ١٠٨ ، ١٠٩
 تروير (مدينة) ١٠٠
 تساليا (ولاية) ٢٠٠
 تسكانيا ٣٩ ، ٧٠ ، ٢٣٣
 تششر ١٦٨
 التشيكيون ١٦٢
 التقليد الملباني ١٩٥
 تور ٤٣
 تورين ١٥٧ ، ١٥٨
 تورنيه ٤٢
 تولوز ١٧٠
 توما الأكويني ١١ ، ١٤٦
 توماس كمپس ١٣٢
 تونس ٢٠٥
 التيونونيون ١٣ ، ١٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٢٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٤

تيودور (أسرة) ۱۷۶

تيديوس ۴۱

(ث)

الكورنيليون ۴۴ ، ۴۷ ، ۶۶

تيودريك ۱۵ ، ۲۹ ، ۳۵ ، ۳۶ ، ۳۷ ، ۳۹ ، ۵۱ ، ۶۳

تيودوسيوس ۱۷ ، ۴۴

تيودور الطرسوسي ۱۲۰

ثيوفانو ۸۱ ، ۸۲

(ج)

الحارون (نهر) ۳۳

جارييليانو (نهر) ۷۱ ، ۸۴

جان دارك ۱۵۸

جاء فان أرتقلده ۲۳۰ ، ۲۳۱

جايتا ۷۱

جربيرت، أوريليك (سليستير الثاني) ۸۳، ۸۶، ۱۲۷ ، ۱۳۰ ، ۱۳۱

جريمجوري الأول ۱۱۳ ، ۱۱۴

جريمجوري الثاني ۴۹

جريمجوري الخامس ۱۳۰

جريمجوري السابع ۱۱۰ ، ۱۱۱ ، ۱۱۲ ، ۱۱۳ ، ۱۳۳ ، ۱۸۸ ، ۱۹۱

۱۹۲

جريمجوري (التوري) ۳۱

الجرمانيون ۱۲۶ ، ۱۸۵ ، ۱۸۶ ، ۲۰۹

الجزويت ۱۴۱

چستنيان ۳۸ ، ۴۴ ، ۱۲۶ ، ۲۳۷

جنت (مدينة) ۱۷۸ ، ۲۱۷ ، ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۳۰ ، ۲۳۱

الجلنتيون ۲۳۱

جنسن ۸۶

چنوا (مدينة) ۲۰۷ ، ۲۲۱ ، ۲۳۳

الچوت ۳۲

چوتو ۲۳۲

جودفري بويون ۱۰۶

چورا (جبال) ۱۵۹

جويته ۱۰۶

جوفزاجا (أسرة) ۲۴۶
چولیان ۴۱
جوفدوباد ۲۹
جیین ۱۵۸
جلا سیوس ۱۲۸ ، ۱۲۹
جیبون ۱۰
چیمس العظیم ۱۸۹ ، ۱۹۰

(خ)

خلقدونیا ۱۱۱

(د)

داجویرت الأول ۴۴ ، ۴۵
دائی ۱۰۶ ، ۲۳۲
دافنج ۱۸۵
الدائمرك ۶۹
الدانوب (نهر) ۱۵ ، ۱۸ ، ۳۰ ، ۳۵ ، ۳۹ ، ۵۵ ، ۱۶۱ ، ۱۸۶ ، ۱۸۷
الدانیون ۵۷ ، ۷۰ ، ۷۲ ، ۷۵ ، ۸۴ ، ۱۶۲
الداویة ۱۹۶ ، ۲۰۳
درهام ۱۶۸
دقلدیافوس ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۰
دمیاط ۲۰۴ ، ۲۰۵
الدوب (نهر) ۳۴
دورازو ۱۷
النورانس (نهر) ۳۴
دیریر ۵۳ ، ۵۵
دیلا توری (أسرة) ۲۴۵

(ر)

رادولفتسل (مدينة) ۲۱۵
رافنا ۱۵ ، ۳۳ ، ۳۴ ، ۳۷ ، ۳۹ ، ۴۹ ، ۱۲۶
رايشناو (مدينة) ۲۱۵
رایموند التولوزی ۱۹۶
الراین (نهر) ۳۰ ، ۴۱ ، ۶۵ ، ۶۶ ، ۱۰۵ ، ۱۶۰ ، ۲۴۷
الرها ۱۹۳ ، ۱۹۵ ، ۱۹۶

الرهبان الصغار ١٤٧

روثايس ٤٠

رودرك ٤٦

رودس ٢٠٣

رودلف الثاني ٧٦

رودلف هابسبورج ١٦٢

روز بيكه (مدينة) ٢١٥

رومانيا ٤٩

رومولوس أوجستولس ٣٤

الرون (نهر) ٣١ ، ٣٣

الرونشال (نهر) ٥٦

رونكاليا (سهل) ٢٣٦ ، ٢٤٠

رولان ٥٦

ريمز (مدينة) ٤٢

ريمي (القديس) ٤٢

(ز)

زارا (مدينة) ١٩٩

زكريا (البابا) ٤٨

الزوينزى ١٥٩

(س)

السامون (نهر) ٣٤

سارديكا ١٢٣

سافوى ١٦٠ ، ٢٤١

سالرلو ٧١

سالونيك ٢٠٠ ، ٢٠٢

سانت ركويه (مدينة) ٢١٥

سانجيرال (ملحة) ١٠٩

سبتانيا ٤٧

سبولتو ٣٩ ، ٥٣ ، ٦٨

ستليكو ١٨ ، ٢٠

ستيفن الثاني ٤٩ ، ٥٠ ، ١٢٨

سرقطة ٥٦

الستريشون ١٤١

سقراط ١٢

سكسونيا ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٧
السكسونيون ٣١ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٦ ،

٨٣

سكاليچيرى (أسرة) ٢٤٥

السكلاديز (جزر) ٢٠١

سلفستر الثانى (أنظر جربرت أوريلاك)

سوايبا ٤٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ١٠٥

السوفييون ٣٣

السلاميون ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ١٢٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦

سلاميس (موقعة) ٢٢

سيلدا (خليج) ١٧

سيريل ١٢٧

سيريكويس ١٢٤ ، ١٢٥

السيمونية ١٤٨ ، ٢٢٢

(ش)

شارل ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

شارل السمين ٦٧

شارل أنجور ١٣٩

شارل مارتل ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩

شارل الخامس ١٥٨ ، ١٥٩

شارل السابع ١٥٨

شتريلتز ٧٥

شرلمان ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،

١٣٨

شكسبير ١٠٦

الشلت (جزر) ٤١

شلزفج ٧٥

الشاليون ١٠١ ، ١٠٢

شپانيا ١٠٠ ، ١٧٠

الشعة ١٤٧

(ص)

صقلية ٥٧ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٤٥

الصقليتان (ملكة) ٢٤٤

الصوابيون ٦٦

صلاح الدين ١٩٣

(ط)

طرابلس ١٩٦

طرطوشة ٥٦

طليطلة ٢٠٧

(ع)

عبد الرحمن (الأمير) ٤٧

عبد الرحمن الثالث ١٨٨

عصبة جوتلا ٢٤٧

العصبة الهندية ٢٤٧ ، ٢٤٨

المهد الأعظم ١٥٧

(غ)

غالة ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ١٢٤ ،

١٢٥

الغالورومانيون ٤٢

(ف)

الفاطيون ٨٤

فالتر فون در فوجليده ١٠٩

فالتنيان الأول ٢٠

فالتنيان الثالث ١٢٤

فالنسين (مدينة) ٢١٧

فالوا (أسرة) ١٥٩

فران (كونت) ٢٢٩

فرانكيا ٤٣ ، ٦٨

فردان (معاهدة) ٦٥

فردريك (رئيس أساقفة) ٧٦ ، ٧٨

فردريك بارباروسا ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،

فردريك الثاني ١٠٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٥٥ ، ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

فردريك العظيم (البروسي) ١٠٦
 الفرنجة ٣٠ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
 ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٦٧ ، ٦٨ ، ١٢٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
 القرنكونيون ٦٦ ، ٧٥
 فرنسيس (القديس) ١٣٢ ، ١٤٢
 الفرنسيسكان ١٤٠ ، ١٤١
 الفريزيون ٤٧ ، ٤٨
 فريزيا ٦٩ ، ٧٠
 فريولي ٣٩ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٧٧
 القستولا (نهر) ٢٠٤
 قلنمار الثاني ١٦٢
 فلسطين ١٨٧
 فلورنسا ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٧
 الفلاندرز (إقليم) ١٠٠ ، ١٤٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦
 فورمز (اتفاقية) ١٣٧ ، ١٤٥
 فولفرام فون أشنباخ ١٠٨ ، ١٠٩
 فيدوكند ٥٤
 فيرار ٢٤٦
 فيرونا (إقليم) ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
 فيسكونتي (أسرة) ٢٤٥
 الفيكينج ٦٩
 فيليب ٢٢ ، ١٩٩
 فيليب أجسطس ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٧٠
 فيليب الجميل ١٧٤
 فيليب (بن چاك فان أرتفلده) ٢٣٠
 فينسا ١٨٦

(ق)

القبيلة الذهبية (حكام) ١٦١
 قرطاجنة ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٢٠٧
 قرطبة ٥٦ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨
 القسطنطينية ١٥ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٢٤ ، ٢٤ ، ١٢٣ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧

القشتاليون ١٨٨

قنسطنطين ٢٠ ، ٦٣

القوط (النسقيون) ١٥ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ١٢٦

القوط (الفرييون) ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

٤٦ ، ١٢٦

القومون ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

القومونات اللومباردية ١٣٨ ، ١٣٩

(ك)

كاپوا ٧٠ ، ٨٤

كاپيه (أسرة) ٨٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦

كارلومان ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١

كارارا (أسرة) ٢٤٦

كارثيا ٦٨

الكارولنجيون ٤٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٥٧ ، ٢١٥

كاستيل ١٥٨

كاسيودورس ٣٥

كالبريا ٧٩

كالمار (اتحاد) ١٦٣

كاليه ١٥٨

كانوت العظيم ١٢٧ ، ١٦٣

كانوصا ١٣٧

كريميا (مدينة) ٢٣٨ ، ٢٣٩

كريمونا (مدينة) ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٥

كلايريا ٨٥

كلوتير الثاني ٩٤

كلوني (دير) ١٢٩ ، ١٣٠

الكلونيون ١٤١

كلوفس ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦٥

كليرفوا ١٤١

كليرمون (مجلس) ١٨٧

كليمنت الخامس (بابا) ٢٠٤

كورتريه (موقعة) ٢٢٩
كورتنوفا (موقعة) ٢٤٤
كورتيز ٢٤٨
كولون ٨٥
كوليس ٧٧
كولونيا ٤١
كونراد ٧٧
كونستانس ١٣٨ ، ٢٤٣

(ل)

لا جارد فرينيه ٧١
لخفلت (موقعة) ٧١
الوار (هر) ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢
لندن (مدينة) ٢٤٨
لنيانو (مدينة) ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
لوثر ١١
لوثر الأول ٧٧
لوثر الثاني ١٣٠
لوثرانجيا ٧٤
اللوثرانجيون ٧٥
لورا ١٠٦
لوري إن جاتينييه (مدينة) ٢١٦
لوزنس ٧٤
لومبارديا ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
الومبارديون ١٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ،
٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٤٢ ، ٢٤٣
لويس (القديس) ٢٠٥
لويس التقي ٦٥
لويس السادس ٢١٦
لويس السابع ١٥٧
لويس التاسع ٢٢٧
ليبك (نفر) ١٨٥ ، ٢٤٧
ليبريوس ٣٦ ، ١٢٤

ليجوريا ٣٩
ليان (مدينة) ٢٢٣
ليثوس ١١٧
ليل (مدينة) ٢٢٩
ليو الأول ١١٣ ، ١٢٤
ليو الثالث ١٢٩
ليون ١٤٧
ليوتيراند ٤٠
ليوتولف (دوق سوابيا) ٧٧ ، ٧٨

(م)

مارجريت ١٠٦
مارشفلت (موقعة) ١٦٢
ماجدبورج ٧٦ ، ١٨٥
ماريوس ١٩
مالقة ٢٠٢ ، ٢٠٣
مانتوا ٢٤٦
ماينتس ٤٨ ، ٧٦
منز ١٠٠
مثوديوس ١٢٧
المجريون ١٦١ ، ١٦٢
المرابطون ١٨٨
المراسم المزيفة ١١٥
مرسيليا ٣٢
مصر ١٨٧
مقدونيا (ولاية) ٢٠٠
مكيا قلل ١٠٥ ، ١١٢
المنسترز (شراء) ١٠٨ ، ١٠٩
المنصور ١٨٨
الموحطون ١٨٨
الموزل (وادي) ٦٥
مونتفرت ١٥٥
المونز (هر) ٤١
المين (هر) ٣٣ ، ١٠١ ، ١٥٨

ميخائيل پاليولوج ٢٠٢

المير وفنديون ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٩٤ ، ٩٧

ميلان (مدينة) ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٧٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥

(ن)

نايلي ٧١ ، ١٦٠

ناربون ٥٠

ناقار ٥٦ ، ١٥٨

النويج ٦٨

النكر (هر) ٣٣

نور عمريا ٣٢

نورجورود ٢٤٨

نورمانديا ٧٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٨

النورمانيون ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٤٠

نويستريا ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨

نيجية (مجمع) ١١١ ، ١٢٣ ، ٢٠٢

نيقولا أشيولى ٢٠٢

نيقولا الأول ١٣٠

(هـ)

هادريان (بابا) ٥٣

هارون الرشيد ٦٤

هالبرشتات (أسقفية) ٧٦

هامبورج ١٠٠ ، ١٨٥ ، ٢٤٧

هبة قسطنطين ١١٥

هدلة الله ١٠٢

هرمان زالتسا ٢٠٤

المسيون ٣٣ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٧٠

هنرى الأول (ملك إنجلترا) ٢٢٤

هنرى الثانى ١٣٦ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧٣

هنرى الرابع ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٩٢

هنرى الخامس ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٨

هنرى السادس ١٣٨

هنرى الأسد ١٨٥

هنرى الصياد ٥٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٠٢ ، ١٨٤
 هنرى (دوق بافاريا) ٧٧
 هنرى الفلاندرز ٢٠٢
 هنرى (ملك المانيا) ٢٤٤
 الحمير (نهر) ٣٢
 هويز ١١٢ ، ١١٤
 الهون ٣٣ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٧٠
 هونوريوس ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠
 الهنغاريون ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٤
 هوهنتسولرن (أسرة) ٢٠٤
 الهوهنتشاوفن ٥٩ ، ٨٤ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٨٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤
 ٢٤٦
 هيلد براند ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥
 هيوكايبه ٥٩ ، ٧٢
 هيوبروفاليس ٧٦

(و)

وات تيلر ١٥٣
 واليا ٣٣
 والدريك (أسقف) ٢٢٤ ، ٢٢٦
 وايكليف ١٤٣
 وسبي (مدينة) ٢٤٧
 وستمنستر ١٦٩
 وسكس ٣٢
 وليبرورد ٤٧ ، ١٢٦
 وليم الأول ١٧٣
 وليم شامبلت ٢٠٢
 وليم الفاتح ١٦٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٤
 الوندال ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ١٢٢ ، ١٢٦
 ويد مور (صلح) ٧١
 ويلز ١٦٨
 ويلفرد ١٢٦

(لا)

لا حون (ملیئة) ۲۲۴ ، ۲۲۵ ، ۲۲۶
لا تیران (قصر) ۱۲۹
لا چاکری (جہاۃ) ۱۵۳
لا نجلوڪ ۱۴۵ ، ۱۵۴ ، ۱۵۸ ، ۱۸۷
لا نکستر (أسرة) ۱۷۶

(ی)

یواکیم کورازو ۱۴۷
یوحنا الثاني عشر ۷۹ ، ۸۰ ، ۸۵
یورک (أسرة) ۱۷۶
یولیوس (بابا) ۱۲۳
یولیوس قيصر ۲۰

